جوناثان سويفت

رحلات غَلِفر

ترجمة: آلاء النحلاوي

فريق
متميزون
E-BOOK

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رحلات غَلِفر

رواية مترجمة..

(ترجمة جديدة)

الكاتب: جوناثان سويفت

ترجمة: آلاء النحلاوي

عن الرواية..

ما الذي يجري في عقل كاتب ما، عندما يرغب بشدة في قول ما يعتمل في صدره، لكن جغرافية عالمه لا تُسعفه؟ هل يقترح خريطةً جديدة؟ هل يجترح شعوباً غريبةً ليقول أحد أفرادهم ما يرغب بقوله؟ هل يفقد عقله ليستعيد صوابه؟ وهل يتعاقد مع الخيال ليأثّث الواقع؟ في هذا العمل الكلاسيكي للأيرلندي جوناثان سويفت، نرتحل إلى أربعة عوالمَ فريدة، في نسيجٍ ساخرٍ ومتهكم، سيشكّل بعد قرنين مصدر إلهام للعديد من الكتاب والفنانين، من فولتير إلى ديستوفسكي، ومن مسلسلات هانا باربرا الكارتونية مروراً بفأر والت ديزني الشهير "ميكي ماوس" إلى أفلام الأنمي الملحمية لهاياو ميازاكي.طارق الخواجي، كاتب وناقد سعودي.يمكن لنا أن نُفسّر جزئيًا [إقصاء "رحلات غلقر"] إلى عالم الأطفال من خلال حقيقة أنّ البالغين غير مستعدين لمواجهة الحقيقة بشأن أنفسهم.مَيْنرد ماك، ناقد أمريكي.

أظنّ أنّ رحلات غلقر عنى لي أكثر مما يعنيه أيّ كتاب آخر على الإطلاق. تكاد لا تمرّ سنة من دون أن أُعيد قراءة ولو جزء منه.

جورج أورويل، كاتب وأديب بريطاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلاتٌ إلى بلدان قصيّة في العالم
في أربعة أقسام

كتبها ليمويل غَلِڤر

رسالةٌ من القبطان غَلِڤر إلى قريبه سيمبسون

أرجو أن تكون على استعداد للاعتراف علنًا، إذا طلب منك ذلك، بأنك بعد إلحاح شديد ومتكرر أقنعتني بنشر توثيقٍ غير دقيق أو منظّم لرحلاتي، وأشرت عليّ بتوظيف شبّان من إحدى الجامعتين لترتيبها وتصحيح أسلوبها، كما فعل زميلي دامبيير عملًا بنصيحتي في كتابه المعنون «رحلة حول العالم» ([1]). لكنني لا أتذكر تفويضك بالموافقة على حذف أي شيء، علاوة على إضافة أي شيء. لذلك، أستنكر هنا كل شيء من هذا القبيل، بخاصة الفقرة المضافة عن جلالة الملكة آن المتوفاة ([2])، ذات الذكرى الجليلة والصالحة، رغم أنني كنت أكن لها احترامًا وتقديرًا أكثر من أي بشر. كان يجدر بك، أو بمحرّفك، مراعاة أنه لم يكن من رغبتي أو من اللائق أن أمدح أي حيوان من جبلّتنا أمام سيدي الهوينهم ([3]) ؛ عدا عن أن المعلومة المضافة كانت خاطئة أساسًا، لأنني كنتُ في إنكلترا خلال فترة من حكم جلالتها، وقد حكمتْ فعلًا بوجود وزير أول، حسب علمي، لا بل اثنين على التوالي، أولهما كان لورد غودولفين، والثاني كان لورد أكسفورد؛ وبذلك فقد جعلتني أقول ما لم يكن ([4]). كذلك، في الحديث عن أكاديمية المخترعين، وفي فقرات عديدة من حواري مع سيدي الهوينهم، حذفتَ بعض التفاصيل أو حورتها بطريقة جعلتني بالكاد أتعرف على عملي. عندما ألمحت إليك بذلك في رسالة سابقة أجبتني بأنك خشيت توجيه أي إهانة، وأن أصحاب السلطة يلقون عينًا يقظة على المنشورات، ومستعدون ليس فقط لتفسير ذلك، بل لمعاقبة أي شيء قد يبدو مثل تعريض (كما أظنك تدعوه) لكن بحقك، كيف يمكن لشيء قلتُه قبل سنوات عديدة، على بعد أكثر من خمسة آلاف فرسخ، وفي مملكة أخرى، أن ينطبق على أي من بني الياهو ([5]) الذين يقال إنهم يحكمون القطيع الآن، لا سيما في وقتٍ، قليلًا ما فكرت فيه أو خشيت تعاسة العيش تحت حكمهم. أو ليس سببًا أكثر من كافٍ للاستياء أن أرى أولئك الياهو أنفسهم راكبين عربة يجرها الهوينهم، كأن هؤلاء هم الحيوانات البرية وأولئك الكائنات العاقلة؟ ([6]) بالطبع، كان تجنب مثل ذلك المنظر الشاذّ والمقيت دافعًا رئيسيًا لعزلتي هنا.

هذا ما أردت أن أقوله فيما يتعلق بك، وبالثقة التي أودعتها فيك.

من جانب آخر، أشتكي من قلة حكمتي عندما اقتنعتُ بعد التماسات ومغالطات من قبلك ومن قبل آخرين، بما يتعارض مع رغبتي الخاصة، بالسماح بنشر رحلاتي. أرجوك تذكر فقط كم مرة نبهتك، عندما أصريتَ بدافع المصلحة

العامة، إلى أن بني الياهو صنفٌ من الحيوانات عاجز كليًا عن الإصلاح عن طريق الوصايا أو العبَر. وهكذا تبين بالفعل، فبدلًا مما توقعته من رؤية توقف كامل لكل أشكال الاستغلال والفساد، على الأقل في هذه الجزيرة الصغيرة؛ لاحِظ أنني بعد مهلة تزيد على ستة أشهر، لم أسمع أن كتابي قد أنتج أثرًا واحدًا مما أردت له. لقد طلبت منك أن تعلمني برسالة عندما يتم إبطال الأحزاب والطوائف؛ عندما يصبح القضاة واسعي المعرفة وشرفاء، والمرافعون أمناء وأعفّاء، وفيهم قليل من الفطنة؛ عندما تحرَق في سميثفيلد ([7]) أهرامات من كتب القانون؛ ويغير تعليم طبقة النبلاء كليًا؛ وينفى الأطباء؛ وترفل نساء الياهو في الفضيلة والعفة والصدق والإدراك السليم؛ وتُجتث وتلغى مجالس واستقبالات كبار الوزراء؛ ويكافأ الذكاء والكفاءة والعلم؛ ويحكم على ملطّخي سمعة المنشورات من شعرٍ ونثر بعدم أكل أي شيء إلا أوراقهم، أو ريّ عطشهم إلا بحبرهم. كنت أعوِل على هذه الإصلاحات وألفٍ غيرها بتشجيع منك، وكانت قابلة للاستنتاج بشكل واضح من الوصايا الموجودة في كتابي. لا بد من الاعتراف أن سبعة أشهر كانت وقتًا كافيًا لتقويم كل عيبٍ وحماقة عند الياهو، لو كان في طبيعتهم أقل ميل إلى الفضيلة أو الحكمة. لكنّك حتى الآن لم تستطع أن تحقق توقعاتي في أي من رسائلك، بل على العكس، تثقل بريدنا كل أسبوع بأخبار التشهير والشروحات والتأملات والسير الذاتية والأجزاء الثانية ([8])، أجد نفسي فيها متهمًا بانتقاد كبار رجال الحكم، وبامتهان الطبيعة البشرية (ما زال لديهم الثقة لوصفها بذلك)، وإهانة النساء. أرى أيضًا أن كتّاب هذه الأنواع ليسوا متفقين فيما بينهم؛ فمنهم من ينكر أن أكون مؤلف رحلاتي نفسها، ومنهم من يجعلني مؤلف كتب أنا غريب عنها كليًا.

وجدت أيضًا أن موظف الطباعة كان مهملًا لدرجة أنه خلط أوقات وأخطأ تواريخ الذهاب والعودة في عدد من رحلاتي، فلم يذكر السنة، أو الشهر، أو حتى اليوم من الشهر بشكل صحيح. وسمعت أن المخطوطة الأصلية تلفت تمامًا منذ نشر كتابي، وليس لدي أي نسخة عنها. على أي حال، لقد أرسلت إليك بعض التصحيحات، بإمكانك إدراجها إذا صدرت طبعة ثانية يومًا. مع ذلك لا يمكنني الإصرار عليها، وسأترك الأمر لقرائي المنصفين لتصحيحها كما يشاؤون.

سمعت أن بعضًا من ياهو البحر قد وجدوا أخطاء في لغتي البحرية، بوصفها غير ملائمة في عدة مواضع، أو غير مستخدمة اليوم. لا أستطيع تجنب ذلك، لأنني في رحلاتي الأولى عندما كنت شابًا، عملت مع أكبر البحارة سنًا، وتعلمت أن أتكلم مثلهم. لكنني منذ ذلك الوقت وجدت أن ياهو البحر، مثل ياهو البر، يميلون إلى أن يكونوا عصريين في كلامهم، الذي يتغير كل سنة؛ وأذكر أنني كلما عدت إلى بلدي كنت أجد لهجتهم القديمة قد تغيرت لدرجة أنني بالكاد

أستطيع فهم الجديدة. وعندما يأتي أي ياهو من لندن ليزورني في بيتي بدافع الفضول، لاحظت أن كلًا منا لا يستطيع أن يعبر عن أفكاره بطريقة مفهومة بالنسبة إلى الآخر.

لو كان لانتقادات الياهو أي تأثير عليّ، سيكون لدي الحق بالتذمر من جرأة بعضهم، التي بلغت حد التفكير بأن كتاب رحلاتي مجرد حكايا من صنع خيالي، ووصل بهم الأمر إلى التلميح بأن ليس للهوينهم والياهو أي وجود حقيقي أكثر من سكان يوتوبيا ([9]).

أعترف أنني، بالنسبة إلى شعوب ليليبوت وبروبدينغراغ (هكذا كان يجب أن تكتب الكلمة، وليس كما كتبت خطأ: «بروبدينغناغ») ولابوتا، لم أسمع بعد عن أي ياهو جريء كفاية لإنكار وجودهم، أو الحقائق التي ذكرتها فيما يتعلق بهم، لأن الحقيقة تقنع كل قارئ على الفور ([10]). وهل هنالك مصداقية أقل في حديثي عن بني الهوينهم أو الياهو، إذا كان من الواضح وجود عدة آلاف من ذلك الأخير حتى في هذه المدينة، لا يختلفون عن إخوتهم في أرض الهوينهم إلا بأنهم يستخدمون نوعًا من الهذرمة، ولا يتجولون عراة؟ لقد كتبت من أجل إصلاحهم، وليس من أجل نيل استحسانهم. إن مديح العِرقِ كله لي أقل أهمية عندي من صهيل هذين الهوينهم المتخلفين الذين أحتفظ بهما في إسطبلي، لأنني بسببهما، رغم تخلفهما، ما زلت أتحسن في بعض الفضائل، دون أي شائبة من الرذيلة.

هل تجرؤ تلك الحيوانات التافهة ([11]) على الظن بأنني متخلف لدرجة الدفاع عن مصداقيتي؟ صحيح أنني من بني الياهو، لكنني معروف في كل أرض الهوينهم بأنني استطعت خلال فترة سنتين، بإرشاد وتوجيه من سيدي الفذ (وأعترف أن ذلك تم بصعوبة كبيرة) أن أتخلص من العادات اللعينة من كذب ومراوغة وخداع وتلاعب، المتجذرة عميقًا في أرواح بني جنسي، الأوروبيين منهم خاصةً.

لدي اعتراضات أخرى على هذه المواضيع المزعجة، لكنني سأكف عن إتعاب نفسي والإثقال عليك أكثر. أعترف أن بعض عيوب طبيعتي الياهويّة قد تجددت فيّ منذ عودتي بعد الحديث مع بعض أفراد فصيلتك، خاصة أولئك الذين في عائلتي نفسها، بحكم ضرورة لا يمكن تجنبها. لم ينبغِ عليّ أبدًا أن أحاول العمل على مشروع عبثي كإصلاح بني الياهو في هذه المملكة، لكنني تخليت عن أي هدف واهمٍ كهذا إلى الأبد.

٢/أبريل/١٧٢٧من المحرر إلى القارئ

إن مؤلف هذه الرحلات، السيد ليمويل غَلِفر، صديقٌ قديم وحميم لي، وتربطنا صلة قرابة من جهة أمهاتنا. قبل ثلاث سنوات شعر السيد غَلِفر بالضجر من جموع الناس الفضوليين الذين يزورونه في منزله في ريدريف، فاشترى قطعة أرض صغيرة مع بيت مناسب قرب نيوارك بمسقط رأسه في نوتنغهامشير، وهو يعيش هناك الآن متقاعدًا، ومحبوبًا بين جيرانه.

رغم أن السيد غَلِفر ولد في نوتنغهامشير حيث عاش والده، إلا أنني سمعته يقول إن عائلته من أوكسفوردشير؛ والدليل على ذلك أنني رأيت عدة قبور لعائلة غَلِفر في مقبرة بانبري في تلك المقاطعة.

لقد ترك هذه الأوراق في عهدتي قبل أن يغادر ريدريف، ومنحني صلاحية استخدامها بالطريقة التي أراها مناسبة. بعد أن قرأتها بتمعن ثلاث مرات، وجدتُ الأسلوب شديد البساطة والسهولة، وخطأ المؤلف الوحيد هو أنه أسهب قليلًا في التفاصيل، على عادة الرحالة. هنالك جو من الحقيقة واضح في العمل كله، والمؤلف بالطبع معروف بمصداقيته ([12])، حتى صار أشبه بمثلٍ سائر بين جيرانه في ريدريف أن يؤكد أي منهم شيئًا فيقول، إنه صحيح كما لو أن السيد غَلِفر قاله.

عملًا بنصيحة عدة أشخاص قديرين عرضت عليهم هذه الأوراق بإذن من المؤلف، أرغب الآن بإرسالها إلى العالم، آملًا أن تكون، على الأقل لبعض الوقت، شاغلًا أفضل للشباب النبلاء، من قراءة الترهات المعتادة في شؤون السياسة والأحزاب.

كان يمكن لهذا الكتاب أن يكون أكبر بمرتين لو لم أقدم على حذف عدد كبير من الفقرات التي تصف حركة الرياح والمد والجزر، بالإضافة إلى ذكر الاتجاهات والتغيرات في رحلات عديدة، والوصف الدقيق لقيادة السفينة في العواصف على طريقة البحارة، وكذلك الحديث عن خطوط الطول والعرض. أخشى أن السيد غَلِفر مستاءٌ قليلًا من ذلك، لكنني صممت على جعل العمل يناسب عموم القراء بقدر الإمكان. على أي حال، إن كان جهلي بأمور البحر قد أدى بي إلى ارتكاب بعض الأخطاء، فأنا وحدي مسؤولٌ عنها. وإذا شعر أي رحالة بفضول لرؤية العمل كاملًا كما أتى من يد المؤلف، سأكون على استعداد لتلبية رغبته.

أما بالنسبة إلى أي تفاصيل أخرى تتعلق بالمؤلف، سيجد القارئ إجابات مُرضية من الصفحات الأولى من الكتاب.

ريتشارد سيمبسون ([13])

القسم الأول

رحلةٌ إلى ليليبوت

الفصل الأول

يحكي الكاتب القليلَ عن نفسه وعائلته، ودوافعه الأولى للسفر. تغرق سفينته فيسبح طلبًا للنجاة، يصل سالمًا إلى شاطئ في بلد يدعى ليليبوت. يُحمل سجينًا إلى داخل البلاد.

كان لوالدي عقارٌ صغير في نوتنغهامشير، وكنت الثالث بين خمسة أبناء. عندما بلغتُ الرابعة عشر من عمري أرسلني إلى كلية إيمانويل في كامبردج ([14])، حيث أقمت ثلاث سنوات وكرست نفسي للدراسة بجدّ. لكن عبء إعالتي فاق احتمال دخله القليل بالرغم من ضآلة مصروفي، فانتقلتُ للعمل متدربًا عند جراحٍ مرموق في لندن يدعى السيد جيمس بيتس. أمضيت معه أربع سنوات، وكان والدي يرسل إليّ بين حين وآخر مبالغ قليلة من المال، أنفقتها في تعلم الملاحة وبعض العلوم الرياضية النافعة لأولئك الذين ينوون السفر، لأنني شعرت دومًا أن ذلك سيكون قدري عاجلًا أم آجلًا. عندما تركت العمل مع السيد بيتس عدت إلى والدي، وحصلت بمساعدته ومساعدة عمي جون وبعض الأقارب على أربعين باوند، ووعدٍ بإعطائي ثلاثين باوند في السنة لإعالتي في ليدن ([15])، حيث درست الطب سنتين وسبعة أشهر، لعلمي أنه سيكون مفيدًا في الرحلات الطويلة.

بعد عودتي من ليدن بوقت قصير زكّاني أستاذي الفاضل بيتس للعمل جراحًا في سفينة «سوالو»، بقيادة القبطان أبراهام بانل، فعملت معه ثلاث سنوات ونصف، سافرنا خلالها مرة أو اثنتين إلى شرق المتوسط وبعض الأماكن الأخرى. عزمت بعد عودتي على الاستقرار في لندن، وقد شجعني السيد بيتس على ذلك، ورشحني إلى عدد من المرضى. عندئذٍ أخذت بيتًا صغيرًا في حي أولد-جوري، وبعد أن نُصحت بتغيير حالتي الاجتماعية تزوجت الآنسة ماري برتون، الابنة الثانية للسيد إدموند برتون، وهو تاجر ملابس رجالية في شارع نيوغايت، وتلقيتُ مهرًا قدره أربعمئة باوند.

لكن عملي بدأ يفشل إثر وفاة السيد بيتس بعد سنتين، وبسبب قلة أصدقائي، لأن ضميري لم يسمح لي أن أحذو حذو العديد من زملائي في سوء ممارستهم للمهنة. لذلك، بعد استشارة زوجتي وعدد من معارفي، صممتُ على الإبحار ثانية. عملت جراحًا في سفينتين على التوالي، وذهبت في رحلات عدة على مدى ست سنوات إلى الهند الشرقية والغربية، أكسبتني بعض المال. كنت أمضي أوقات فراغي بالقراءة لأفضل المؤلفين من حديث وقديم، حيث كان بحوزتي دومًا عددٌ وفيرٌ من الكتب، أما حين نرسو على أحد الشواطئ فقد كنت أشغل وقتي بتأمل سلوك الناس وطباعهم، وكذلك تعلم لغتهم، الأمر الذي كان سهلًا عليّ بفضل قوة ذاكرتي.

لم تكن آخر تلك الرحلات مربحة كما يجب، مما جعلني أملّ البحر وأنوي الاستقرار إلى جانب زوجتي وعائلتي. انتقلت من أولد-جوري إلى فيتر-لين، ومنه إلى وابينغ أملًا بالحصول على عمل بين البحارة، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا. بعد ثلاث سنوات من انتظار تحسن الأمور قبلت عرضًا مجزيًا من القبطان ويليام بريتشارد قائدِ سفينة «أنتيلوب»، الذي كان مسافرًا إلى بحر الجنوب. أبحرنا من بريستول في الرابع من مايو عام ١٦٩٩، وكانت رحلتنا في البداية مثمرة للغاية.

لن يكون ملائمًا، لأسباب معينة، أن أرهق ([16]) القارئ بتفاصيل مغامراتنا في تلك البحار. يكفي أن أخبره بأن عاصفة هوجاء ساقتنا إلى شمال غرب أرض فان-ديمن ([17]) خلال رحلتنا إلى جزر الهند الشرقية، فوجدنا أنفسنا على خط عرض ٣٠ درجة ودقيقتين جنوبًا، وقد هلك اثنا عشر رجلًا من طاقمنا بسبب الإجهاد وسوء التغذية، وكان البقية في حالة إعياء شديد.

في الخامس من نوفمبر الذي كان بداية الصيف في تلك المناطق، وسطَ جو ضبابي، رأى البحارة صخرة على بعد مئة ياردة ([18])، لكن الريح لشدتها ساقت السفينة باتجاهها فخرقتها على الفور. أنزل ستة رجال من طاقمنا، وأنا منهم، قاربًا إلى البحر، وتمكنا بصعوبة من الابتعاد عن السفينة والصخرة. جدفنا وفقًا لحساباتي ثلاثة فراسخ حتى لم نعد قادرين على فعل المزيد، لأننا كنا منهكين أصلًا من العمل على متن السفينة، فأسلمنا أنفسنا لرحمة الموج، وبعد نصف ساعة انقلب القارب بسبب هبوب ريح مفاجئة من الشمال. لا أعرف شيئًا عن مصير رفاقي في القارب، أو أولئك الذين لجؤوا إلى الصخرة، أو الذين ظلوا في السفينة، لكنني أظنهم هلكوا جميعًا. أما أنا فقد سبحت كما وجهني القدر، يدفعني إلى الأمام الريح والمد. كنت أترك رجليّ تغوصان فلا أشعر بالقاع، وما إن أوشكت على الهلاك وعجزت عن المقاومة أكثر، حتى وجدت نفسي قادرًا على لمس القاع بقدمي دون أن تغمر المياه رأسي، وكانت العاصفة عندئذ قد هدأت. كان انحدار الأرض قليلًا جدًا، فمشيت مسافة ميلٍ قبل أن أصل إلى الشاطئ، وخمنت أن الوقت كان الثامنة مساءً. مشيت نصف ميل دون أن أرى ما يشير لوجود بيوتٍ أو سكان، أو ربما جعلتني شدة إرهاقي لا ألاحظهم. كنت خائر القوى، واجتمع ذلك مع حرارة الجو ونصف كأس البراندي الذي شربته قبل أن أغادر السفينة، فوجدت نفسي راغبًا بالنوم. استلقيت على العشب الذي كان قصيرًا جدًا وطريًا، ونمت أعمق نوم أذكره في حياتي، لمدة ظننتها أكثر من تسع ساعات، لأنني حين صحوت كان ضوء النهار قد طلع للتو.

حاولت النهوض، لكنني عجزت عن الحراك. كنت مستلقيًا على ظهري، ووجدتُ ذراعيّ وساقيّ مثبتتة بقوةٍ على جانبيّ إلى الأرض، وشعري الذي كان طويلًا وكثيفًا، مثبتًا بالطريقة نفسها. شعرت كذلك بعدد من الحبال الرفيعة على

جسدي من إبطيّ وحتى فخذيّ. لم أستطع فعل شيء سوى النظر نحو الأعلى، لكن الشمس بدأت تسطع بشدة وضوؤها آذى عينيّ. سمعت ضوضاء حولي، لكنني بتلك الوضعية لم أستطع أن أرى غير السماء. ثم أحسست بشيء حيّ يتحرك على ساقي اليسرى ويتقدم برويّة فوق صدري حتى كاد يصل إلى ذقني، وعندما أنزلت ناظريّ إلى الأسفل بقدر استطاعتي، وجدت أنه كائن بشري لا يتجاوز طوله ستة إنشات ([19])، يحمل قوسًا وسهمًا في يديه، وكنانةً على ظهره. في تلك الأثناء شعرت بأربعين آخرين على الأقل يتبعونه، خمنت أنهم من مثل نوعه. كانت دهشتي عظيمة، وصرختُ بصوت مجلجلٍ جعلهم يتراجعون برعب، وعلمت لاحقًا أن بعضهم تأذى من السقوط بعد أن قفزوا عن جانبيّ إلى الأرض، لكنهم عادوا بعد ذلك مباشرة، وبعد أن تجرأ أحدهم على الاقتراب حتى رأى وجهي كاملًا، رفع يديه وناظرَيه بدهشة، وصاح صيحة عالية لكن بصوت واضح: «هيكينا ديغُل»، وكرر الآخرون الكلمات نفسها مرات عدة، لكنني لم أعرف معناها حينئذ. كنت ممددًا طوال ذلك الوقت بانزعاج كبير، كما يمكن للقارئ أن يتخيل، وبعد أن حاولت أن أحرر نفسي، وُفقت أخيرًا في قطع الحبال وقلع الأوتاد التي تثبت ذراعي اليسرى إلى الأرض، واكتشفت الأسلوب الذي اتبعوه في تقييدي عندما رفعتها نحو وجهي. في الوقت ذاته، حللتُ الحبال المربوطة بشعري من الجهة اليسرى بشدةٍ عنيفة مؤلمة، فاستطعت تحريك رأسي حوالي إنشين. لكن القوم هربوا ثانيةً قبل أن أتمكن من الإمساك بهم. ثم ترددت صيحةٌ عظيمة بنبرة حادة، سمعت بعدها أحدَهم يصرخ عاليًا: «تولغو فوناك»، فشعرت على الفور بأكثر من مئة سهم أطلقت على يدي اليسرى، وخزتني مثل إبرٍ كثيرة، من ثم أطلقوا دفعة جديدة في الهواء كما نطلق القذائف في أوروبا، أظن أن معظمها سقط على جسدي (رغم أنني لم أشعر بها)، وبعضها على وجهي الذي غطيته مباشرة بيدي اليسرى. عندما توقف وابل السهام تأوهت بألمٍ وأسى، وحاولت أن أحرر نفسي ثانيةً فأطلقوا وابلًا آخر أكبر من سابقه، وحاول بعضهم وخزي بالرماح في جنبيّ، لكنني كنت أرتدي سترة جلدية لم يستطيعوا خرقها. وجدت أن التصرف الأمثل هو الاستلقاء بلا حراك، وخططت للبقاء كذلك إلى الليل، عندها أستطيع أن أحرر نفسي بسهولة بما أن يدي اليسرى حرة أصلًا. أما بالنسبة إلى السكان، لدي سبب وجيه لأظن أنني أستطيع مواجهة أعتى الجيوش التي يمكنهم أن يحشدوها ضدي، إن كان جميعهم بحجم ذلك الذي رأيته. لكن الظروف هيأت لي شيئًا آخر.

عندما رأوني هادئًا توقفوا عن إطلاق المزيد من السهام، لكنني عرفتُ بازدياد الجلبة أن عددهم ازداد، وسمعتُ على بعد أربعة ياردات مقابل أذني اليمنى طرقًا لمدة تزيد على الساعة، كما لو أن أشخاصًا يباشرون عملًا ما. أدرت رأسي إلى ذلك الجانب بقدر ما أتاحت لي الأوتاد والحبال، فرأيت منصّةً

منصوبة ارتفاعها قدم ونصف عن الأرض تتسع لحمل أربعة من السكان، وثلاثةَ أو أربعة سلالم لصعودها. ألقى عليّ أحدهم من فوقها خطابًا طويلًا لم أفهم منه حرفًا واحدًا، وقد بدا شخصًا مرموقًا. جدير بالذكر أن ذلك الزعيم قبل البدء بخطابه صاح ثلاث مرات «لانغرو ديهول سان» (أعيدت عليّ هذا الكلمات وسابقاتها وشرحت لي لاحقًا)، أتى على إثرها حوالي خمسين من السكان على الفور، وقطعوا الحبال التي تثبت رأسي من الطرف الأيسر، مما أتاح لي أن أديره إلى اليمين وأنظر إلى هيئة ووقفة ذلك الموشك على الكلام. بدا في منتصف العمر، وأطول من الثلاثة الآخرين الذين يرافقونه؛ أحدهم كان خادمًا يحمل حاشية ثوبه، وبدا أطول من إصبعي الأوسط، ووقف الآخران على جانبيه لحمايته. كان يتكلم بأسلوب الخطباء، واستطعت أن ألاحظ فقراتٍ عديدةً من التهديد، وأخرى من الوعود والشفقة والعطف. أجبتُ ببضع كلمات بأسلوب شديد الإذعان، رافعًا يدي اليسرى وعينيّ نحو الشمس كأنني أطلبها شاهدًا. ولأنني كدت أهلك من الجوع، إذ لم آكل منذ ساعات قبل مغادرتي السفينة، وجدتُ حاجتي إلى الطعام قد ألحت عليّ بشدة، فلم أستطع كتم لهفتي ووضعت إصبعي على فمي مرارًا لأشير إلى رغبتي بالطعام(مخالفًا قواعد اللباقة على الأغلب) فهمني الهُرغو جيدًا (هكذا يسمّون لوردًا قديرًا، كما علمت لاحقًا)، فنزل عن المنصة وأمر بنصب عدة سلالم على جانبيّ، تسلقها أكثر من مئة من السكان، ومشوا باتجاه فمي مثقلين بسلالٍ ملأى باللحم، جُهزت وأرسلت إلى هناك بأمرٍ من الإمبراطور بعد أن وصله أول خبرٍ عني. لاحظت أن فيها لحوم عدة حيوانات، لكنني لم أستطع تمييز طعومها. كان هنالك أكتاف وأفخاذ وخواصر، شكلها مثل مثيلتها في الخروف ومطهوة بشكل جيد، لكنها أصغر من جناح القبرة. أكلت اثنين في اللقمة الواحدة، وتلقفت كل ثلاثة أرغفة معًا، حجمها مثل طلقة بندقية. لقد زودوني بالطعام بأسرع ما يمكن، مظهرين ألف علامة على حيرتهم ودهشتهم من حجمي وشهيتي. صنعت بعد ذلك إشارة أخرى إلى رغبتي بالشرب، واستنتجوا من طريقة أكلي أن كمية صغيرة لن تكفيني. كانوا أشخاصًا شديدي الذكاء، رفعوا واحدًا من أكبر براميلهم بمهارة كبيرة، ثم دحرجوه نحو يدي ونزعوا عنه الغطاء، فشربته برشفة واحدة. لا عجب في ذلك، فقد كانت سعته بالكاد نصف كأس، وطعمه مثل نبيذ برغندي، لكنه ألذ بكثير. أتبعوه ببرميل آخر شربته بالطريقة نفسها، وأشرت إلى رغبتي بالمزيد، لكن لم يكن لديهم المزيد لإعطائي. عندما أديت هذه العجائب صاحوا من البهجة، ورقصوا على صدري، مكررين كما في البداية عبارة: «هيكينا ديغُل». ثم أشاروا إليّ بأن أرمي البرميلين، بعد أن حذروا الناس في الأسفل كي يبتعدوا عن الطريق وهم ينادون: «بوراتش ميفولا»، وعندما رأوهما في الهواء صاحوا بصوتٍ مجلجل: «هيكينا ديغُل».

بينما كانوا يمشون جيئة وذهابًا على جسدي، أعترف أنني شعرت برغبة في التقاط أربعين أو خمسين ممن يكونون في متناولي، ورميهم أرضًا بقوة. لكنني سارعت بإبعاد تلك الخيالات عندما تذكرت ما أحسسته، والذي لم يكن أسوأ ما بإمكانهم فعله على الأغلب، ووعدَ الشرف الذي قطعته، فقد فسرت سلوكي المذعن على هذا الأساس. بالإضافة إلى ذلك، شعرت حينها أنني محكوم بقوانين حسن ضيافة أشخاص عاملوني بكثير من السخاء والرقي. على أي حال، كان عقلي عاجزًا عن الدهشة الكافية إزاء جسارة أولئك البشر المصغرين، الذين تجرؤوا على الصعود والمشي على جسدي بينما كانت إحدى يدي حرة، دون أن يرتجفوا لمجرد رؤية كائن عملاق كما بدوت بالنسبة إليهم.

بعد مدة، عندما لاحظوا عدم مطالبتي بالمزيد من اللحم، ظهر أمامي شخص رفيع المقام مرسلٌ من جلالة الإمبراطور. ارتقى أسفل ساقي اليمنى ثم تقدم صاعدًا نحو وجهي مع اثني عشر رجلًا من حاشيته، وبعد أن أخرج وثيقة إثبات شخصيته المختومة بالختم الملكي ووضعها قريبًا من عيني، تحدث قرابة عشر دقائق دون أي علامةٍ على الغضب، لكن بنوع من الحزم. أشار مرارًا إلى الأمام، واكتشفت لاحقًا أنه اتجاه العاصمة التي تبعد نصف ميل، وأمر جلالته في مجلسه بنقلي إليها. أجبت بكلمات قليلة، لكن دون جدوى، ووضعت يدي الطليقة فوق الأخرى (لكن فوق رأس سموّه، خوفًا من إيذائه أو إيذاء موكبه)، ثم أشرت إلى رأسي وجسدي لأشرح له أنني أريد حريتي. بدا أنه فهم قصدي، لأنه هز رأسه باستنكار، ورفع يده بطريقة معينة ليشرح أنني يجب أن أؤخذ كسجين. على أي حال، صنع إشارات أخرى ليفهمني أنني سأحصل على قدر كافٍ من اللحم والشراب، ومعاملةٍ ممتازة. عندها فكرت بأن أحاول قطع قيودي مجددًا، لكنني عندما شعرت بوخز سهامهم على وجهي ويدي، التي كانت مليئة بالجروح وكثير من السهام ما زال مغروسًا فيها، وعندما لاحظت أيضًا أن عدد أعدائي قد ازداد؛ صنعت إشارات ورموزًا لأخبرهم أن بإمكانهم أن يفعلوا بي ما يشاؤون. عندئذٍ انسحب الهُرغو وموكبه بتهذيب جمّ ووجوه بشوشة. ثم سمعت صيحة تتردد مع تكرار مستمر للكلمات «بيبلوم سيلان»، وشعرت بأعداد كبيرة من الناس على جانبي الأيسر يرخون الحبال، حتى أصبحت قادرًا على الدوران إلى اليمين وقضاء حاجتي بسهولة. فعلت ذلك بوفرة أثارت دهشتهم، وكانوا قد سارعوا بإفساح المجال إلى اليمين واليسار من ذلك الجانب، لتجنب السيل الذي خرج مني بعنف وضجيج. كل ذلك بعد أن دهنوا وجهي ويدي بمرهم ذو رائحة لطيفة، أزال كل الوخز من سهامهم خلال دقائق. جعلتني هذه الأحداث أرغب بالنوم، بالإضافة إلى الراحة التي شعرت بها بعد تناول مأكولاتهم ومشروباتهم المغذية للغاية. علمت لاحقًا أنني نمت ثمان ساعات، ولم يكن ذلك مفاجئًا، فقد خلط الأطباء شربةً منومة في براميل النبيذ بأمر من الإمبراطور.

يبدو أن الإمبراطور تلقى خبرًا مع مبعوث خاص فور اكتشافي نائمًا على الأرض، وأمر في مجلسه بتقييدي بالطريقة التي تحدثت عنها (وتم ذلك في الليل بينما كنت نائمًا)، وبإرسال الكثير من اللحم والشراب إليّ، وتجهيز مركبة لنقلي إلى العاصمة.

قد يبدو هذا القرار غاية في الجرأة والخطورة، وأنا على ثقة أن أي ملك في أوروبا لن يقلده في ظرف مشابه. على أي حال، وجدتُ القرار غاية في الحذر والكرم أيضًا، لأنهم لو حاولوا قتلي برماحهم وسهامهم أثناء نومي لاستيقظت حتمًا عند إحساسي بأول سهم، وكان ذلك سيثير غضبي وقوتي، مما سيمكنني من قطع الحبال التي تقيدني. عندئذٍ لن يكونوا قادرين على إبداء أي مقاومة، ولن يستطيعوا توقع أي رحمة.

يبرع أولئك الناس في الرياضيات، وقد وصلوا إلى كمال عظيم في الحرَف وصناعة الآلات، بدعم وتشجيع من الإمبراطور الذي يشتهر برعايته للعلم. كان يملك آلات عديدة ذات عجلات لحمل الأشجار وأوزان ثقيلة أخرى، وكثيرًا ما يأمر ببناء أكبر سفنه الحربية -التي يصل طول بعضها إلى تسعة أقدام- في الغابة حيث تنمو الأشجار، ثم يأمر بحملها على تلك الآلات ونقلها مسافة ثلاثمئة أو أربعمئة ياردة إلى البحر. بدأ خمسمئة نجار ومهندس العمل على تجهيز أكبر آلة لديهم، وهي عبارة عن لوح خشبي ارتفاعه عن الأرض ثلاثة إنشات، طوله سبعة أقدام وعرضه أربعة، ويمشي على اثنين وعشرين عجلة. سمعت صيحة عند وصول تلك الآلة، التي يبدو أنها انطلقت بعد أربع ساعات من وصولي. وضعوها موازية لي وأنا مستلقٍ، لكن الصعوبة الكبرى كانت تكمن في رفعي ووضعي فوقها. نُصب لتلك الغاية ثمانون عمودًا طول كل منها قدم، ثم ثبتت حبال متينة جدًا ثخنها مثل خيط قنب، بواسطة خطافات إلى عصابات عديدة طوق بها العمال رقبتي ويديّ وجذعي ورجليّ، وسحب تسعمئة من أقوى الرجال تلك الحبال عن طريق بكرات عديدة مثبتة على الأعمدة. بذلك، خلال أقل من ثلاث ساعات رفعت ووضعت في الآلة، وأحكم وثاقي بها. لقد علمت بكل ذلك لاحقًا، لأنني طوال تنفيذ العملية كنت أغط في نوم عميق بتأثير الدواء المنوّم المدسوس في شرابي. وظف ألف وخمسمئة من أكبر خيول الإمبراطور، التي يبلغ طول كل منها أربعة إنشات ونصف، لتجرني باتجاه العاصمة التي تبعد نصف ميل، كما أسلفت.

بعد أربع ساعات من بدء رحلتنا استيقظتُ بفعل حادث طريف جدًا، عندما توقفت المركبة قليلًا لإصلاح عطل ما. حيث شعر بعض الشبان أثناء ذلك بفضول لرؤية منظري وأنا نائم، فتسلقوا الآلة، وبينما هم يتقدمون نحو وجهي برويّة، أدخل أحدهم -هو ضابط في الحرس- الطرف الحاد من رمحه مسافة غير قصيرة في منخري الأيسر، فدغدغ أنفي مثل قشة وجعلني أعطس بقوة،

فتسللوا بعيدًا عن ناظري، ولم أعرف سبب استيقاظي المفاجئ إلا بعد ثلاثة أسابيع. قطعنا مسافة طويلة في ما تبقى من اليوم، واسترحنا في الليل، حيث وقف خمسمئة حارس على كل جانب مني، نصفهم يحمل مشاعل ونصفهم الآخر أقواسًا وسهامًا، متأهبين لإطلاقها عليّ إن حاولت الحراك. أكملنا مسيرنا في الصباح التالي عند الشروق، وقرابة الظهيرة أصبحنا على بعد مئتي ياردة عن بوابة المدينة. خرج الإمبراطور مع حاشيته للقائنا، لكن كبار موظفيه لم يسمحوا لجلالته بأن يعرض نفسه للخطر بالصعود على جسدي.

في المكان الذي توقفتْ فيه المركبة معبدٌ قديم يقدّر أنه الأكبر في المملكة كلها، لكنه لوث قبل سنوات بجريمة قتل مروعة، فأصبح مدنسًا وفقًا لحميّة أولئك الناس، بالتالي وظف للاستخدام العام ونقل منه كل الأثاث والزينة. قرروا أن أقيم في ذلك البناء. كان طول بوابته الكبيرة التي تواجه الشمال أربعة أقدام، وعرضها قدمان تقريبًا، وأستطيع أن أزحف عبرها بسهولة. على كل جانب من البوابة ثمة نافذة صغيرة تبعد بالكاد ستة إنشات عن الأرض، أوصل بها حدادو الإمبراطور إحدى وتسعين سلسلة، مثل تلك التي تتدلى من ساعة نسائية في أوروبا، وبمثل حجمها تقريبًا، وربطوها برجلي اليسرى بست وثلاثين قفل. على الطرف الآخر من الطريق الرئيسي الكبير مقابل المعبد، وعلى بعد عشرين قدمًا، كان هنالك برج طوله خمسة أقدام على الأقل، صعد إليه الإمبراطور مع عدد من كبار النبلاء كي يتمكنوا من رؤيتي، كما قيل لي، لأنني لم أستطع رؤيتهم بنفسي. يقدّر أن أكثر من مئة ألف من السكان خرجوا من المدينة للغاية نفسها، وبالرغم من وجود حراسي، أظن أن عدد أولئك الذين صعدوا إلى جسدي بواسطة السلالم لم يقل عن عشرة آلاف على عدة دفعات. لكن سرعان ما صدر قرار بمنع ذلك، عقوبة من يخالفه الموت. عندما وجد العمال أنه يستحيل عليّ الهرب قطعوا كل الحبال التي تقيدني، فنهضت بمزاج أكثر حزنًا من أي وقت في حياتي. وكانت جلبة ودهشة الناس لرؤيتي أنهض وأمشي لا توصف. كان طول السلاسل التي تقيد رجلي اليسرى حوالي ياردتين، وقد ثبتت على بعد أربعة إنشات عن البوابة، فلم تتح لي المشي إلى الأمام والخلف في نصف دائرة فقط، بل سمحت لي أيضًا بأن أزحف عبر البوابة وأستلقي بكامل طولي داخل المعبد.

الفصل الثاني

يذهب إمبراطور ليليبوت مع عدد من النبلاء لرؤية المؤلف في سجنه. يصف المؤلف هيئة الإمبراطور ولباسه. يكلف علماء بتعليمه لغتهم. ينال حظوة بفضل دماثته. تفتش جيوبه ويؤخذ منه سيفه ومسدساه.

عندما وجدت نفسي واقفًا على قدميّ نظرت حولي، وأعترف بأنني لم أر من قبل منظرًا أحلى، إذ بدت البلادُ أشبه بحديقة ممتدة، والحقولُ المسيّجة التي تبلغ مساحتها حوالي أربعين قدم مربع، مثل مساكبَ كثيرةٍ من الورد. كانت تلك الحقول متداخلة مع غابات مساحتها ثمن فدان، وقدرت ارتفاع أطول الأشجار بسبعة أقدام. ثم نظرتُ إلى المدينة عن شمالي، فبدت لي مثل مشهدٍ مرسوم لمدينة في مسرح.

كنت أشعر بحاجة ملحّة إلى التغوط منذ عدة ساعات، ولا عجب في ذلك، إذ مر يومان منذ قضيت حاجتي آخر مرة. واجهتني صعوبات عدة من الاضطرار والخجل، وأفضل حل استطعت التفكير به هو أن أزحف إلى داخل منزلي، وبعد أن أوصدتُ البوابة خلفي ذهبت إلى أبعد مكان يسمح به طول سلسلتي، وأفرغت جسدي من ذلك الحِمل المزعج. كانت تلك المرة الوحيدة التي ارتكبت فيها فعلًا وسخًا كهذا، ولا أرجو إلا أن يعذرني القارئ في ذلك، بعد أن يتأمل حالي بإنصاف، والضيقَ الذي كنت فيه. منذ ذلك الوقت أصبحت عادتي الدائمة أن أقوم بذلك الفعل في الهواء الطلق فور استيقاظي، وعلى امتداد سلسلتي، فتؤخذ العناية اللازمة قبل مجيء الزوار، بإبعاد المادة المؤذية في عربات تُجر باليد من قبل خادمين مكلفَين بتلك المهمة. لم أكن لأسهب هكذا في شرح تفصيل قد لا يبدو للوهلة الأولى عظيم الأهمية، لولا أنني رأيت من الضروري إنصاف نفسي أمام الناس في ما يتعلق بالنظافة، فقد قيل لي إن بعض المفترين طاب لهم التشكيك بذلك في هذه المناسبة وغيرها.

عندما انتهت تلك المحنة خرجت من منزلي مجددًا لأستنشق هواءً نقيًا. كان الإمبراطور عندئذٍ قد نزل من البرج ويتقدم باتجاهي راكبًا حصانه. كاد ذلك يكلفه غاليًا، لأن الحصان، بالرغم من أنه مدرب بشكل جيد، لم يكن معتادًا على رؤية منظر كمنظري، الذي بدا وكأن جبلًا يتحرك أمامه، فشبّ على رجليه الخلفيتين. لكن الإمبراطور الذي كان خيّالًا ماهرًا، حافظ على مكانه حتى تدخل خدمه وأمسكوا اللجام بينما تمكن جلالته من الترجل. عندما نزل تفحصني بدهشة كبيرة، لكنه بقي أبعد من مدى سلاسلي. ثم أمر طباخيه وسُقاته، الذين كانوا جاهزين مسبقًا، بإعطائي طعامًا وشرابًا، دفعوه بنوع من العربات ذات العجلات حتى استطعت تناولها. أخذت تلك العربات وأفرغتها كلها خلال وقت

قصير؛ كان عشرون منها مليئًا باللحم، وعشرة بالنبيذ، زودني كل منها بلقمتين كبيرتين أو ثلاث، وأفرغت نبيذ عشر قوارير خزفية في إحدى العربات وشربتها كلها رشفة واحدة، وكذلك فعلت بالباقي.

جلست الإمبراطورة وأمراء وأميرات العائلة الملكية بصحبة عدد من السيدات بعيدًا على كراسيهم، لكنهم عقب حادثة حصان الإمبراطور نزلوا واقتربوا من جلالته، الذي سأشرع بوصفه الآن؛ كان أطول من أي أحد في الحاشية بمقدار عرض ظفري، وهذا وحده كافٍ لبث الرهبة في الناظرين ([20]). قسماته قوية ورجولية، له شفة نمساوية ([21]) وأنف مقوس، بشرته زيتونية، قوامه منتصب، جسده وأطرافه متناسبة الأبعاد، حركاته رشيقة، وسلوكه ملكيّ. لم يكن حينها في ريعان شبابه، بعد أن بلغ ثمانية وعشرين عامًا وثلاثة أرباع، حكم في سبعة منها حكمًا هانئًا مظفرًا. استلقيت على جنبي كي أتمكن من رؤيته بشكل أفضل، بحيث أصبح وجهي مقابلًا لوجهه وهو واقف على بعد ثلاثة ياردات مني. لكنني حملته بعد ذلك عدة مرات في يدي، لذلك لا يمكن أن أخطئ في وصفه. ثوبه كان بسيطًا وعاديًا، طرازه بين الآسيوي والأوروبي، لكنه ارتدى على رأسه خوذة خفيفة من الذهب، مزينة بالجواهر وعلى قمتها ريشة. وحمل سيفَه مسلولًا في يده ليدافع عن نفسه إن هربت، طول نصله حوالي ثلاثة إنشات، قبضته وغمده مصنوعان من الذهب ومطعمان بالألماس. صوته كان حادًا لكن نقيًا وواضحًا، أستطيع سماعه بوضوح عندما أقف. كانت السيدات ورجال الحاشية يرتدون ثيابًا بديعة، وقد بدت البقعة التي وقفوا فيها أشبه بتنّورة ممدودة على الأرض، مطرزة برسومات من الذهب والفضة.

كلمني جلالته مرارًا، وأجبته، لكن لم يفهم أحدنا من الآخر حرفًا. كان بين الحضور عددٌ من كهنته ومحاميه (كما خمنت من سلوكهم)، أُمِروا بتقديم أنفسهم إليّ، وتحدثت إليهم بكل لغة عرفت منها ولو شذرات، وهي الألمانية والهولندية والفرنسية واللاتينية والإسبانية والإيطالية واللغة الهجينة ([22])، لكن دون جدوى. بعد ساعتين غادر الملك وحاشيته، وتركت برفقة حارس قوي ليمنع سفاهة وأذى الرعاع، الذين كانوا متلهفين بشدة للتجمهر حولي عن قرب، ووصلت الصفاقة ببعضهم إلى رميي بالسهام وأنا جالس على الأرض بجانب منزلي، كاد أحدها يصيب عيني اليسرى. أمر الجنرال بالقبض على ستة من زعماء الشغب، وفكر أنه لا يوجد عقاب ملائم كوضعهم مقيدين بين يدي. دفعهم عدد من جنوده بالطرف الأثخن من رماحهم إلى متناول يدي، فأخذتهم جميعًا بيمناي، ووضعت خمسةً منهم في جيب سترتي، أما السادس، فقد تظاهرت بأنني سوف آكله حيًا. زعق المسكين برعب، وأصيب الجنرال وجنوده بخوف شديد، خاصة عندما رأوني أخرج مِطواتي، لكنني سارعت بطرد مخاوفهم، فقد نظرت إليه بعطفٍ وقطعت الحبال التي كان مقيدًا بها، ثم

وضعته على الأرض بلطف، فلاذ بالفرار. عاملت الباقين بالطريقة نفسها، بإخراجهم واحدًا بعد آخر من جيبي، ولاحظت أن الناس والجنود كانوا ممتنين للفتة التسامح هذه، التي نفعتني حين عُرفت في القصر.

دخلت إلى منزلي في الليل ببعض الصعوبة، ونمت على الأرض. ظللت على تلك الحال أسبوعين، أصدر الإمبراطور خلالهما أمرًا بتجهيز سرير لي. جيء بستمئة فراش من القياس الشائع على عربات، وأدخلت إلى منزلي، حيث خيط مئة وخمسون فراشًا معًا لتشكل الطول والعرض، ووضع منها أربع طبقات، بالكاد أبعدتني عن قساوة البلاط المصنوع من حجر أملس. زودت بالملاءات والبطانيات واللحُف بالعدد نفسه، وكانت مريحة بما يكفي لشخص اعتاد على المصاعب لفترة طويلة مثلي.

مع انتشار خبر وصولي في المملكة، جاء عدد مهول من الناس الأغنياء والعاطلين والفضوليين لرؤيتي، حتى كادت القرى تخلو، وكان سيتبع ذلك إهمال كبير للفلاحة والأعمال المنزلية، لولا أن منع جلالة الإمبراطور هذه المتاعب بعدد من البيانات والأوامر، منها أنه يجب على من سبق ورآني أن يعود إلى منزله، وألا يحاول أحد الاقتراب من منزلي مسافةً أقل من خمسين ياردة دون إذن من القصر، وقد حصل الوزراء من ذلك رسومًا مرتفعة.

في تلك الأثناء عقد الإمبراطور عدة مجالس لمناقشة التدبير الذي سيتخذ بشأني، أخبرني بعدها صديق لي، وهو شخص ذو مقام رفيع ومطلع على كل الأسرار، أن القصر يواجه صعوبة كبيرة فيما يخصني. كانوا يخشون أن أهرب؛ أو أن يكون طعامي مكلفًا للغاية، ويسبب مجاعة. مرات صمموا على تجويعي، أو إطلاق سهام مسمومة على وجهي ويديّ، مما سيتسبب بقتلي خلال وقت قصير. لكنهم عادوا وفكروا أن نتن جثة بحجمي قد يسبب وباءً في العاصمة، وينتشر في المملكة كلها. خلال تلك المباحثات، ظهر عدة ضباط من الجيش على باب قاعة المجلس الكبرى، وبعد أن سمح لاثنين منهم بالدخول تحدثا عن تصرفي مع المجرمين الستة السابق ذكرهم، مما ترك عني انطباعًا حسنًا في نفس جلالته والمجلس كله، فصدر أمر ملكي يفرض على كل القرويين على مسافة تسعمئة ياردة حول المدينة أن يسلموا كل يوم ستة أبقار وأربعين خروفًا وأطعمة أخرى من أجل قوتي، بالإضافة إلى كمية متناسبة من الخبز والنبيذ وخمور أخرى، وكلف الإمبراطور الخزينة بالتكلفة الضرورية لذلك. يعتمد ذلك الإمبراطور بشكل رئيسي على الدخل القادم من أراضي المملكة، ولا يفرض أي ضريبة على رعاياه إلا في مناسبات عظيمة، وهم ملزمون بالقتال تحت رايته في حروبه على نفقتهم الخاصة. شكلت فرقة من ستمئة شخص لخدمتي، وكانوا يحصلون على بدل إقامة وغذاء تصرف لإعالتهم، ونصبت لهم خيامٌ على جانبي بابي. كذلك صدر أمر بأن يصنع لي ثلاثمئة خياط

ثيابًا على طريقة البلد، وأن يوظف ستة من أعظم علماء الإمبراطور لتعليمي لغتهم، وأخيرًا، أن تدرب خيول الإمبراطور والنبلاء وكتائب خيول الحرس في حضوري، كي تعتاد عليّ. وضعت كل تلك الأوامر قيد التنفيذ كما ينبغي، وخلال ثلاثة أسابيع أحرزتُ تقدمًا كبيرًا في تعلم لغتهم، حيث شرفني الإمبراطور بزيارات عدة وساهم مع أساتذتي في تعليمي. بدأنا فعلًا بالحديث معًا بطريقةٍ ما، وأول كلمات تعلمتها كانت للتعبير عن رغبتي بأن يتكرم بمنحي حريتي، وكررتها كل يوم جاثيًا على ركبتي. كان جوابه، حسب ما فهمت، أن تلك مسألة وقت، ولا يمكن أن يأخذها بعين الاعتبار دون مشورة مجلسه، وأنه يجب عليّ أولًا أن: «لوموس كيلمين بيسو ديسمار لون إمبوسو»، أي: أقسم على السلام معه ومع مملكته.

على أي حال، ذلك على أن أعامل بكل طيبة، وقد أشار عليّ أن أتقبل بصبري وسلوكي الرصين رأيه السديد ورأي وموظفيه، وطلب ألا أشعر بالإهانة إن أمر ضباطًا معينين بتفتيشي، إذ يحتمل أنني أحمل معي عدة أسلحة، لا بد أن تكون خطيرة إذا كان حجمها متناسبًا مع ضخامتي. قلت إن طلب الإمبراطور مجاب، وأنا مستعد للتجرد من ثيابي وقلب جيوبي أمامه. قلت ذلك قسمًا بالكلمات وقسمًا بالإشارات، فأجاب أن قوانين المملكة تقضي بأن يفتشني اثنان من ضباطه؛ أنه يعلم أن ذلك لا يمكن أن يتم دون موافقتي وتعاوني، وهو يملك ثقة بكرمي وإنصافي تجعله يأمن على ضباطه بين يدي؛ أن أي شيء يؤخذ مني سوف يعاد إليّ عندما أغادر البلاد، أو يدفع لي الثمن الذي أقدره له.

تناولت الضابطين بيديّ، ووضعتهما أولًا في جيب سترتي ثم في كل جيب لديّ، ما عدا جيبَي الساعة وجيب سريّ آخر كان فيه بعض الأغراض مما لا يهم أحدًا سواي، فلم أظن من الضروري تفتيشه. في أحد جيبَي الساعة كان هناك ساعة فضية، وفي الآخر قليل من الذهب في محفظة. أجرى السيدان، وهما مجهزان بقلم وورق وحبر، إحصاءً دقيقًا لكل شيء رأوه، وعندما فرغا، طلبا مني أن أنزلهما كي يبلغا الإمبراطور. ترجمت ذلك الجرد لاحقًا إلى الإنكليزية، وهو كالتالي كلمةً كلمة:

«أولًا، بعد تفتيش دقيق في الجيب الأيمن لمعطف الرجل الجبل العظيم (هكذا ترجمتُ كلمة كينبس فليسترين)، لم نجد سوى قطعة قماش خشن، كبيرة بما يكفي لتكون بساطًا في قاعة الاستقبال الرئيسية عند جلالتك. في الجيب الأيسر، وجدنا صندوقًا فضيًا ضخمًا له غطاء مصنوع من المعدن نفسه، لم نستطع نحن المفتشون أن نحمله. طلبنا منه أن يفتحه، ودخل أحدنا إليه، فوجد نفسه مغمورًا حتى منتصف ساقيه في غبار من نوعٍ ما، تطاير بعضه إلى وجهَينا، وجعلنا نعطس عدة مرات. في جيب صدريته الأيمن وجدنا حزمة ضخمة من رقائق بيضاء مطوية إحداها فوق الأخرى، بحجم ثلاثة رجال،

مربوطة بحبل متين، وتحمل إشارات سوداء استنتجنا بكل تواضع أنها كتابات، كل حرف منها بنصف حجم راحة يدنا. في الجيب الأيسر وجدنا أداةً يبرز من قسمها الخلفي عشرون عمودًا طويلًا تشبه السياج أمام قصر جلالتك، خمنّا أن الجبل البشريّ يسرّح شعره بها، فلم نكن نرهقه دومًا بالأسئلة، لأننا وجدنا من الصعب أن نجعله يفهمنا.

في الجيب الكبير على الجانب الأيمن من ردائه الأوسط (هكذا ترجمتُ كلمة رانفو-لو، التي يعنون بها بنطالي)، رأينا عمودًا حديديًا مجوفًا بطول رجُل تقريبًا، متصلًا بقطعة خشبية صلبة أكبر منه، ومن جانبه تبرز قطع كبيرة من الحديد مقسمة إلى أشكال غريبة لم نعرف ما تكون. في الجيب الأيسر آلة أخرى من النوع نفسه. في الجيب الأصغر على الجانب الأيمن، وجدنا عدة أقراص مسطحة من معدن أبيض وأحمر ([23])، أحجامها متفاوتة، وكانت بعض القطع البيضاء التي بدت مصنوعة من الفضة كبيرة جدًا وثقيلة، بحيث تمكنا أنا وصديقي من رفعها بصعوبة. في الجيب الأيسر وجدنا عمودين أسودين غير منتظمَي الشكل، لم نستطع أن نصل إلى قمتهما إلا بصعوبة ونحن واقفان أسفل جيبه، أحدهما كان مغطى ويبدو متجانسًا، لكن على القسم العلوي من الآخر بدت مادة بيضاء دائرية، حجمها ضعف حجم رؤوسنا، وفي داخل كل منهما صفيحة معدنية كبيرة. أمرناه أن يريها لنا خشية أن تكون آلة خطرة. أخرجها من غلافها وأخبرنا أنه في بلاده اعتاد على حلاقة ذقنه بأحدها وتقطيع اللحم بالأخرى. هنالك جيبان لم نتمكن من دخولهما، سماهما جيبَي الساعة، هما عبارة عن شقين كبيرين أعلى ردائه الأوسط، لكنهما مغلقان بضغط بطنه، من الأيمن تدلت سلسلة فضية كبيرة مع آلة غريبة معلقة بأسفلها. أشرنا إليه أن يخرج أيًا كان في نهاية تلك السلسلة، وتبين أنه كرة مفلطحة، نصفها من الفضة ونصفها الآخر من جوهر شفاف. رأينا على الجانب الشفاف أشكالًا غريبة مرسومة بترتيب دائري، وظننا أن بإمكاننا لمسها، حتى وجدنا أصابعنا قد توقفت عند تلك المادة الشفافة. وضع تلك الآلة على آذاننا، وكانت تصدر صوتًا متواصلًا مثل ناعورة. نعتقد أنه نوع مجهول من الحيوانات، أو الإله الذي يعبده، لكننا نميل إلى الرأي الثاني، لأنه أكد لنا (إن فهمناه بشكل صحيح، فقد عبر عن نفسه بشكل سيئ) أنه نادرًا ما يفعل أي شيء دون مشورتها، وسماها عرافته، وقال إنها تشير إلى الوقت لأي شيء يفعله في حياته. من الجيب الأيسر أخرج شبكة كبيرة تصلح أن تكون شبكة صيد، لكنها مصممة لتفتح وتغلق مثل محفظة، وتؤدي الغرض نفسه، وجدنا فيها عدة قطع ضخمة من معدن أصفر، إن كانت مصنوعة من ذهب حقيقي فهي ذات قيمة كبيرة.

بعد أن فتشنا جيوبه بدقة بهذا الشكل تنفيذًا لأوامر جلالتك، لاحظنا حزامًا يلفّ وسطه مصنوعًا من جلد حيوان ضخم، ويتدلى من جانبه الأيسر سيف بطول خمسة رجال، ومن الأيمن حقيبة أو كيس مقسوم إلى حجرتين، يتسع كل منها

لثلاثة من رعايا جلالتك، في إحدى هذه الحجرات توجد عدة كرات من معدن ثقيل جدًا، قريبة من حجم رؤوسنا، وتتطلب أذرعًا قويةً لرفعها، وفي الحجرة الأخرى كومة من حبيبات سوداء ليست ذات حجم أو وزن كبيرين، فقد استطعنا حمل أكثر من خمسين منها في راحتي يدينا.

هذا تقرير مفصل بما وجدناه في حوزة الرجل الجبل، الذي عاملنا بكل الرقي والاحترام اللازم لوفد جلالتكم. وُقع وختم في اليوم الرابع من القمر التاسع والثمانين من حكم جلالتكم المظفر.

كليفِن فريلوك، مارسي فريلوك

بعد أن قرئ هذا التقرير على الإمبراطور أمرني بتسليم هذه الأشياء العديدة. طلب سيفي أولًا فأخرجته بغمده، وأمر في تلك الأثناء ثلاثة آلاف من خيرة جنده (الذين كانوا برفقته حينها) أن يحيطوا بي من بعيد، بأقواسهم وسهامهم جاهزة للإطلاق، لكنني لم ألحظ ذلك لأن عيني كانتا مثبتتين على جلالته. ثم طلب مني أن أسل سيفي، وقد كان لامعًا تمامًا في معظم أجزائه رغم تكوّن بعض الصدأ من مياه البحر. عندما فعلت ذلك، صرخ كل الجند صرخة بين الرعب والمفاجأة، لأن الشمس كانت ساطعة، فأذهل انعكاس أشعتها أعينهم وأنا أحرك السيف بيدي يمينًا وشمالًا. كان جلالته شخصًا في غاية الشجاعة، فلم يخف بقدر ما توقعت، وأمرني أن أعيده إلى غمده وأضعه على الأرض بما أستطيع من الهدوء، على بعد ستة أقدام من نهاية سلسلتي. طلب فيما بعد واحدًا من الأعمدة المعدنية المجوفة، يقصد بها مسدسَي. أخرجته، وشرحت له كيفية استخدامه بقدر ما استطعت، ولقمته بالبارود فقط، الذي كان قد تجنب البلل بفضل إحكام عزل جيبي (وهي مشكلة يأخذ كل بحارٍ حذرٍ احتياطاته من حدوثها) حذرت الإمبراطور أولًا كي لا يخاف، ثم أطلقت النار في الهواء، لكن دهشته هنا فاقت دهشته لرؤية السيف، وسقط مئات الجند كالمصروعين. حتى الإمبراطور، رغم أنه ظل واقفًا، لم يتمالك نفسه قبل بعض الوقت. سلمت المسدسَين كما فعلت مع السيف، ومن ثم كيس البارود والطلقات، راجيًا إياه أن يبقى الأول بعيدًا عن النار، لأنه يمكن أن يشتعل بأصغر شرر ويفجر القصر الملكي في الهواء. كذلك سلمت ساعتي، وكان فضول الإمبراطور لرؤيتها شديدًا، فأمر اثنين من أطول حراسه بحملها بواسطة عمود على أكتافهم كما يحمل سائقو العربات في إنكلترا برميلًا من الجعة. ذهل من الصوت المتواصل الذي تصدره، ومن حركة عقرب الدقائق التي استطاع ملاحظتها بسهولة، لأن بصرهم أشد حدة من بصرنا. طلب آراء العلماء حولها، وكانت متنوعة وخاطئة، كما يمكن للقارئ أن يتخيل، ولو أنني لم أستطع فهمهم تمامًا. بعد ذلك سلمت نقودي الفضية والنحاسية؛ محفظتي وفيها تسع قطع ذهبية كبيرة وبضع قطع أصغر؛ سكيني وموس الحلاقة، ومشطي وصندوق النثار الفضي، ومنديلي

ودفتر يومياتي. نُقل سيفي ومسدساي وكيس البارود بعربات إلى مخازن جلالته، وأعيدت بقية أغراضي إليّ.

كان لديّ، كما أسلفت، جيب سريّ واحد نجا من تفتيشهم، فيه نظارات (أستخدمها أحيانًا لضعف في بصري) ومنظار جيب وبضع أدوات صغيرة أخرى لم تكن ذات أهمية بالنسبة إلى الإمبراطور، لذلك لم أر نفسي ملزمًا بالكشف عنها، وخشيت أن تضيع أو تتلف إن أخرجتها من حوزتي.

الفصل الثالث

يرفه المؤلف عن الإمبراطور والنبلاء والنبيلات بطريقة غير اعتيادية. وصف أساليب الترفيه في القصر الملكي في ليليبوت. يمنح المؤلف حريته مقابل شروط معينة.

كان للطفي وحسنِ سلوكي أثرٌ بالغ على الإمبراطور وحاشيته، وعلى الجيش والناس بشكل عام، حتى بدأت أضمر آمالًا بالحصول على حريتي في وقت قريب، فاتخذت كل السبل الممكنة لتغذية هذا الانطباع الحسن. أصبح السكان أقل خشية من أي خطر مني، فكنت أستلقي أحيانًا وأدع خمسة أو ستة منهم يرقصون على يدي، وصار الصبية والفتيات يتجرؤون أخيرًا على الاقتراب ولعب الغميضة في شعري. كنت عندئذ قد أحرزت تقدمًا في فهم وتحدث لغتهم. رغب الإمبراطور في أحد الأيام أن يسليني بعدد من عروض البلاد، التي يتفوقون فيها على كل الشعوب التي عرفتها، سواء من حيث المهارة أو الروعة. لم أستمتع بأي منها بقدر متعتي بمشاهدة عرض راقصي الحبل، الذي يؤدونه على خيط أبيض دقيق طوله قدمان، ومرفوع اثني عشر إنشًا عن الأرض. وسأطلب من القارئ الصبر كي أسهب قليلًا في الحديث عن ذلك.

لا يمارس هذه اللعبة إلا الأشخاص المرشحون لمناصب رفيعة أو حظوةٍ في القصر، ويدربون على هذا الفن من صغرهم، وهم ليسوا دومًا من أصل نبيل أو أصحاب تعليم عالٍ. عندما يصبح أحد تلك المناصب شاغرًا إما بسبب وفاة أو فضيحة (وهذا يحدث كثيرًا)، يلتمس خمسة أو ستة مرشحين من الإمبراطور إذنًا بالترفيه عن جلالته في القصر برقصةٍ على الحبل، ومن يقفز أعلى قفزة دون أن يسقط ينالُ المنصب. كثيرًا ما يُطلب من الوزراء أنفسهم إظهار مهارتهم، لإقناع الإمبراطور بأنهم لم يفقدوا موهبتهم، ويُسمح لوزير الخزينة فليمناب أن يؤدي رقصة قصيرة على الحبل المشدود، وعلى ارتفاع أعلى بإنش على الأقل من أي لورد آخر في المملكة. لقد رأيته يؤدي شقلبات متتالية فوق لوح خشبي مثبت على الحبل، الذي لم يكن أسمكَ من خيط القنب الشائع في إنكلترا. إن صديقي ريلدريسال وزير الشؤون الداخلية، إن لم أكن منحازًا، هو في رأيي الأفضل من بعد وزير الخزينة، أما بقية كبار الموظفين فهم متساوون فيما بينهم.

كثيرًا ما يصاحب هذه الألعاب حوادث مميتة، سجل منها الكثير، وقد رأيت بنفسي مرشحين أو ثلاثة يكسرون أحد أطرافهم. لكن الخطر يكون أكبر عندما يؤمر الوزراء أنفسهم بإظهار مهارتهم، لأنهم حين يتنافسون للتفوق على زملائهم يفرطون في بذل جهدهم، ولم يسلم أيّهم من السقوط مرة، وبعضهم مرتين أو ثلاث. لقد قيل لي إن فليمناب كاد أن يكسر عنقه قبل سنة أو سنتين

من وصولي، لو لم تكن إحدى وسائد الإمبراطور على الأرض بالصدفة، وخففت شدة السقوط.

هنالك أيضًا لعبة مشابهة لا يحضرها سوى الإمبراطور والإمبراطورة والوزير الأول في مناسبات معينة، حيث يضع الإمبراطور على طاولة ثلاثة خيوط حريرية دقيقة طولها ستة إنشات، أحدها أزرق، والثاني أحمر والثالث أزرق ([24])، ويقدم هذه الخيوط جائزةً للأشخاص الذين يقرر أن يخصهم بعلامة مميزة على استحسانه. تقام المراسم في القاعة الكبرى في القصر، حيث يجتاز المرشحون اختبارًا للمهارة يختلف تمامًا عن السابق، اختبارًا لم أر أدنى شبيه له في أي بلد آخر في العالم القديم أو الحديث. يمسك الإمبراطور عصًا بشكل أفقي، بينما يتقدم المرشحون واحدًا تلو الآخر، تارة يقفزون من فوق العصا وتارة يزحفون من تحتها ذهابًا وإيابًا، بحسب إن كانت مرفوعة أو منخفضة. أحيانًا يمسك الإمبراطور أحد طرفي العصا ويمسك الوزير الأول بالآخر، وأحيانًا يحملها الوزير بنفسه. يكافأ الشخص الذي يؤدي دوره برشاقة أكبر ويصمد لوقت أطول في القفز والزحف، بخيط الحرير ذي اللون الأزرق، ويمنح الأحمر للثاني، والأخضر للثالث، يتقلدونه ملفوفًا مرتين حول وسطهم، وقليلًا ما ترى أشخاصًا مرموقين في القصر غير متزينين بتلك الأحزمة.

لم تعد خيول الجيش والإسطبل الملكي تفزع مني بعد أن صارت تقاد أمامي يوميًا، بل ألفتني وبدأت تقترب من قدميّ دون خوف. وكان الفرسان يقفزون بها من فوق يدي بعد أن أضعها على الأرض، وقد قفز أحد صيادي الإمبراطور راكبًا جواده من فوق قدمي والحذاء، وكانت قفزة كبيرة بالفعل. في أحد الأيام جالفني الحظ بالترفيه عن الإمبراطور بطريقة غير عادية، حيث طلبت منه أن يأمر بإحضار عدة عصيّ طولها قدمان، وثخنها مثل عكاز، فأمر مسؤولَ الغابات بإعطاء توجيهات على هذا الأساس. في صباح اليوم التالي وصل ستة حطابين بها في مثل عددهم من العربات، يجر كلًا منها ثمانية جياد. أخذت تسعًا من العصي وثبتتها في الأرض بقوة في شكل رباعي مساحته قدمان ونصف، ثم أخذت أربع عصي أخرى وربطتها أفقيًا بكلّ زاوية، وعلى ارتفاع قدمين تقريبًا عن الأرض؛ بعد ذلك ربطت منديلي على العصي التسعة المنتصبة، وجذبته من كل الجوانب حتى أصبح مشدودًا كسطح الطبل؛ وأدت العصي الأربعة الأخرى، المرتفعة خمسة إنشات عن المنديل، دور الحافة في كل طرف. عندما أنهيت عملي طلبت من الإمبراطور أن يسمح لكتيبة من أفضل فرسانه، عددهم أربع وعشرون، بالتدريب على هذا السطح. وافق جلالته على عرضي، ورفعتهم واحدًا واحدًا بيدي، راكبين جيادهم وحاملين السلاح، مع الجنود المكلفين بتدريبهم. ما إن نظموا أنفسهم حتى افترقوا إلى قسمين، وأدوا اشتباكات مزيفة، وأطلقوا سهامًا كليلة؛ سلوا سيوفهم، فروا ولاحقوا، أغاروا وانسحبوا، باختصار، قدموا أفضل تدريب عسكري رأيته على الإطلاق. حِمتهم العصي

المتوازية وخيولَهم من السقوط عن المنصة، وسر الإمبراطور أشد السرور، حتى أمر بأن تعاد هذه التسلية أيامًا عدة. في إحدى المرات رغب بأن يُرفع إلى المنصة ويصدر الأوامر؛ حتى أنه أقنع الإمبراطورة نفسها، بصعوبة كبيرة، بأن تسمح لي بحملها في كرسيها على بعد ياردتين من المنصة، ومن هناك كانت قادرة على رؤية العرض كله بوضوح. من حسن حظي أن هذه الألعاب لم يتخللها أي حادث، إلا مرة حين ثقب جواد أحد القادة المنديلَ بحافره، وعثرت قدمه فسقط مع فارسه. لكنني أغثتهما على الفور، ثم غطيت الثقب بيدٍ وأنزلت الفرسان باليد الأخرى، بالطريقة نفسها التي رفعتهم بها. لوى الجواد الذي وقع كتفه اليسرى، لكن الفارس لم يصب بأذى. أصلحت منديلي بقدر ما استطعت، لكنني لم أعد أثق بمتانته بعد ذلك في هذه المغامرات الخطرة.

قبل يومين أو ثلاثة من إطلاق سراحي، بينما كنت أرفه عن الحاشية بهذا النوع من الأعمال المبهرة، جاء رسول يخبر جلالته أن بعض رعاياه، بينما كانوا راكبين خيولهم قرب المكان الذي عُثر عليّ فيه، رأوا على الأرض جسمًا كبيرًا أسود ذا شكل غريب، تمتد حافته الدائرية بعرض غرفة نوم جلالته، ويرتفع من منتصفه بطول رجُل؛ ولم يكن كائنًا حيًا كما ظنوا في البداية، فهو مستقر على العشب بلا حراك، ومشى بعضهم حوله عدة مرات؛ حتى أنهم تسلقوا أكتاف بعضهم للوصول إلى سطحه فرأوه مستويًا، وعندما داسوه بقوة وجدوه مجوفًا من الداخل؛ واستنتجوا بكل تواضع أن الجسم قد يكون شيئًا يخص الرجل الجبل، وإذا رغب جلالته، يمكنهم أن يتولوا إحضاره بمساعدة خمسة أحصنة فقط. عرفت فورًا ما يقصدون، وسعدت من قلبي لتلقي هذا الخبر، إذ يبدو أن قبعتي التي ربطتها بخيط إلى رأسي بعد تحطم السفينة وظلت عالقة طوال سباحتي، وقعت عند وصولي إلى الشاطئ قبل أن أصل إلى المكان الذي نمت فيه، فلم ألحظ ذلك لشدة ارتباكي، وظننت أنها ضاعت في البحر. ناشدت جلالته كي يأمر بإحضارها إليّ في أقرب وقت ممكن، واصفًا له استعمالها وطبيعتها. وصلت بها العربات في اليوم التالي، لكنها لم تكن في أفضل حال، فقد أحدثوا ثقبين في حافتها على بعد إنش ونصف من الطرف، وثبتوا بهما خطافين ربطوهما بحبل طويل إلى عتاد الأحصنة، ثم جروها لمسافة تزيد على نصف ميل إنكليزي. لكنها لم تتضرر بقدر ما توقعت، لأن أرض تلك البلاد ملساء ومستوية.

بعد مرور يومين على هذه المغامرة، أمر الإمبراطور القسم الذي يربض من جيشه في أرجاء العاصمة، أن يكون على أهبة الاستعداد، راغبًا بأن يرفه عن نفسه بطريقة استثنائية. طلب مني أن أقف مثل تمثالٍ عملاق ([25])، وأباعد بين رجلي بقدر ما أستطيع. ثم أمر الجنرال (الذي كان قائدًا مسنًّا متمرسًا، وأحد المؤيدين لي) أن ينظم الكتائب في صفوف متقاربة، ويأمرهم بالمسير من تحتي؛ أربعة وعشرون من المشاة في المقدمة، وستة عشر فارسًا، والطبول

تقرع، والرايات ترفرف، والرماح ممدودة. كان الجيش مؤلفًا من ثلاثة آلاف من المشاة وألف من الفرسان. وأصدر الإمبراطور أمرًا صارمًا، عقوبة مخالفته الموت، بأن يراعي كل جندي أثناء سيره التصرف بلباقة قصوى فيما يتعلق بشخصي. لكن ذلك لم يمنع بعض الجنود الأصغر سنًا من رفع أنظارهم وهم يمرون من تحتي، ولأقول الحقيقة، كان بنطالي في ذلك الوقت في حالة يرثى لها، مما أعطى فرصًا للضحك والدهشة.

كنت قد أرسلت العديد من المذكرات والالتماسات لطلب حريتي، حتى ذكر جلالته الأمر أخيرًا في مجلس خاص، ثم في مجلس استشاري كامل، ولم يعترض عليه أحد إلا سكايرش بولغولام، الذي قرر أن يكون عدوي اللدود دون أي سبب. لكن المجلس كله رفض اعتراضه، وقَبل الإمبراطور طلبي. كان ذلك الوزير برتبة «غالبِت»، أو أمير بحرية المملكة، وكان موضع ثقة الإمبراطور وملمًا بالشؤون العامة، لكن له سحنةً فظة متجهمة. اقتنع بالموافقة أخيرًا، لكنه أصر على أن يحدد بنفسه الشروط والبنود التي سيُطلق سراحي بموجبها. أحضر إليّ تلك البنود بنفسه، برفقة وكيلَي وزارة وعدد من كبار الشخصيات. بعد أن قرئت عليّ أمِرتُ أن أقسم على تنفيذها، أولًا بطريقة بلدي، ثم بالطريقة المسنونة في قوانينهم، وذلك بإمساك قدمي اليمنى بيدي اليسرى، ووضع الإصبع الأوسط من يدي اليمنى على قمة رأسي، وإبهامها على طرف أذني اليمنى. وبما أن القارئ قد ينتابه فضول لمعرفة أسلوب وطريقة التعبير الخاصة بأولئك الناس، وكذلك البنود التي استعدت حريتي بموجبها، فقد ترجمت الوثيقة كلمة كلمة، بأكبر دقة ممكنة، وهنا أقدمها للعامة.

«غولباستو مومارن إيفلامي غورديلو شيفين موللي أوللي غوي، جلالة إمبراطور ليليبوت المعظّم، حبورُ الكون وخوفه، الذي تمتد مملكته خمسة آلاف بلوسترغ (محيطها حوالي اثني عشر ميلًا) إلى أطراف العالم، ملكُ كل الملوك، أطولُ بني البشر؛ قدماه تثقلان الأرض، ورأسه يزاحم الشمس، بإيماءته ترتجف رُكب ملوك الأرض؛ بهيٌّ كالربيع، رخيّ كالصيف، خصيبٌ كالخريف، مَهيبٌ كالشتاء. يقدم جلالته المعظم إلى الرجل الجبل، الذي وصل مؤخرًا إلى مملكتنا العظيمة، البنودَ التالية، ويلزمه بتنفيذها بموجب قسَم رسميّ:

أولًا، يمنع الرجل الجبل من مغادرة أراضي مملكتنا دون إذنٍ ممهور بختمنا العظيم.

ثانيًا، يجب ألا يقدم على الدخول إلى عاصمتنا دون إذن منا، عندها تُترك للسكان مهلة ساعتين بعد تحذيرهم بالبقاء داخل بيوتهم.

ثالثًا، على الرجل الجبل أن يقصر مشيه على طرقاتنا الرئيسية، وألا يمشي أو يستلقي في مرجٍ أو حقل ذرة.

رابعًا، عندما يمشي في الطرق المذكورة، عليه توخي أشد الحذر لئلا يدوس أجساد أي من رعايانا الأحباء أو خيولهم أو عرباتهم، ولا يمسك أيًا منهم بيده دون موافقته.

خامسًا، إذا احتاجت برقية ما نقلًا عاجلًا، يلزم الرجل الجبل بحمل الرسول وحصانه في جيبه في رحلة تدوم ستة أيام، مرةً كل شهر، ويعيد ذلك الرسول معه (إذا طُلب منه ذلك) سالمًا للمثول بين يدي الإمبراطور.

سادسًا، عليه أن يكون حليفنا ضد أعدائنا في جزيرة بليفُسكو، وأن يفعل ما بوسعه لتدمير أسطولهم الذي يجهز الآن لغزونا.

سابعًا، يجب على الرجل الجبل المذكور آنفًا، أن يقوم في أوقات فراغه ببذل العون لعمالنا في رفع بعض الأحجار الكبيرة من أجل بناء جدار الحديقة الرئيسية، وأبنيتنا الملكية الأخرى.

ثامنًا، يجب على الرجل الجبل المذكور، أن يسلّم خلال شهرين حسابًا دقيقًا لمحيط مملكتنا باستخدام خطوته حول الساحل.

أخيرًا، بأدائه القسَم الرسمي على التزامه بالبنود السابقة، يحصل الرجل الجبل على معونة يومية من اللحم والشراب بما يكفي ١٧٢٨ من رعايانا، وإذنٍ بالوصول غير المشروط إلى شخصنا الملكي، وامتيازات أخرى. صدر في قصرنا في بيلفابوراك، في اليوم الثاني عشر من القمر الحادي والتسعين من حكمنا».

أديتُ القسَم ووقعت على تلك البنود بكثير من الرضا والسعادة، رغم أن بعضها لم يكن مشرفًا كما كنت أتمنى، وكان صادرًا عن حقد أمير البحرية سكايرش بولغولام. بذلك أزيلت قيودي مباشرة، وأصبحت حرًا تمامًا، وقد شرفني الإمبراطور بحضور المراسم كلها بنفسه. عبرت عن عرفاني بالسجود عند قدمي جلالته، لكنه أمرني بالنهوض، وبعد عدة تعابير كريمة لن أذكرها تجنبًا لاتهامي بالغرور، أضاف أنه يرجو أن يجدني خادمًا مخلصًا، مستحقًا كل الامتيازات التي منحني إياها، أو سيمنحني إياها مستقبلًا.

ربما لاحظ القارئ، أن الإمبراطور التزم في الشرط الأخير لاستعادة حريتي، بمنحي كميةً من اللحم والشراب كافية لإشباع ١٧٢٨ من رعايا ليليبوت. سألت بعد فترة صديقًا لي في القصر كيف حددوا ذلك العدد الدقيق، فأخبرني أن علماء الرياضيات لدى جلالته، بعد أن قاسوا طولي بواسطة ربعية ووجدوه يفوق طولهم بنسبة اثني عشر إلى واحد، استنتجوا من التشابه بيننا أن جسمي

يعدل على الأقل ١٧٢٨ من أجسامهم، وبالتالي يحتاج إلى طعام بالكمية اللازمة لإطعام ذلك العدد من سكان ليليبوت. بذلك قد يأخذ القارئ فكرة عن مدى عبقرية أولئك الناس، وكذلك عن التدبير الحذر والدقيق لذلك الإمبراطور العظيم.

الفصل الرابع

وصف ميلِندو، عاصمة ليليبوت، وقصرِ الإمبراطور. الحديث بين المؤلف وأحد الوزراء عن شؤون المملكة، واقتراح المؤلف أن يخدم الإمبراطور في حروبه.

أول شيء طلبته بعد أن استعدت حريتي هو إذن برؤية العاصمة ميلِندو، وقد منحني الإمبراطور ذلك بسهولة، مع توصية خاصة بألا أسبب الأذى للسكان أو لبيوتهم، وأرسَل مناديًا لإبلاغ الناس عن نيتي بزيارة المدينة. كان ارتفاع الجدار الذي يحيط بالمدينة قدمين ونصف وسمكه أحد عشر إنشًا على الأقل، بحيث يمكن لعربة بأحصنتها أن تسير بأمان فوقه، وفي جوانبه أبراج منيعة يبعد واحدها عن الآخر عشرة أقدام. خطوتُ من فوق البوابة الغربية الكبيرة، ومشيت بتأنٍ وبشكل جانبي في الشارعين الرئيسيين، مرتديًا صدريتي دون معطف خوفًا من إيذاء أسطح وأفاريز البيوت بأطرافه. سرت بحذر شديد لأتجنب الدوس على أي شارد ممن قد يكون في الشارع، رغم أن الأوامر كانت صارمة، بأن على الجميع البقاء في بيوتهم على مسؤوليتهم الخاصة. كانت نوافذ العليات وأسطح البيوت مكتظة بالمتفرجين، حتى هيئ إلي أنني لم أر مكانًا أكثر ازدحامًا في كل أسفاري. تشكل المدينة مربعًا طوله خمسمئة قدم، يمر عبرها شارعان رئيسيان عرضهما خمسة أقدام، ويقسمانها إلى أربعة مناطق. يتراوح عرض الأزقة والحواري التي لم أستطع دخولها، ورأيتها فقط أثناء عبوري، بين اثني عشر وثمانية عشر إنشًا. تتسع المدينة لخمسمئة ألف نسمة. بيوتها مؤلفة من ثلاثة إلى خمسة طوابق. والمتاجر والأسواق وفيرة البضائع.

يقع قصر الإمبراطور في مركز المدينة عند تقاطع الشارعين الرئيسيين، وهو محاط بسور طوله قدمان ويبعد عن المباني عشرين قدمًا. منحني جلالته إذنًا بالمرور من فوق ذلك السور، فاستطعت أن أرى القصر من كل الجوانب بسهولة، بسبب سعة المسافة بينهما. يشكل القصر الخارجي مربعًا طوله أربعون قدمًا، ويضم مبنيين، توجد في البناء الداخلي الأجنحة الملكية. كنت متلهفًا لرؤيتها، لكنني وجدت ذلك في غاية الصعوبة، لأن طول البوابات الكبرى التي تفضي إلى الفناء الداخلي حوالي ثمانية عشر إنشًا وعرضها سبعة إنشات، وارتفاع أبنية القصر الخارجي خمسة أقدام على الأقل، فكان من المستحيل أن أخطو من فوقها دون التسبب بضرر كبير لها، رغم أن الجدران كانت متينة ومبنية من حجر صقيل سمكه أربعة إنشات. في الوقت ذاته كان الإمبراطور راغبًا بأن أرى روعة قصره، لكنني لم أستطع فعل ذلك إلا بعد ثلاثة أيام، قضيتها وأنا أقطع بسكيني بعض أكبر الأشجار في الحديقة الملكية على بعد مئة ياردة

عن المدينة. من تلك الأشجار صنعت كرسيين متينين بما يكفي لحمل وزني، ارتفاع كل منهما ثلاثة أقدام. بعد أن تلقى الناس تحذيرًا ثانيًا، عبرتُ المدينة مجددًا إلى القصر وكرسياي بيدي. عندما وصلت إلى القصر الخارجي وقفت على أحد الكرسيين، ورفعت الثاني بيدي من فوق سطحه ووضعته بلطف على الأرض في الفناء بين القصرين، الذي كان عرضه ثمانية أقدام، ثم خطوت من فوق البناء بسهولة من كرسي إلى آخر، وسحبت الأول خلفي بواسطة عصًا معقوفة. بهذه الطريقة وصلت إلى الفناء الداخلي، وبعد أن استلقيت على جنبي، قربت وجهي من نوافذ الطوابق الوسطى التي تركت مفتوحة من أجلي، كاشفة عن أجنحةٍ أروع من الخيال. رأيت الإمبراطورة والأمراء الصغار في غرفهم العديدة بصحبة كبار خدمهم، فابتسمت جلالتها لي بوقار، ومدت يدها من النافذة كي أقبلها.

لن أشغل القارئ بذكر تفاصيل أكثر من هذا النوع، لأنني أحتفظ بها لعمل أكبر هو الآن شبه جاهز للنشر، يحوي وصفًا عامًا للمملكة منذ تأسيسها عبر سلسلة طويلة من الملوك، مع قدر معين من حروبهم وسياساتهم، وقوانينهم وعلومهم ودينهم، ونباتاتهم وحيواناتهم، وسلوكهم وعاداتهم المميزة، وأمور أخرى غريبة ومفيدة. أما مخططي الأساسي حاليًا هو سرد أحداث حصلت مع العامة أو معي، خلال إقامتي التي استمرت نحو تسعة أشهر في تلك المملكة.

بعد أسبوعين من حصولي على حريتي، جاء إلى منزلي ذات صباحٍ ريلدريسال، الوزير الأول للشؤون الداخلية (كما يدعونه)، برفقة خادم واحد فقط. أمر عربته أن تنتظره بعيدًا وطلب مني أن أمنحه ساعة لقاء، فقبلت مباشرة نظرًا لمنزلته وشيمه، وكذلك للخدمات الكثيرة التي قدمها إلي خلال التماساتي في القصر. عرضت عليه أن أستلقي كي يصل إلى أذني بسهولة أكبر، لكنه فضل أن أحمله بيدي خلال حديثنا. بدأ بتهنئتي على حريتي، وقال إنه يستطيع أن يدعي لنفسه بعض الفضل بها. لكنه أضاف، أنه لو لم تكن الأمور كما هي الآن في القصر، لما استعدتها بهذه السرعة. وقال، رغم أننا نبدو في وضع مزدهر بنظر الأجانب، فنحن نرزح تحت شرين قاهرين هما شقاقٌ عنيف في الداخل، وخطر الغزو من قبل عدو قوي من الخارج. بالنسبة إلى الأول، يجب أن تعرف أنه قبل أكثر من سبعين قمرًا، كان في هذه المملكة حزبان متناحران تحت اسمَي: ترامكسان وسلامكسان ([26])، نسبة إلى كعوب أحذيتهم العالية أو المنخفضة، التي يميزون أنفسهم بها.

يقال إن الكعوب العالية هي بالفعل أكثر توافقًا مع دستورنا القديم، لكن جلالته قرر بالرغم من ذلك استخدام الكعوب المنخفضة فقط في إدارة الحكومة، وفي كل منصب تحت إمرة التاج الملكي. ولا يمكنك إلا أن تلاحظ، بشكل خاص، أن كعب جلالة الإمبراطور أقصر بـ درور على الأقل من كعب أي أحد في

القصر (الدرور هو واحدة قياس تعادل واحدًا على أربعة عشر من الإنش تقريبًا) تفاقمت العداوة بين الحزبين، حتى أنهم لا يأكلون أو يشربون أو يتكلمون مع بعضهم. نعتقد أن الترامكسان، أو ذوي الكعوب العالية، يفوقوننا عددًا، لكن القوة في جانبنا تمامًا. نخشى أن جلالة الأمير وريث العرش لديه ميل نحو ذوي الكعوب العالية، نستطيع على الأقل أن نلاحظ أن أحد كعبيه أعلى من الآخر، مما يسبب عرجًا في مشيته. والآن، بعد كل هذه الاضطرابات الداخلية، نحن مهددون بالغزو من قبل جزيرة بليفُسكو، وهي المملكة العظيمة الأخرى في العالم، التي تكاد تداني هذه المملكة امتدادًا وقوة. أما بخصوص ما سمعناك تؤكده من وجود ممالك وبلاد أخرى في العالم، يسكنها بشر عمالقة مثلك، فإن علماءنا في شك كبير، ويرجحون أنك هبطت من القمر أو أحد النجوم، لأن من المؤكد أن مئة كائن بمثل حجمك يمكنهم خلال وقت قصير تدمير كل محاصيل ومواشي المملكة. بالإضافة إلى أن مؤرخينا منذ ستة آلاف قمر لم يأتوا على ذكر أي مناطق أخرى غير المملكتين العظيمتين ليليبوت وبلَيفُسكو. كانت هاتان القوتان العظيمتان منخرطتين، كما أردت أن أخبرك، في حرب مستعصية ستة وثلاثين قمرًا ([27])، بدأت بالحادثة التالية؛ من المتفق عليه من قبل الجميع أن الطريقة القديمة لكسر البيض قبل أكله، هي كسر البيضة من طرفها الأكبر، لكن جدّ جلالة الإمبراطور الحالي عندما كان صبيًا، أراد أكل بيضة، فجرح إصبعه وهو يكسرها حسب الطريقة القديمة. أصدر والده الإمبراطور على إثر ذلك قانونًا يلزم فيه كل رعاياه بكسر بيضهم من طرفه الأصغر، ويعاقب المخالف منهم عقوبات شديدة. استاء الناس بشدة من هذا القانون، حتى أن مؤرخينا يخبروننا عن قيام ست ثورات بسببه، فقد أحد الملوك فيها حياته، والآخر تاجه ([28]). كان ملوك بليفُسكو يحرضون على هذه الثورات، وعند قمعها كان المنفيون يهربون للجوء إلى تلك المملكة. لقد أحصي أحد عشر ألف شخص فضلوا الموت على الرضوخ بكسر البيض من طرفه الأصغر. نشرت مئات المجلدات الضخمة حول ذلك الجدال، لكن كتب أتباع الطرف الكبير محظورة منذ زمن طويل، وأصبح كل الحزب ممنوعًا بالقانون من شغل الوظائف. خلال فترة تلك الاضطرابات، احتجّ ملوك بليفُسكو بشكل متكرر عن طريق سفرائهم، واتهمونا بصنع شرخٍ في الدين بالتعدي على عقيدةٍ أساسية لنبينا العظيم لوستروغ، وردت في ًالفصل الرابع والخمسين من البروندريكال (وهو كالقرآن بالنسبة إليهم) ([29]). لكن يُعتقد أن ذلك مجرد تأويل خاطئ للنص، لأن الكلمات هي كالتالي: «على كل المؤمنين بحق أن يكسروا البيض من الطرف الملائم»، أما أي طرف هو الملائم، يبدو أن ذلك، برأيي المتواضع، متروك لضمير كل شخص، أو على الأقل، في مقدرة القاضي أن يبتّ فيه. لقد وجد المنفيون من أتباع الطرف الكبير دعمًا في قصر ملك بليفُسكو، وكثيرًا من العون والتشجيع السري من حزبهم هنا في البلاد،

فاستمرت حرب دامية بين المملكتين ستةً وثلاثين قمرًا دون نصر حاسم لأيهما. خلال ذلك الوقت فقدنا أربعين سفينة كبيرة، وعددًا أكبر من سفن أصغر، إلى جانب ثلاثين ألف من خيرة بحارتنا وجنودنا. ويقدر أن الضرر الذي أصاب عدونا أكبر من أضرارنا. على أي حال، لقد جهزوا الآن أسطولًا حاشدًا، ويحضرون لشن هجوم مباغت علينا. وقد أمرني جلالته بعرض هذه القضايا أمامك، بسبب الثقة الكبيرة التي أودعها في بسالتك وقوتك. طلبت من الوزير أن يعبر لجلالته عن التزامي المتواضع، ويعلمه أنني لم أر من المناسب لي، أنا الأجنبي، أن أتدخل بين الأحزاب. لكنني حاضرٌ للمخاطرة بحياتي للدفاع عنه وعن البلاد ضد كل الغزاة.

الفصل الخامس

يمنع الكاتب الغزو بخدعة حربية استثنائية. يمنح لقبًا تشريفيًا رفيعًا. يرسل سفراء من قِبل إمبراطور بليفُسكو يطالبون بالسلام. اندلاع حريق في جناح الإمبراطور بسبب حادث، وطريقة الكاتب في إنقاذ بقية القصر.

مملكة بليفُسكو جزيرة تقع شمال الجزء الشمالي الشرقي من ليليبوت، ولا يفصل بينهما سوى قناة عرضها ثمانمئة ياردة. لم أكن قد رأيت تلك المملكة بعد، وبعد أن علمت بخبر الغزو المحتمل تجنبت الظهور على ذلك الجزء من الساحل خوفًا من أن تكتشفني بعض سفن العدو، الذي لم يصله حتى ذلك الوقت أي خبر عني، فقد كان كل تواصل بين المملكتين محظورًا تمامًا خلال الحرب، وعقوبة من يخالف ذلك الموت، بالإضافة إلى حظر فرضه الإمبراطور على كل السفن بلا استثناء.

أبلغتُ جلالتَه بخطة وضعتُها للاستيلاء على أسطول العدو، الذي أكد لنا مستطلعونا أنه راسٍ في الميناء جاهزًا للإبحار مع أول رياح مواتية. شاورت أكثر البحارة خبرة بخصوص عمق القناة، وقد قاسوه من قبل مرارًا، فأخبروني أنه في المنتصف عند المياه العميقة سبعون غلَمغلَف، ما يعادل ستة أقدام على المقياس الأوروبي، وفي بقية الأجزاء خمسون غلَمـغلَف على الأكثر. مشيت إلى الساحل الشمالي الشرقي مقابل بليفُسكو، وبعد أن اختباتُ خلف ربوة أخرجت منظاري، فرأيت أسطول العدو راسيًا، مؤلفًا من حوالي خمسين سفينة حربية، وعدد كبير من سفن النقل. عدت إلى منزلي وأصدرت أمرًا بتجهيز كمية كبيرة من أقوى الحبال وقضبان الحديد (كان لدي إذن بذلك) كانت الحبال بسمك خيط قنب، وقضبان الحديد بطول وقياس إبرة خياطة. جدلتُ كل ثلاثة حبال لأزيدها متانة، وللسبب نفسه لففت ثلاثة قضبان حديد معًا، وطويت طرفها على شكل خطاف. ثبتتُ خمسين خطافًا بالعدد نفسه من الحبال، ثم عدت إلى الساحل الشمالي الشرقي، وبعد أن خلعت معطفي وحذائي وجواربي، دخلت ماشيًا إلى البحر بصدريتي الجلدية، على بعد نصف ساعة من المياه العميقة. خضت في الماء بأقصى سرعة، وسبحت في المنتصف حوالي ثلاثين ياردة إلى أن لمست القاع بقدميّ مجددًا، ووصلت إلى الأسطول في أقل من نصف ساعة. ذعر الأعداء لرؤيتي، فقفزوا عن سفنهم وسبحوا إلى الشاطئ، حيث لم يكن هنالك أقل من ثلاثين ألف شخص. عندها أخرجت عدّتي، وبعد أن ثبتت الخطاطيف بفتحة في مقدمة كل سفينة، ربطت نهايات كل الحبال معًا. بينما كنت منشغلًا بذلك أطلق العدو عدة آلاف سهم انغرس كثير منها في يديّ ووجهي، مما أربكني أثناء عملي، بالإضافة إلى

شعوري بوخز شديد. كان جلّ خوفي على عيني، وكنت سأخسرهما بلا شك لولا أن فكرت بحلّ فجأة. كنت قد أبقيت نظارة من بين عدة أغراض أخرى في الجيب السريّ الذي نجا من مفتشي الإمبراطور، كما ذكرت سابقًا. أخرجتها وثبتتها بقوة على أنفي، ومدرعًا بهذا الشكل، تابعت عملي بجرأة رغم سهام العدو التي اصطدم كثير منها بزجاج نظارتي، دون أن تؤثر بها سوى أن أزاحتها قليلًا. فرغت من تثبيت الخطافات، ثم أخذت العقدة في يدي وبدأت أسحب، لكن السفن لم تتحرك، لأنها كانت جميعًا مثبتتة بقوة بمراسيها، وهكذا بقي الجزء الأكثر جرأة من مغامرتي. تركت الحبالَ والخطافاتُ معلقة بالسفن، وبعزمٍ قطعت بسكيني حبال المراسي. أصبت عندها بأكثر من مئة سهم في وجهيٍ ويدي، ثم أخذت من جديد الطرف المعقود للحبال التي ثبتت بها خطافاتي، وسحبت بكل سهولة خمسين من أكبر السفن الحربية في أسطول العدو. أربكت الدهشة البليفُسكوديين في البداية، ولم يملكوا أدنى فكرة عما أنوي فعله، فقد ظنوا عندما رأوني أقطع الحبال أنني أخطط لترك السفن تنجرف بعيدًا، أو تصطدم محطمة بعضها بعضًا. لكنهم عندما رأوا كل الأسطول يتحرك بانتظام، ورأوني أسحبه من الطرف الآخر، أطلقوا صرخة حزنٍ ويأس يكاد يستحيل وصفها أو تخيلها. عندما ابتعدت عن الخطر توقفتُ قليلًا لأنزع السهام التي علقت بيديّ ووجهي، وأدهن بعضًا من المرهم الذي أعطيتُه عند وصولي أول مرة، كما ذكرت سابقًا. ثم نزعت نظارتي، وانتظرت حوالي ساعة حتى انحسر المد قليلًا. خضت عندئذٍ نحو منتصف القناة مع حمولتي، ووصلت سالمًا إلى ميناء ليليبوت الملكي.

كان الإمبراطور وحاشيته على الشاطئ بانتظار نهاية تلك المغامرة العظيمة. رأوا السفن تتقدم بشكل هلال كبير، واشتد خوفهم عندما وصلتُ إلى منتصف القناة، لأنني كنت مغمورًا بالماء حتى رقبتي، فظن الإمبراطور أنني غرقت، وأن أسطول العدو يتقدم بوحشية، لكن مخاوفه سرعان ما تلاشت بتناقص عمق القناة مع كل خطوة أخطوها، وما إن أصبحتُ على مسمع منهم حتى هتفتُ بصوت عالٍ حاملًا نهاية الحبل الذي يربط الأسطول: «فليحيَ حياةً طويلةً إمبراطور ليليبوت الجبار!». استقبلني ذلك الإمبراطور العظيم عند وصولي بكل المديح الممكن، ومنحني لقب نارداك على الفور، وهو أعلى لقب تشريفي عندهم.

كان جلالته يرغب بأن أستغل فرصة أخرى لإحضار بقية سفن العدو إلى موانئه. إن طموح الملوك لا حد له بالفعل، فقد بدا وكأنه لا يفكر بأقل من تحويل بليفُسكو إلى ولاية، وحكمها عن طريق نائب ملك. وبتدمير المنفيين من أتباع الطرف الكبير، وإجبار الناس على كسر بيضهم من الطرف الصغير، سيكون هو الإمبراطور الأوحد في العالم كله. لكنني حاولت أن أثنيه عن مخططه بعدة نقاشٍات تستند إلى حججٍ من السياسة ومبادئ العدالة، واعترضتُ بصراحة،

قائلًا إنني لن أكون أبدًا أداة لاقتياد ناس أحرار وشجعان إلى العبودية. عندما نوقشت المسألة في المجلس كان القسم الأكثر حكمة من الوزارة من رأيي، لكن تصريحي الجريء هذا كان مناقضًا لمخططات وسياسات جلالة الإمبراطور، فلم يسامحني أبدًا، وذكر ذلك بمكرٍ في المجلس، حيث قيل لي إن البعض من الأكثر حكمة بدا -على الأقل من صمته- في صفي. لكن لم يمتنع آخرون من أعدائي السريين عن إبداء بعض الملاحظات التي تعنيني بشكل غير مباشر. منذ ذلك الوقت بدأت تحاك مكيدة بين جلالته وعصبة من الوزراء الذين انقلبوا ضدي بشكل عدائي، وقد انكشفت بعد أقل من شهرين، وكادت تنتهي بدماري التام. لا شك أن للخدمات العظيمة التي تقدم إلى الملوك قليل من الوزن، عندما توضع بالمقارنة مع رفض تلبية رغباتهم.

بعد حوالي ثلاثة أسابيع من هذا العمل البطولي، وصل وفد رسمي من بليفُسكو مع عرضٍ متواضع للسلام، سرعان ما تم الاتفاق عليه بشروط تصب في مصلحة إمبراطورنا، لن أتعب القارئ بها. ضم الوفد ستة مبعوثين، مع حاشية مؤلفة من قرابة خمسمئة شخص، وكان دخولهم مهيبًا، متناسبًا مع عظمة إمبراطورهم وأهمية عملهم. بعد إبرام المعاهدة، التي قدمتُ لهم فيها خدمات عدة نظرًا للمكانة التي كنت أملكها، أو على الأقل بدوت كأنني أملكها في القصر؛ جاء حضراتهم في زيارة رسمية لي، بعد أن علموا كم كنت صديقًا لهم. بدؤوا بالكثير من الثناء على شجاعتي وكرمي، ودعوني باسم جلالة إمبراطورهم لزيارة تلك المملكة، وطلبوا مني أن أريهم بعض مظاهر قوتي الهائلة التي سمعوا عنها الكثير، فأجبت طلبهم على الفور، لكنني لن أشغل القارئ بهذه التفاصيل.

بعد أن رفهت عن حضراتهم وشعروا بكثير من المتعة والدهشة، طلبتُ منهم أن يشرفوني بالتعبير عن احترامي المتواضع لإمبراطورهم، الذي ملأت شهرة مناقبه العالمَ كله بالإكبار. قررت أن أزور جلالته قبل أن أعود إلى بلدي، لذلك عندما حظيت بلقاء إمبراطورنا مرة أخرى، طلبت إذنه للذهاب في زيارة ودية إلى الإمبراطور البليفُسكودي، فمنحني إياه بطريقة شديدة البرود، أحسست بها بوضوح دون أن أعرف لها سببًا، إلى أن علمت سرًا من أحد الأشخاص أن فليمناب وبولغولام فسروا تواصلي مع أولئك السفراء علامة على الخيانة، وأنا على ثقة أن قلبي بريء منها تمامًا. كانت تلك المرة الأولى التي بدأت أكوّن فيها فكرة سيئة عن القصور والوزراء.

جديرٌ بالذكر، أن أولئك السفراء تحدثوا معي عن طريق مترجم، وتختلف لغتا المملكتين عن بعضهما كاختلاف أي لغتين في أوروبا، وكل شعب يتباهى بعراقة وجمال وسعة لغته، مع ازدراء معلن للغة جيرانه؛ مع ذلك ألزمهم الإمبراطور بإظهار أوراقهم الرسمية وإلقاء خطابهم بلغة ليليبوت، مستغلًا الأفضلية التي

حققها بالاستيلاء على أسطولهم. ولا بد من الاعتراف، أنه بسبب التواصل الكبير بالتجارة بين المملكتين، والاستقبال المستمر للمنفيين بشكل متبادل بينهم، والعادة القائمة في كل مملكة بإرسال شباب النبلاء والطبقة الغنية إلى المملكة الأخرى، بهدف صقل أنفسهم برؤية العالم وفهم الناس والعادات؛ تجد قليلًا من ذوي المنزلة الرفيعة أو التجار أو البحارة الذين يسكنون المناطق الساحلية لا يستطيعون الحديث بكلا اللغتين، كما لاحظتُ بعد بضعة أسابيع عندما ذهبت في زيارة رسمية لملك بليفُسكو. وقد حملت تلك المغامرة سعادة بالغة لي، في خضم الكثير من المحن ورغم أذى أعدائي، كما سأحكي في الوقت المناسب.

قد يذكر القارئ أنني عندما وقعت على البنود التي استعدت بموجبها حريتي، لم يعجبني بعضها بسبب طبيعتها المذلة، ولم يكن ليجبرني على قبولها سوى ضرورة قصوى. أما الآن بعد أن نلتُ لقب نارداك، وهي إحدى الرتب الأعلى في المملكة، أصبحت تلك الخدمات أدنى من مستواي. وسأنصف الإمبراطور بأنه لم يذكرها قط أمامي، لكن لم يطُل الوقت قبل أن أجد فرصة لإسداء خدمة عظيمة لجلالته، أو هكذا ظننتها عندئذٍ. حدث ذلك عندما أفقت في منتصف الليل على صرخات مئات الأشخاص على بابي. شعرت ببعض الخوف نتيجة استيقاظي المفاجئ، وسمعت كلمة «برغلم» تكرر بلا توقف، بينما شق عدد من رجال الحاشية طريقهم وسط الحشد وناشدوني بالذهاب إلى القصر فورًا، فقد اشتعل حريق في جناح جلالته بسبب إهمال إحدى الخادمات، التي غطت في النوم بينما كانت تقرأ رواية عاطفية. نهضتُ على الفور، وأمرتهم بإفساح الطريق أمامي. كانت ليلةً مقمرة، وحاولت جاهدًا ألا أدوس أحدًا من السكان في طريقي إلى القصر. وجدتهم هناك قد أسندوا سلالم إلى جدران الجناح، وبأيديهم كثير من الدلاء. لكن الماء كان بعيدًا وحجم الدلاء مثل كشتبان كبير، فلم تجد نفعًا مع اضطرام ألسنة اللهب، رغم أن المساكين زودوني بها بأسرع ما يمكن. كنت سأستطيع إخمادها بمعطفي لو لم أتركه للسرعة، من سوء الحظ، وآتي مرتديًا صدريتي الجلدية فقط. بدت الحادثة يائسة ومحزنة، وكان ذلك القصر البديع سيحترق تمامًا بلا شك، لو لم أفكر بحل فجأةً وبسرعة بديهة غير معتادة بالنسبة إلي. كنت في الليلة السابقة قد شربت كثيرًا من نبيذ لذيذ للغاية يسمى «غلِمغرِم» (يدعوه البليفُسكوديون فلونك، لكن نبيذنا يعتبر الأفضل)، وهو نبيذ مدرّ جدًا. وبحسن حظ لا يصدق، لم أكن قد أفرغت جسدي من أي نقطة منه، وقد بدأ عندئذٍ، بتأثير حرارة النيران والجهد الذي بذلته لإطفائها، يتحول إلى بول، فأفرغته بكمية كبيرة، ووجهته بشكل جيد إلى الأماكن اللازمة، حتى أخمد الحريق تمامًا خلال ثلاث دقائق، ونجت بقية ذلك البناء البهي الذي استغرق بناؤه دهورًا من الدمار.

صار الوقت نهارًا، وعدت إلى منزلي دون أن أنتظر لتهنئة الإمبراطور، فبالرغم من أنني قدمت له خدمة عظيمة، لم أستطع أن أخمن إن كان جلالته سيستاء من طريقتي في تنفيذها. لأن القوانين الأساسية للمملكة تعدها جريمة كبرى [30] أن يتبول أي شخص، مهما كانت رتبته، ضمن مشارف القصر. طمأنتني قليلًا رسالة من جلالته، أخبرني فيها أنه سيصدر أمرًا لهيئة الجنايات العليا بإصدار عفو رسمي عني، لم أستطع الحصول عليه على أي حال. وقيل لي سرًا إن الإمبراطورة انتقلتْ إلى القسم الأبعد من القصر بعد أن شعرتْ باشمئزاز كبير مما فعلت، وقررتْ بشكل قطعي ألا يتم إصلاح تلك الأجنحة كي تستخدمها مجددًا، ولم تمتنع عن التعهد بالانتقام في حضور مستشاريها الثقات.

الفصل السادس

عن سكان ليليبوت؛ علمهم وقوانينهم وعاداتهم. طريقة تعليم أطفالهم. أسلوب حياة الكاتب في ذلك البلد. دفاعه عن سمعة سيدة مرموقة.

رغم أنني أنوي ترك وصف المملكة إلى بحثٍ مفصّل، يسرني حتى ذلك الحين أن أمنح القارئ الفضولي بعض الأفكار العامة عنها. إن الطول الوسطي للسكان قريب من ستة إنشات، ويوجد تناسب دقيق بينه وبين كل الحيوانات، وكذلك النباتات والأشجار: مثلًا، يتراوح طول الأحصنة والثيران بين أربعة وخمسة إنشات، طول الخراف إنش ونصف تقريبًا، إوزهم بحجم عصفور الدوري، وهكذا تتدرج الأحجام نزولًا حتى تصل إلى الأصغر، التي كادت تكون غير مرئية بالنسبة إلي. لكن الطبيعة كيفت أعين الليليبوتيين لرؤية كل الأجسام المحيطة بهم، فيرون بدقة كبيرة، لكن ليس لمسافات بعيدة. ولأبين مدى حدة بصرهم تجاه الأشياء القريبة، أذكر أنني استمتعت مرة بمشاهدة طباخ ينتف ريش قبّرة لم يكن حجمها أكبر من ذبابة، وفتاة تلقم إبرة غير مرئية بخيط غير مرئي. يصل طول أكبر أشجارهم إلى سبعة أقدام، أعني بعض تلك التي في الحديقة الملكية الكبيرة، التي استطعت أن أطال قمم بعضها وقبضتي مضمومة. حجم الثمار والنباتات الأخرى متناسب بالشكل نفسه، لكنني أترك ذلك لمخيلة القارئ.

لن أقول الآن سوى القليل عن علمهم الذي ازدهر على مدى عصور في كل فروعه. لكن طريقتهم في الكتابة فريدة جدًا، فهي ليست من اليسار إلى اليمين كالأوروبيين، ولا من اليمين إلى اليسار كالعرب، ولا من أعلى لأسفل كالصينيين، ولا من أسفل لأعلى كالكاسكاغيين. بل بشكل مائل من إحدى زوايا الورقة إلى الأخرى، مثل سيداتنا في إنكلترا.

يدفنون موتاهم شاقوليًا بحيث تكون رؤوسهم نحو الأسفل، لأنهم يعتقدون أنهم سيبعثون بعد أحد عشر ألف قمر، عندئذٍ ستكون الأرض (التي يعتقدون أنها مستوية) قد انقلبت رأسًا على عقب، وبتلك الطريقة سوف يجدون أنفسهم واقفين على أقدامهم عند بعثهم. يعترف علماؤهم بسخف هذا المعتقد، لكن العادة مستمرة مراعاةً للعامة.

في هذه المملكة قوانين وعادات شديدة الغرابة، ولولا أنها مناقضة تمامًا لما في بلدي العزيز لملت إلى قول القليل للدفاع عنها. أتمنى فقط لو كانت تطبق بشكل جيد. سأبدأ أولًا بما يتعلق بالوشاة؛ كل الجرائم المرتكبة بحق الدولة تعاقب بالشدة القصوى، أما إذا أثبت المتهم براءته في محاكمته، يعاقب الواشي على الفور بموت مخزٍ، ويعوض البريء من أملاكه أو أراضيه أربعة

أضعاف عن ضياع وقته، والخطر الذي تعرض له، ومشقة حبسه، وعن كل النفقات التي تكبدها للدفاع عن نفسه. وإن كان ذلك المصدر غير كافٍ، يتم تأمينه من قبل القصر الملكي. بالإضافة إلى أن الإمبراطور يكرمه بشكل علني، ويعلن عن براءته في أنحاء المدينة.

يعدون الاحتيال جريمة أكبر من السرقة، ويندر أن يعاقبوا مرتكبه بأقل من الموت، فهم يرون أن الحيطة والحذر مع قدر عادي من الذكاء، يمكن أن تحفظ أملاك الشخص من اللصوص، لكن الأمانة ليس لها من وقاء ضد المكر البارع. ولأن من الضروري وجود تبادل دائم من بيع وشراء وتعامل بالدين، حيث يغض الطرف عن الاحتيال أو يتآمر عليه، أو ليس من قانون يعاقب مرتكبيه، يدمَر التاجر الأمين دومًا، بينما يَغنم المحتال. أذكر أنني تشفعتُ مرةً عند الإمبراطور لمجرمٍ سلب من سيده مبلغًا كبيرًا من المال، تسلمه بأمر منه ثم هرب به؛ وقلت لجلالته، على سبيل التخفيف، إن ذلك كان مجرد انتهاك ثقة، فرأى الإمبراطور مني خطأً شنيعًا أن أستخدم أخطر ما في الجريمة كدفاعٍ عنها. للحقّ، لم يكن لدي ما أقوله سوى الجواب المعتاد، من أن الشعوب المختلفة لها عادات مختلفة ([31])، وأعترف أنني خجلت تمامًا.

رغم أننا ندعو المكافأة والعقاب المفصلين اللذين تدور حولهما كل الحكومات، لم أر هذا المبدأ ينفذ عند أي شعب غير شعب ليليبوت. فهناك، كل من يستطيع توفير دليل كافٍ على أنه راعى قانون بلاده بدقة لمدة ثلاثة وسبعين قمرًا، يحق له ميزات معينة بحسب منزلته وظروف حياته، مع مبلغ متناسب من المال من صندوق مخصص لذلك الغرض. كذلك يمنح لقب سِنلبال، أو ليغال، يضاف إلى اسمه لكنه لا يورث إلى ذريته. وقد رأى أولئك الناس خللًا هائلًا في سياستنا عندما أخبرتهم أن قوانيننا تقوم على العقوبات دون أي ذكر للمكافآت. لذلك يملك تمثال العدالة في محاكمهم القضائية ستة أعين، اثنتان في الأمام، ومثلها في الخلف، وواحدة على كل جانب رمزًا للحذر؛ مع كيس ذهب مفتوح في يمناها وسيف مغمد في يسراها، دلالة على أنها أكثر ميلًا إلى المكافأة من العقوبة.

عند اختيار أشخاص لشغل أي وظيفة، يولون للأخلاق الحميدة اهتمامًا أكبر من الكفاءات العظيمة. ونظرًا إلى أن الحكم ضروري للبشر، فهم يرون أن الذكاء العادي للناس يؤهلهم لوظيفةٍ أو لأخرى، وأن العناية الإلهية لم ترد أبدًا جعل إدارة الشؤون العامة لغزًا يعرفه أشخاص معدودون من أصحاب العبقرية الفذة، الذين يندر أن يولد منهم ثلاثة في العصر الواحد: بل يعتقدون أن الصدق، والعدل، وضبط النفس وما شابه، أشياء في استطاعة كل إنسان؛ أن ممارسة هذه الفضائل، مصحوبةً بالخبرة والنية الحسنة، تؤهل أي شخص لخدمة بلاده، إلا حين تكون الإحاطة بعلمٍ معين ضرورية. وهم يرون أن نقص الفضائل

الأخلاقية لا يمكن أن تعوضه الملكات الذهنية العالية، وأن الوظائف لا يصحّ أن توضع في أيدٍ خطرة كأيدي الأشخاص المؤهلين لتلك الدرجة؛ وأخيرًا، أن الأخطاء المرتكبة عن جهلٍ وبنية حسنة، لن يكون لها أبدًا نتائج مدمرة للمصلحة العامة، كممارسات شخصٍ مال بطبعه إلى الفساد، وتمكن بقدراته من ارتكاب أعمال فاسدة وتوسعتها والدفاع عنها.

كذلك فإن إنكار القدرة الإلهية يجعل الشخص غير مؤهل لتقلد أي منصب حكومي، لأن الملوك يعلنون أنفسهم ممثلين للمشيئة الإلهية، ويرى الليليبوتيون أن لا شيء أسخف من أن يوظف ملكٌ رجالًا ينكرون السلطة التي يعمل بموجبها.

بالحديث عن هذه القوانين والقوانين الأخرى، فالمقصود بكلامي هو القوانين الأصلية، وليس أعمال الفساد الشائنة التي وقع فيها أولئك الناس بسبب الطبيعة البشرية الفاسدة. أما بالنسبة إلى تلك العادة الشائنة من تقلد المناصب المهمة بالرقص على الحبال، أو اكتساب شهادات التكريم والتمييز بالقفز من فوق العصي والزحف من تحتها، فليعلم القارئ أن أول من أتى بها كان جدّ الإمبراطور المتوج الآن، واكتسبت منزلتها الحالية مع الازدياد التدريجي للأحزاب والطوائف.

يعد الجحود عندهم جريمة كبرى، كما نقرأ أنه كان كذلك في بلدان أخرى؛ وحجتهم هي أن من يسيء إلى من أحسن إليه، لا بد أن يكون عدوًا لبقية البشر الذين لا يدين لهم بشيء، وبالتالي فإن شخصًا مثله لا يستحق العيش.

تختلف أفكارهم المتعلقة بواجبات الوالدين والأبناء اختلافًا جذريًا عن أفكارنا. نظرًا إلى أن التقاء الذكر والأنثى قائم على قانون الطبيعة العظيم بهدف التكاثر واستمرار النوع، يرى الليليبوتيون أن الرجل والمرأة يجتمعان -كسائر الحيوانات- بدافع الشهوة، وأن عطفهم تجاه صغارهم ينبع من قوانين الطبيعة المشابهة: لذلك السبب لا يقبلون على الإطلاق بوجود أي التزام على الولد تجاه والده لأنه خلّفه، أو تجاه أمه لأنها أنجبته إلى العالم؛ حيث إن إنجابه لم يكن ذا نفع بحد ذاته، أخذًا بالاعتبار عذابات الحياة البشرية، ولم ترجَ منه منفعة من قبل والديه، الذين كانت أفكارهما في مكان آخر خلال لقاءاتهما الحميمة. على ذلك، ولأسباب مشابهة، يرون أن الآباء والأمهات هم آخر من يمكن ائتمانه على تعليم أولادهم ([32]) ؛ لذلك أقاموا في كل مدينة مدارس عامة، يلزم الجميع عدا الفلاحين والعمال بإرسال أطفالهم من الجنسين إليها بعد بلوغهم عشرين قمرًا، من أجل تربيتهم وتعليمهم، إذ يفترض أنهم في هذه السن قد تعلموا بعض قواعد السلوك. لهذه المدارس عدة أنواع للجنسَين، وتناسب طبقات اجتماعية مختلفة. يوجد فيها أساتذة متمرسون في تهيئة الأطفال لظروف

الحياة بما يتناسب مع طبقة الوالدين، ويتفق مع قدراتهم وميولهم. سوف أتحدث قليلًا عن مدارس الذكور، ومن ثم مدارس الإناث.

تزود مدارس الذكور من النبلاء بأساتذة ذوي علم ووقار، بالإضافة إلى نوابهم. ملابس وأطعمة الأطفال بسيطة وعادية. ينشؤون على مبادئ العفة، والعدل، والشجاعة، والتواضع، والتسامح، والدين، وحب وطنهم. ينشغلون دومًا بعمل ما، عدا أوقات الأكل والنوم القصيرة للغاية، وساعتين للتسلية، وهي عبارة عن تمارين جسدية. يلبسهم رجال ثيابَهم حتى سن الرابعة، ثم يكلفون بارتدائها بأنفسهم مهما علت منزلتهم. أما الخادمات اللواتي يبلغن من السن ما يعادل الخمسين عند نسائنا، تؤدين فقط وظائف عادية شاقة. لا يسمح للأطفال بالحديث مع الخدم، بل يذهبون في أعداد صغيرة أو كبيرة للعب، يرافقهم دومًا أحد الأساتذة أو نوابهم، كي يجنبوهم تلك الطباع المبكرة السيئة من طيش وشغب، التي يتعرض لها أطفالنا. يسمح لأهاليهم برؤيتهم مرتين في السنة، ولا تطول الزيارة أكثر من ساعة. عند اللقاء والوداع يؤذن لهم بتقبيل الطفل، لكن الأستاذ الذي يحضر هذه المناسبات دومًا، لا يسمح لهم بالهمس، أو استخدام أي من تعابير الملاطفة، أو إحضار دمى أو حلويات أو ماشابه. عند تقصير أي عائلة في دفع الأجر اللازم مقابل تعليم وإقامة أبنائها، يتولى موظفو الإمبراطور جباية ذلك المبلغ.

مدارس أطفال عامة الشعب من تجار وباعة وحرفيين، تتم إدارتها بطريقة مشابهة تتناسب مع وضعهم. إلا أن أبناء التجار يصبحون متدربين في المهنة عند بلوغهم سبع سنوات، بينما يبقى أبناء النبلاء في مدارسهم حتى سن الخامسة عشرة، التي تعادل الحادية والعشرين عندنا، لكن التشديد يخفف تدريجيًا في السنوات الثلاث الأخيرة.

في مدارس الإناث تتلقى فتيات النبلاء تعليمهنّ كالفتيان، وتلبسهن ثيابهن خادمات بحضور أستاذة أو نائبة، إلى أن يستطعن ارتداء ثيابهن بأنفسهن، وذلك في سن خمس سنوات. وإذا ثبت أن أيًا من المربيات حاولت تسلية الفتيات بقصص مخيفة أو سخيفة ([33])، أو بالحماقات المعهودة لدى خادماتنا، تجلد ثلاث مرات علنًا في المدينة، وتحبس لمدة سنة، ثم تنفى مدى الحياة إلى أكثر الأماكن القاحلة في البلاد. لذلك تخجل الفتيات هناك من أن توصفن بالجبن أو الحمق كالشبان تمامًا، وتنبذن كل مظاهر الزينة الشخصية مما يتخطى حدود الحشمة والنظافة. ولم ألاحظ أي فرق في تعليمهم ناتج عن اختلاف جنسهم، إلا أن تمارين الإناث لم تكن شديدة القسوة، وكن يتعلمن بعض القواعد فيما يتعلق بالحياة المنزلية، وألزمن بكمّ أقل من التعليم: فمبدؤهم هو أن الزوجة في أوساط النبلاء يجب أن تكون دومًا شريكة عاقلة وقانعة، لأنها لا تستطيع أن تظل شابة دومًا. عندما تبلغ الفتاة الثانية عشرة، وهي سن الزواج عندهم،

يأخذها والداها إلى المنزل بعد التعبير عن امتنانهم إلى الأساتذة، ويندر ألا تذرف الفتاة وصديقاتها الدموع.

في مدارس الإناث من عامة الشعب تتعلم الفتيات مختلف الأعمال المناسبة لجنسهن وطبقاتهن المختلفة، وتتخرج المهيآت للتدريب على حرفةٍ معينة في سن السابعة، بينما تبقى الأخريات حتى سن الحادية عشرة.

تلزم عائلات عامة الشعب التي لها أطفال في تلك المدارس، إلى جانب الرسم السنوي، وهو منخفض بقدر الإمكان، تسليم جزء من دخلهم كل شهر إلى مشرف المدرسة لإعالة الطفل. بذلك يلزم الآباء بالنفقات بموجب القانون، لأن الليليبوتيين يعتقدون أن لا شيء أكثر ظلمًا من أن ينجب الناس أطفالًا إلى العالم إرضاءً لشهواتهم، ثم يتركوا عبء إعالتهم على المجتمع. أما النبلاء فهم يتعهدون برصد مبلغ معين لكل طفل بما يتناسب مع وضعهم. وتتم إدارة هذه الموارد دومًا بحرص وعدل.

يظل أطفال الفلاحين والعمال في المنزل، حيث يقتصر عملهم على الحراثة وزراعة الأرض، لذلك فإن لتعليمهم أثرًا ضئيلًا على المجتمع. أما المسن والمريض منهم تتكفل به المستشفيات، فالتسول مهنة غير معروفة في تلك المملكة.

هنا قد يكون من المسلي للقارئ الفضولي، أن أحكي له القليل عن منزلي وأسلوب حياتي في هذه البلاد خلال تسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا من إقامتي فيها. بفضل مهارتي في العمل اليدوي، وبحكم الضرورة، صنعت لنفسي طاولة وكرسيًا مناسبَين، من أكبر الأشجار في الحديقة الملكية. كلفَت مئتا خياطة بصنع قمصان لي ومفارش لسريري وطاولتي من أمتن وأخشن قماش لديهم، وقد اضطروا مع ذلك لخياطة عدة طبقات منه، لأنه كان أرقّ بعدة درجات من الشاش. عرض ثوب القماش الشائع عندهم ثلاثة إنشات، وثلاثة أقدام منه تشكل لفة. أخذت الخياطات مقاسي وأنا مستلق على الأرض، حيث وقفت واحدة عند رقبتي والأخرى عند منتصف ساقي، وأمسكت كل منهما بأحد طرفي حبل متين مشدود، بينما تولت الثالثة قياس طول الحبل بمسطرة طولها إنش واحد، ثم قسن إبهامي الأيمن، ولم يطلبن أكثر من ذلك. فبالحساب الرياضي، يشكل ضعفُ محيط الإبهام محيطَ الرسغ، وهكذا العلاقة مع الرقبة ثم الخصر، وبمساعدة قميصي القديم الذي بسطته على الأرض أمامهم كنموذج، صنعوا ما يلائم مقاسي تمامًا. كذلك وظف ثلاثمئة خياط لصنع ثياب لي، لكنهم اتبعوا طريقة مختلفة لأخذ مقاساتي، حيث جثوت على ركبتي، ونصبوا سلمًا من الأرض إلى رقبتي، على ذلك السلم صعد أحدهم وأسقط شاقولًا من ياقتي حتى الأرض، مما أشار إلى طول معطفي، لكنني قست خصري وذراعيّ بنفسي. خاطوا الملابس في منزلي (فلم يكن أكبرهم حجمًا

ليقدر على حملها)، وعندما انتهوا بدت مثل اللحُف المرقعة التي تصنعها السيدات في إنكلترا، إلا أن ثيابي كانت كلها من اللون نفسه.

كان لديّ ثلاثمئة طباخ مكلفين بتحضير طعامي، يقيمون مع عائلاتهم في أكواخ صغيرة قرب منزلي، ويحضر لي كل منهم طبقين. كنت آخذ عشرين نادلًا بيدي وأضعهم على المائدة، بينما يخدم مئة آخرون على الأرض، بعضهم بأطباق اللحم، وبعضهم ببراميل نبيذ وخمورٍ أخرى معلقة على أكتافهم، فيرفعها النُدل في الأعلى حسب طلبي بطريقة عبقرية للغاية بواسطة حبال معينة، كما نسحب دلوًا من بئر في أوروبا. كان طبق من لحومهم يعادل لقمةً كبيرة، وبرميل من خمرهم رشفةً معتدلة. لحم الضأن لديهم ليس بجودة ما لدينا، لكن لحم البقر ممتاز. لقد حصلت مرة على قطعة خاصرة كبيرة لدرجة أنني اضطررت إلى أكلها في ثلاث لقم، لكن ذلك شيء نادر. دهش خدمي لرؤيتي آكلها بعظامها، كما نفعل في بلادنا بفخذ قبّرة. كنت غالبًا آكل الإوز وديك الحبش بلقمة واحدة، وأعترف أنها تتفوق على ما لدينا بكثير، ومن دجاجهم استطعت أن ألتقط عشرين أو ثلاثين بطرف سكيني.

في أحد الأيام، بعد أن سمع الإمبراطور عن أسلوب حياتي، طلب أن يحظى مع الإمبراطورة وأمراء وأميرات العائلة الملكية بسعادة تناول العشاء معي (على حد تعبيره) أتوا بناء على ذلك، ووضعتهم فوق كراسيهم الملكية على مائدتي، مقابلي تمامًا، وحراسهم من حولهم.

كذلك حضر فليمناب وزير الخزينة حاملًا عصاه البيضاء الرسميّة ([34]). لاحظت أنه ينظر إليّ بتعبير متجهم، لم أبدِ أدنى اهتمام به، بل أكلتُ أكثر من المعتاد، تكريمًا لبلادي وإثارةً لإعجاب الحاشية. لطالما كان ذلك الوزير عدوي السري، رغم أنه أظهر لي في العلن مودةً أكثر مما هو معتاد من طبيعته المتجهمة، وأظن أن زيارة الإمبراطور لي أعطته فرصة للإساءة إليّ عند جلالته، فقد حدثه عن تدهور وضع الخزينة، وكيف اضطر إلى اقتراض مبالغ من المال بفائدة مرتفعة، وأن سندات الخزينة لا تباع بخصم أقل من تسعة بالمئة؛ أنني كلفت جلالته أكثر من مليون ونصف سبرَغ (عملتهم الذهبية الأعلى قيمة، حجمها بحجم ترترة)، وبأخذ كل ذلك في الحسبان، سيكون من المستحسن أن يغتنم الإمبراطور أول فرصة للتخلص مني.

ينبغي عليّ هنا أن أدافع عن سمعة سيدة محترمة كانت ضحية بريئة للمعاناة بسببي. فقد استهوى وزير الخزينة أن يشعر بالغيرة على زوجته بسبب مكر بعض الألسن الشريرة، التي أخبرته أن حضرتها تكنّ لي عاطفة قوية، بعد أن سرت شائعة في القصر أنها أتت مرة في السر إلى منزلي. وأنا أصرح بحزم أن هذا افتراء شائن ليس له أي أساس، سوى أن حضرتها كانت تعاملني بأسلوب بريء من الحرية والصداقة. أقر بأنها كانت تأتي إلى منزلي، لكن في العلن

دائمًا، وليس مرةً دون ثلاثة بصحبتها في العربة، كنّ في الغالب أختها وابنتها الصغيرة وإحدى معارفها، وكان ذلك معتادًا من عدة سيدات أخريات من القصر. ما زلت أشهد خدمي إن رأوا مرة عربة على بابي دون أن يعرفوا راكبها، إذ كانت عادتي عندما ينبهني أحدهم، أن أذهب مباشرة إلى الباب، وبعد أن أرحب بالقادمين، أحمل العربة والحصانين بحذر شديد في يدي (عندما يكونون ستة أحصنة، يقوم السائق بفك أربعة منها)، ثم أضعهم على الطاولة، حيث ثبتتُ حافة متحركة حولها طولها خمسة إنشات وقاية من الحوادث. كثيرًا ما كانت تجتمع أربع عربات بجيادها في الوقت ذاته على طاولتي مليئة بالزوار، بينما أجلس في كرسيي مميلًا وجهي باتجاههم. وبينما أكون منشغلًا مع مجموعة منهم، يأخذ السائق الآخرين في جولة حول طاولتي. لقد قضيت عدة أمسيات ممتعة مستغرقًا في تلك الأحاديث. لكنني أتحدى وزير الخزانة، أو مخبرَيه (سأسميهما، وليفعلا ما بدا لهما) كلستريل ودرُنلو، أن يثبتوا قدوم أي شخص إليّ متخفيًا، عدا الوزير ريلدريسال، الذي جاء بأمر خاص من جلالة الإمبراطور كما أسلفت.

لم أكن لأسهب الحديث عن هذا التفصيل لو لم يكن متعلقًا بسمعة سيدة قديرة، فضلًا عن سمعتي. رغم أنني تشرفت بحمل لقب نارداك، والوزير نفسه ليس كذلك، فالكل يعرف أنه مجرد كلَمغْلَم، وهو لقب أدنى بدرجة واحدة، كما هو الماركيز بالنسبة إلى الدوق في إنكلترا؛ مع ذلك أقرُ بأنه يتفوق عليّ بفضل منصبه. هذه الأكاذيب التي علمت بها لاحقًا، بحادثة لا يصحّ ذكرها، جعلت وزير الخزانة يظهر لزوجته وجهًا متجهمًا لبعض الوقت، ولي ما هو أسوأ. ورغم أن الأمر اتضح له في النهاية وتصالح معها، فقدتُ كل اعتبار لديه، ووجدتُ منزلتي تتناقص بسرعة لدى الإمبراطور نفسه، الذي كان خاضعًا حقًا لتأثير ذلك الوزير المقرب منه.

الفصل السابع

يبلغ المؤلف بخطة لاتهامه بالخيانة العظمى. يهرب إلى بليفُسكو. استقباله هناك.

قبل أن أتحدث عن مغادرتي لتلك المملكة، ربما يجدر بي أن أخبر القارئ بالمكيدة السرية التي كانت تحاك ضدي طيلة الشهرين السابقين. لقد كنت طوال حياتي وحتى ذلك الوقت غريبًا عن القصور، التي لم أكن مؤهلًا لها بسبب وضاعة مستواي. وقد سمعت وقرأت ما يكفي عن طبائع الملوك والوزراء، لكنني لم أتوقع أبدًا أن أرى سوء صنائعهم في تلك البلاد البعيدة، التي تحكمها مبادئ ظننتها تختلف تمامًا عن تلك التي في أوروبا.

عندما كنت أجهز لزيارتي الرسمية إلى إمبراطور بليفُسكو، جاء إلى منزلي شخص مرموق من القصر بشكل سريّ في محفّة مغلقة (وقد خدمته كثيرًا في وقتٍ كان فيه موضع استياء كبير من جلالة الإمبراطور)، ودون أن يرسل اسمه، طلب مقابلتي. صُرف الحمالون، ووضعتُ المحفّة، مع السيد بداخلها، في جيب معطفي. وبعد أن أعطيت أمرًا لخادم أمين بأن يقول إنني متوعك وخلدت للنوم، أوصدتُ باب منزلي، ثم وضعت المحفّة على الطاولة، كما أفعل عادة، وجلست بقربه. بعد التحيات المعتادة، لاحظتُ علامات القلق على وجه حضرته، وعند سؤالي عن السبب، طلب مني أن أسمعه بصبر في مسألة تخص شرفي وحياتي. حديثه كان كالتالي، وقد دونت ملاحظات منه بعد أن غادر مباشرة.

«عليك أن تعلم»، قال لي، «أن عدة مجالس استشارية عقدت مؤخرًا بشكل سريّ للغاية بخصوصك. ولم يمض سوى يومين منذ توصل جلالته إلى قرار حاسم».

«أنت مدرك تمامًا أن غالبِت سكايرِش بولغولام (أو أمير البحرية) كان عدوك اللدود منذ وصولك تقريبًا. لا أعرف أسبابه الحقيقية، لكن كرهه لك ازداد بشدة منذ انتصارك على بليفُسكو، الذي أطفأ مجده كأمير البحرية. اتفق هذا اللورد مع وزير الخزينة فليمناب -المعروف بعداوته لك بسبب زوجته- وقائد الجيش ليمتوك، والحاجب لالكُن، والقاضي الأول بالموف، على تحضير دعوى اتهام ضدك، بالخيانة وجرائم كبيرة أخرى».

أصابتني هذه المقدمة بالهلع، خاصة أنني أعي مآثري وبراءتي، حتى أوشكتُ على المقاطعة، إلا أنه طالبني بالصمت وتابع، «بدافع من الامتنان للخدمات التي قدمتها لي، حصلتُ على معلومات عن الدعوى، ونسخة من بنود الاتهام، وفي ذلك أضحي برأسي لخدمتك».

لائحة التهم الموجهة إلى كينبس فليسترين

(الرجل الجبل)

البند الأول: ينص قانون وضع خلال حكم جلالة الإمبراطور كالِن ديسار بلون، على أن من يتبول ضمن مشارف القصر الملكي يخضع لأحكام وعقوبات الخيانة الكبرى. بالرغم من ذلك، أقدم كينبس فليسترين المذكور، في انتهاك سافر للقانون المذكور، وبذريعة إخماد الحريق الذي اشتعل في جناح زوجة صاحب الجلالة العزيزة، على إطفاء الحريق المذكور المشتعل في الجناح المذكور بشكل نابع عن خبث وخيانة وشيطنة، عن طريق إفراغ بوله، واقفًا وموجودًا داخل مشارف القصر الملكي المذكور، مخالفًا للقانون المذكور، إلخ. مخالفًا للواجب، إلخ.

البند الثاني: إن كينبس فليسترين المذكور، بعد أن جلب أسطول مملكة بليفُسكو إلى الميناء الملكي، وتلقى أمرًا من جلالة الإمبراطور بأن يأسر كل السفن الأخرى في مملكة بليفُسكو المذكورة، ويجعل من تلك المملكة ولاية يحكمها نائب من هنا، وأن يدمر ويقتل، ليس فقط كل المنفيين من أتباع الطرف الكبير، بل كذلك كل أبناء تلك المملكة الذين لا يتركون فورًا هرطقة أتباع الطرف الكبير؛ قدّم، مثل خائن غادر، اعتذارًا لجلالة الإمبراطور الجليل الميمون عن الخدمة المذكورة، بحجة عدم رغبته بقمع إرادة أو تدمير حريات وحياة ناسٍ أبرياء.

البند الثالث: في الوقت الذي وفد فيه سفراء من قصر بليفُسكو لطلب السلم في قصر جلالته، قام فليسترين المذكور، مثل خائن غادر، بمساعدة ومؤازرة وطمأنة وتسلية السفراء المذكورين، رغم علمه أنهم خدم لإمبراطورٍ كان حتى وقت قريب عدوًا صريحًا لجلالته، وفي حرب معلنة ضد جلالته المذكور.

البند الرابع: إن كينبس فليسترين المذكور، يجهز الآن للسفر إلى قصر ومملكة بليفُسكو، مخالفًا لواجب مواطن مخلص، وقد أخذ بذلك إذنًا شفهيًا فقط من جلالة الإمبراطور. وبحجة الإذن المذكور، ينوي القيام بتلك الرحلة المذكورة بكل خيانة وغدر، ومساعدة وتطمين وتحريض إمبراطور بليفُسكو، وهو عدو حديث العهد، وفي حرب قائمة مع جلالة الإمبراطور سالف الذكر.

«هنالك بعض البنود الأخرى، لكن هذه هي الأهم، وقد قرأت لك نبذةً منها.

لا بد من الاعتراف أن جلالته برهن على عظم تسامحه خلال النقاشات التي دارت حول دعوى الاتهام، حيث نوّه مرارًا إلى الخدمات التي قدمتَها له، وحاول التخفيف من جرائمك. بينما أصر وزير الخزينة وأمير البحرية على أن تقتل بأشد الطرق إيلامًا ومهانة، بإضرام النار في بيتك ليلًا، وإرسال الجنرال مع عشرين

ألف رجل مسلح بسهام مسمومة لإطلاقها على وجهك ويديك. أو إصدار أوامر سرية إلى خدمك برش سائل سام على قمصانك وملاءاتك، مما سيجعلك خلال وقت قصير تمزق جلدك بنفسك، وتموت بأشد العذاب. كان للجنرال الرأي نفسه، لذلك كانت الأغلبية ضدك لبعض الوقت. لكن جلالته حين قرر الإبقاء على حياتك، استطاع أخيرًا استمالة الحاجب إلى رأيه.

«على إثر هذه الحادثة طلب الإمبراطور من الوزير الأول للشؤون الخاصة ريلدريسال، الذي بدا دومًا صديقًا حقيقيًا لك، أن يدلي برأيه، فكان عند حسن ظنك به، إذ أقرّ بخطورة جرائمك، لكنه رأى مع ذلك متسعًا للرحمة، وهي أكثر صفة محمودة في الملوك، وصفة يشتهر بها جلالته عن جدارة. قال إن الصداقة بينكما معروفة للجميع، بحيث قد يظنه المجلس المحترم متحيزًا، لكنه مستعدٌ للتعبير عن رأيه بحريّة استجابة للأمر الذي تلقاه؛ ذلك أن جلالته إذا قبل أن يبقي على حياتك تقديرًا لخدماتك وعملًا بموجب طبيعته الرحيمة، وأمر بفقء عينيك فقط، فهو يرى بكل تواضع أن هذا الحل يحقق العدالة إلى حد ما، وسيُكبر العالم كله تسامحَ الإمبراطور، بالإضافة إلى كرم وإنصاف أولئك الذين يتشرفون بأن يكونوا مستشاريه. ثم أضاف أن فقدان عينيك لن يكون عائقًا أمام قوتك البدنية، التي قد تظل بها ذا نفع لجلالته؛ أن العمى زيادةٌ في الشجاعة، بإخفائه الأخطار عنا؛ أن خوفك على عينيك كان الصعوبة الأكبر في إحضار أسطول العدو، وسيكفيك أن ترى بعيون الوزراء، حيث إن أعظم الملوك لا يفعلون غير ذلك.

«قوبل هذا الاقتراح باستهجان كبير من قبل المجلس كله، ولم يستطع أمير البحرية بولغولام أن يتمالك أعصابه، بل نهض بغضب قائلًا إنه يتساءل كيف يتجرأ الوزير على الإدلاء برأي يقضي بالإبقاء على حياة خائن، وأضاف أن الخدمات التي قدمتَها، بحسب الاعتبارات السياسية، هي الوجه الآخر لجرائمك؛ أنك إذا استطعت إطفاء الحريق بالتبول على جناح جلالة الإمبراطورة (وقد ذكر ذلك بذعر)، فأنت قادر على إحداث طوفان في وقت آخر بالطريقة نفسها بهدف إغراق القصر بأكمله؛ أن القوة التي مكنتك من جلب أسطول العدو قد توظف عند أول استياءٍ في إعادته إلى هناك؛ أن لديه أسبابًا تجعله يظن أنك نصير لمعتقد الطرف الكبير في قرارة نفسك، وبما أن الخيانة تبدأ في القلب قبل أن تظهر في الأفعال العلنية، فقد اتهمك بالخيانة على ذلك الأساس، وبالتالي أصر على ضرورة قتلك.

«كان لوزير الخزينة الرأي نفسه، وبين مدى الانخفاض الذي طرأ على دخل جلالته بسبب تكلفة رعايتك، التي قد تصبح قريبًا غير محتملة. قال إن حل الوزير بفقء عينيك أبعد ما يكون عن دواءٍ لهذا الشر، بل قد يفاقمه، كما هو معروف من تجربة إصابة نوع من الدواجن بالعمى، حيث تتغذى بعدها بسرعة

آكبر وتصبح سمينةً خلال وقت قصير؛ وإن جلالته المعظم ومجلسه، الذين هم قضاتك، مقتنعون تمامًا بإدانتك، وهو سبب كافٍ للحكم عليك بالموت دون وجود الدلائل الرسمية المطلوبة بموجب القانون.

«لكن جلالة الإمبراطور الذي كان رافضًا تمامًا لعقوبة الإعدام، تكرم فقال، إن رأى المجلس فقدان عينيك عقابًا أسهل من اللازم، يمكن أن تنزل بك عقوبة أخرى لاحقًا. وطلب صديقك الوزير بكل تواضع أن يتم سماعه مجددًا، للرد على اعتراض وزير الخزينة بخصوص التكلفة الكبيرة التي يتكبدها جلالته لإعالتك، فقال، إن سيادة الوزير الذي يملك وحده حق التصرف بأموال الإمبراطور، يمكنه بسهولة أن يتقي هذا الشر بالتقليل التدريجي من طعامك، مما سيجعلك ضعيفًا وواهنًا، فتفقد شهيتك، ثم تضمحلّ قواك وتهلك خلال أشهر قليلة؛ عندها لن يكون نتن جثتك خطيرًا جدًا بعد أن تفقد أكثر من نصف حجمها. وبعد موتك مباشرة يمكن لخمسة أو ستة آلاف من رعايا جلالته، خلال يومين أو ثلاثة، أن يقطعوا لحمك عن عظمك، ثم يحملوه بعربات ويدفنوه في أماكن بعيدة لمنع حدوث وباء، تاركين هيكلك العظمي صرحًا يبهر الأجيال القادمة.

«هكذا، بفضل صداقة الوزير العظيمة سويت المسألة بأكملها. وصدر أمر صارم بإبقاء مشروع تجويعك سرًا. لكن الحكم القاضي بفقء عينيك أقر بشكل رسمي دون اعتراض أحد سوى بولغولام وأمير البحرية، الذي كان أداة بيد جلالة الإمبراطورة، فحرضته على الإصرار على قتلك بعد أن حملت تجاهك حقدًا أبديًا بسبب الطريقة الشائنة وغير القانونية التي اتخذتها لإخماد الحريق في جناحها.

«بعد ثلاثة أيام سوف يكلف صديقك الوزير بالقدوم إلى منزلك كي يقرأ عليك بنود الإدانة، ثم يعبر عن تسامح ورأفة جلالته والمجلس، الذي حكم عليك بفقء عينيك فقط، ولا يشك جلالته بأنك ستخضع للحكم بامتنان وتواضع. سيحضر عشرون جراحًا للإشراف على تنفيذ العملية بشكل صحيح، عن طريق إطلاق سهام ذات رؤوس حادة للغاية داخل مقلتي عينيك وأنت مستلقٍ على الأرض.

«أترك لحيطتك التدابير التي ستأخذها، ولكي أتجنب الشبهات، يجب أن أعود فورًا بشكل سري كما أتيت».

غادر حضرته، وبقيت وحدي تحت وطأة الحيرة والعديد من الشكوك في رأسي.

لقد سنّ الإمبراطور الحالي ووزراؤه تقليدًا (قيل لي أنه يختلف تمامًا عن السائد في أوقات سابقة)، ينفذ بعد أن يصدر القصر أي حكم قاسٍ بالإعدام تلبية لنقمة الإمبراطور أو حقد أحد أعوانه، حيث يلقي الإمبراطور خطابًا في مجلسه، يعبر فيه عن عظيم تسامحه ورأفته، كصفات يعرفها ويشهد بها العالم كله. ينشر هذا الخطاب في المملكة على الفور؛ ولم يكن يرعب الناسَ شيءٌ

كهذا المديح لرأفة جلالة الإمبراطور، فمن الملحوظ أن تضخيم هذا الثناء وتأكيده، يترافق مع عقوبة أشدّ لاإنسانية ومحكوم أشدّ براءة. أما أنا، الذي لم أكن يومًا مهيأ لأكون موظفًا في القصر سواء من حيث النسب أو التعليم، لا بد من الاعتراف أنني أسأت الحكم على الأمور، ولم أستطع رؤية التسامح والرأفة في ذلك الحكم، بل وجدته (وقد أكون مخطئًا) أقرب إلى القسوة منه إلى اللين. فكرت مرات بمواجهة خصومي، ورغم أنني لن أستطيع دحض الحقائق المزعومة في البنود العديدة، فقد تمنيت لو يقبلون بعض التخفيف. لكنني قرأت خلال حياتي عددًا من محاكمات الدولة، ورأيتها تنتهي دومًا كما أراد الحكام لها أن تنتهي، لذلك لم أجرؤ على الاعتماد على قرار بهذه الخطورة في ذلك الظرف الحساس، وضد أعداء بتلك القوة. في وقتٍ ما كنت مصممًا بشدة على المقاومة، لأنني ما دمت حرًا لا تستطيع كل قوة تلك المملكة إخضاعي، ويمكنني بسهولة أن أرمي العاصمة بالحجارة حتى تصير حطامًا. لكنني استبعدت تلك الخطة برعبٍ عندما تذكرت العهد الذي قطعته أمام الإمبراطور، والعطايا التي تلقيتها منه، ولقب نارداك الذي شرفني به. ولم أكن وقتها قد تعلمت أسلوب رجال الحاشية في العرفان بالجميل، كي أقنع نفسي بأن قسوة جلالته الحالية عليّ تجعلني في حلّ من أي التزامات ماضية تجاهه.

أخيرًا، وجدت حلًا قد أتعرض بسببه لبعض اللوم المستحَقّ؛ فأنا أقر بأن رغبتي بحفظ عيني، وبالتالي حريتي، تنبع من طيشي ونقص خبرتي. لأنني لو عرفت حينها طبائع الملوك والوزراء التي رأيتها في عدة قصور أخرى، وأسلوبَهم في معاملة مجرمين أقل خطرًا مني، لخضعتُ بكل لهفة وطواعية لذلك العقاب السهل. لكن مدفوعًا بطيش الشباب، وحائزًا إذن جلالة الإمبراطور بالذهاب لزيارة رسمية إلى إمبراطور بليفُسكو، انتهزتُ الفرصة قبل أن تمضي الأيام الثلاثة، فأرسلتُ رسالة إلى صديقي الوزير أخبره فيها عن قراري بالذهاب ذلك الصباح إلى بليفُسكو بموجب الإذن الذي أملكه، ودون انتظار إجابة، ذهبت إلى ذلك الجانب من الجزيرة حيث يرسو أسطولنا. ربطت حبلًا بمقدمة إحدى السفن الحربية الكبيرة، وبعد أن رفعت المرساة خلعت ثيابي ووضعتها في السفينة (مع ملاءتي التي كنت أحملها تحت إبطي)، وجررتها خلفي وأنا أتقدم خوضًا وسباحةً، حتى وصلت إلى ميناء مملكة بليفُسكو حيث كان الناس ينتظرونني منذ زمن. أرسلوا معي دليلين لإرشادي إلى العاصمة التي تحمل الاسم نفسه. حملتهما في يدي حتى أصبحنا على مسافة مئتي ياردة من البوابة، فطلبت منهما أن يعلما أحد الوزراء بوصولي، ويخبراه أنني أنتظر أوامر جلالة الإمبراطور. وصلني جواب خلال ساعة، أن جلالته قادم بصحبة العائلة الملكية وكبار موظفي القصر لاستقبالي. تقدمت مئة ياردة، وترجل الإمبراطور وحاشيته عن خيولهم، والإمبراطورة والسيدات من عرباتهن، ولم ألحظ عليهم أي خوف أو قلق. انحنيت إلى الأرض لأقبل يدي جلالة الإمبراطور

والإمبراطورة، وأخبرتُ جلالته أنني أتيت وفاءً بوعدي، وبموافقة سيدي الإمبراطور، لأتشرف برؤية حاكم قوي مثله وأقدم له أية خدمة باستطاعتي، بما ينسجم مع واجبي تجاه ملكي؛ دون أن أقول أي كلمة عن مصيبتي، لأنني لم أملكِ حتى ذلك الوقت معلومةً رسمية عنها، وعليّ أن أتصرف كما لو كنت جاهلًا كليًا بأي مخطط مشابه. لم أظن أن الإمبراطور قد يكشف السر وأنا خارج سلطته، وفي ذلك، سرعان ما تبين أنني كنت مخطئًا.

لن أضجر القارئ بتفاصيل استقبالي في ذلك القصر، ولا الصعوبات التي تكبدتها بسبب عدم امتلاكي بيت وسرير، واضطراري لافتراش الأرض ملفوفًا بملاءتي.

الفصل الثامن

يجد المؤلف، بصدفة موفقة، طريقة لمغادرة بليفُسكو. بعد صعوبات عديدة يعود سالمًا إلى موطنه.

بعد ثلاثة أيام من وصولي، بينما كنت أمشي نحو الساحل الشمالي الشرقي للجزيرة على سبيل الاستطلاع، أبصرتُ شيئًا طافيًا على بعد نصف فرسخ في البحر بدا مثل قارب مقلوب. خلعتُ حذائي وجوربي، وبعد أن خضت في الماء مسافة مئتي أو ثلاثمئة ياردة وجدت الشيءَ يقترب بتأثير المد، ثم رأيت بوضوح أنه قارب بالفعل، وقدّرت أن عاصفةً جرفته من إحدى السفن. سارعت بالعودة إلى المدينة، وطلبت من جلالة الإمبراطور أن يعيرني عشرين من أكبر السفن التي بقيت لديه بعد فقدان أسطوله، مع ثلاثة آلاف بحار بقيادة لواء البحرية. أبحر أسطول السفن حول الساحل، بينما سلكتُ الطريق الأقصر عائدًا إلى حيث اكتشفتُ القارب أول مرة، فوجدتُ المد قد دفعه أقرب من ذي قبل. عندما وصلت السفن، خلعت ثيابي ومشيت في الماء حتى صرت على بعد مئة ياردة من القارب، اضطررت بعدها إلى السباحة حتى وصلت إليه. كان البحارة مزودين بحبال جدلتها مسبقًا لتصبح بالمتانة المناسبة، رموا إليّ طرف حبل منها، ربطته بفتحة في مقدمة القارب وربطتُ طرفه الآخر ببارجة حربية. لكن جهدي لم يثمر إلا قليلًا، لأن عمق الماء لم يسمح لي بالوقوف، وبالتالي لم أتمكن من العمل. لذلك اضطررت إلى السباحة في الخلف ودفع القارب بإحدى يديّ كلما أمكنني، وتقدمت مسافة كبيرة بفضل المد حتى استطعت أن أرفع ذقني قليلًا لألمس الأرض بقدمي. ارتحت دقيقتين أو ثلاث، ثم أعطيت القارب دفعة أخرى، وتابعتُ على تلك الحال حتى أصبح مستوى المياه عند إبطيّ. عندئذ انتهى الجزء الأصعب، فأخرجتُ بقية الحبال التي كانت مركونة في إحدى السفن، وربطتها أولًا بالقارب ثم بتسعة من السفن التي كانت برفقتي. ثم أخذ البحارة يسحبون وأنا أدفع، وكانت الرياح في صالحنا، إلى أن صرنا على بعد أربعين ياردة عن الشاطئ. صعدت إلى القارب بانتظار تراجع المد، وبمساعدة ألفي رجلٍ مع الحبال والسفن، تمكنت من قلبه بصعوبة، ووجدت أنه لم يتضرر إلا قليلًا.

لن أضجر القارئ بالصعوبات التي واجهتني في إيصال قاربي، بواسطة مجدافين كلفني صنعهما عشرة أيام، إلى الميناء الملكي في بليفُسكو، حيث ظهر عند وصولي حشد هائل من الناس تملؤهم الدهشة لرؤية مركب بتلك الضخامة. أخبرت الإمبراطور أن حظي الجيد قد رمى هذا القارب في طريقي ليحملني إلى مكان ما أستطيع العودة منه إلى بلدي، ورجوت جلالته أن يأمر

بتأمين المواد اللازمة لتجهيزه، وأن يأذن لي بالرحيل، وقد وافق على ذلك بعد بعض الاعتراضات اللطيفة.

تساءلت كثيرًا خلال تلك المدة لعدم سماعي عن وصول أي رسالة تتعلق بي من إمبراطورنا إلى قصر بليفُسكو، ثم علمت لاحقًا بشكل سري أن جلالته، إذ لم يتخيل أنني أملك أي فكرة عن مخططاته، ظن أنني ذاهب إلى بليفُسكو تنفيذًا لوعدي بالزيارة، وبموجب الإذن الذي منحني إياه وكان معروفًا في القصر، وأنني سأعود خلال أيام بعد انتهاء تلك الزيارة. لكن طول غيابي أقلقه في النهاية، وبعد مشاورة وزير الخزينة وبقية تلك العصابة أرسِل شخصٌ رفيع المستوى مع نسخة من الاتهامات الموجهة إليّ. كلف هذا المبعوث بأن يصف لإمبراطور بليفُسكو تسامح سيده، حيث وافق على معاقبتي بمجرد فقء عيني؛ ويعلمه بأنني هارب من العدالة، وإن لم أعد خلال ساعتين سأجرد من لقب نارداك، وأسمّى خائنًا؛ وأضاف المبعوث أن سيده يرجو من أخيه في بليفُسكو، لأجل الحفاظ على السلام والوفاق بين المملكتين، أن يأمر بإرسالي إلى ليليبوت مقيد اليدين والقدمين، كي أعاقب بوصفي خائنًا.

أمضى إمبراطور بليفُسكو ثلاثة أيام في التشاور، أرسل بعدها ردًا مؤلفًا من العديد من المجاملات والأعذار. قال فيه إن بالنسبة إلى إرسالي مقيدًا فأخوه في ليليبوت يدرك أن ذلك مستحيل، ورغم أنني سلبته أسطوله إلا أنه مدين لي بالكثير بسبب الخدمات التي قدمتها له في إحلال السلام؛ أن جلالتيهما سينعمان براحة البال قريبًا على أي حال، لأنني وجدت على الشاطئ مركبًا عملاقًا يستطيع أن يحملني في البحر، وقد أعطى أمرًا بتجهيزه بمساعدتي وتوجيهاتي، ويأمل أن تكون المملكتان خلال أسابيع قليلة في حلٍّ من هذا العبء المضني.

بذلك الجواب عاد المبعوث إلى ليليبوت، وأخبرني إمبراطور بليفُسكو بكل ماحدث، وعرض عليّ كذلك (بسرية تامة) حمايته الكريمة إذا اخترت الاستمرار في خدمته. رغم أنني ظننته صادقًا، فقد قررت ألا أعيد منح ثقتي إلى أي ملك أو وزير ما دمتُ قادرًا على تجنب ذلك. هكذا، بكل العرفان اللازم لنواياه الطيبة، رجوته بتواضع أن يعذرني. أخبرته بأن الحظ (الجيد أو السيء) رمى مركبًا في طريقي، وقد فضلت أن أخاطر بنفسي في المحيط على أن أكون سببًا للخلاف بين حاكمين عظيمين. لم أجد الإمبراطور مستاءً على الإطلاق، واكتشفت لاحقًا بالصدفة أنه كان مسرورًا جدًا بقراري، وكذلك كان معظم وزرائه.

دفعتني هذه الاعتبارات إلى تعجيل سفري، وساهم رجال الحاشية بذلك بسرور بسبب لهفتهم لرحيلي. كلف خمسمئة رجل بصنع شراعين لقاربي بحسب توجيهاتي، بخياطة ثلاثة عشر طبقة من أخشن أقمشتهم معًا. انهمكتُ أنا بصنع

حبال بجدل عشرة أو عشرين أو ثلاثين من أمتن حبالهم معًا، وبعد بحث طويل على الشاطئ وجدت حجرًا رائعًا يصلح كمرساة. استخدمتُ دهن ثلاثمئة بقرة لتشحيم القارب واستخدامات أخرى. واجهتني صعوبات كبيرة في قطع بعض أكبر الأشجار من أجل المجاديف والصواري، فقدم لي نجارو السفن الملكية مساعدة كبيرة، وساعدوا في صقلها بعد أن قمت بالجزء الأصعب. بعد حوالي شهر، عندما كان كل شيء جاهزًا، أرسلت للسؤال عن أوامر الإمبراطور ولطلب توديعه. خرج الإمبراطور والعائلة الملكية من القصر، واستلقيت على وجهي لأقبل يده، فأعطاني إياها بكل وقار، وكذلك فعلت الإمبراطورة والأمراء والأميرات. أهداني جلالته خمسين كيسًا في كل منها مئتي سبرَغ مع صورة له بالطول الكامل، وضعتها مباشرة في أحد قفازيّ لأحميها من الأذى، وكانت المراسم لدى مغادرتي أكثر من أن أتعب القارئ بها الآن.

كنت قد زودت القارب بذبيحة مئة ثور وثلاثمئة خروف، مع كمية مناسبة من الخبز والشراب، وكمية من اللحم المطبوخ بقدر ما يستطيع تحضيره أربعمئة طباخ. بالإضافة إلى ست بقرات وثورين أحياء، والعدد نفسه من الشياه والخرفان، بنيّة أخذها إلى بلدي لأزيد نسلها. وأخذت حزمة كبيرة من التبن وكيس ذرة لإطعامها في القارب. كان سيسعدني أن أصطحب عشرة من السكان، لكن الإمبراطور لم يكن ليسمح بشيء كهذا تحت أي ظرف، وبعد تفتيش دقيق لجيوبي، جعلني أعاهده بشرفي على ألا أحمل معي أحدًا من رعيته ولو كان بموافقته ورغبته.

بعد أن جهزت كل شيء بقدر المستطاع، أبحرت في السادسة من صباح الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٧٠١، وبعد أن قطعت مسافة أربعة فراسخ نحو الشمال، والرياح جنوبية شرقية، لمحت في السادسة مساءً جزيرة صغيرة على بعد نصف فرسخ إلى الشمال الغربي. اتجهت إليها وأنزلت مرساتي في الجانب المدبر للرياح، وقد بدت لي غير مأهولة. تناولت وجبة خفيفة ثم ذهبت لأستريح. نمت جيدًا لمدة ظننتها ست ساعات، فقد طلع الصبح بعد ساعتين من استيقاظي. كانت ليلة صافية، فتناولت فطوري قبل أن تشرق الشمس ثم رفعت المرساة. كانت الريح مواتية، فأبحرت بالاتجاه نفسه الذي اتخذته في اليوم السابق، تدلني عليه بوصلتي. كانت نيتي أن أصل، إن أمكن، إلى إحدى تلك الجزر التي اعتقدتُ لسببٍ ما أنها تقع شمال شرق أرض فان ديمن. لم أكتشف أي شيء طوال ذلك اليوم، لكنني في اليوم التالي قرابة الثالثة عصرًا، وبعد أن قطعت وفقًا لحساباتي أربعًا وعشرين فرسخًا من بليفُسكو، أبصرتُ شراعًا يتجه نحو الجنوب الشرقي، وكنت متوجهًا نحو الشرق. ناديت السفينة دون أن أتلقى أي جواب، لكنني وجدت نفسي أقترب منها مع إبطاء الرياح. جدفتُ بكل ما أوتيت من قوة، وبعد نصف ساعة أبصرَتني، ثم رفعت رايتها، وأطلقت أحد مدافعها.

ليس من السهل أن أصف فرحي بعثوري فجأة على أمل برؤية بلدي مجددًا، وأحبائي الذين تركتهم هناك. أبطأت السفينة سيرَها، فوصلتُ إليها بين الخامسة والسادسة من مساء السادس والعشرين من سبتمبر، وقفز قلبي لرؤية أعلامها الإنكليزية. وضعت أبقاري وخرافي في جيوب معطفي، وصعدت إلى متن السفينة مع كل حمولتي من المؤن. كانت سفينةً تجارية إنكليزية عائدة من اليابان عبر البحار الشمالية والجنوبية ([35])، قبطانها السيد جون بيدل من ديتفورد، وهو رجل في غاية الدماثة وبحار رائع. وصلنا عندئذ إلى خط عرض ثلاثين درجة جنوبًا، وكان في السفينة حوالي خمسين رجلًا من بينهم صديق قديم لي اسمه بيتر ويليامز، أعطى القبطان صورة حسنة عني. عاملني ذلك السيد بلطف، وسألني عن المكان الذي كنت فيه وعن وجهتي الحالية، فأجبته بكلمات قليلة، لكنه ظن أنني أهذي، وأن الأخطار التي خضتها قد شوشت ذهني. عندئذٍ أخرجت أبقاري السوداء وخرافي من جيبي، مما أقنعه بصدقي بعد كثير من الدهشة. ثم أريته الذهبَ الهديةَ من إمبراطور بليفُسكو، بالإضافة إلى صورة جلالته بالطول الكامل وبعض الغرائب الأخرى من ذلك البلد. أعطيته كيسين في كل منهما مئتا سبرُغ، ووعدته بأن أهديه بقرة وخروفًا مع صغير كل منهما عند وصولنا إلى إنكلترا.

لن أتعب القارئ بسرد تفاصيل هذه الرحلة، التي كانت موفقة جدًا في معظمها. رسونا في ميناء داونز في الثالث عشر من أبريل عام ١٧٠٢. لم يحدث أثناء ذلك أي منغص سوى حين أخذت جرذان السفينة واحدًا من خرافي، وجدتُ عظامه في حفرة مجردةً تمامًا من اللحم. وصلت بقية الأبقار والخراف سالمة إلى الشاطئ، وتركتها ترعى في ساحة للعب البولينغ في غرينويتش، حيث جعلتها نعومة العشب ترعى بنهم، رغم أنني كنت أخشى أن يحدث العكس. ولم أكن لأحافظ عليهم في تلك الرحلة الطويلة لو لم يمنحني القبطان بعضًا من أفضل البسكويت لديه، فكان طعامهم الدائم بعد أن يطحن ويخلط مع الماء.

خلال الوقت القصير الذي قضيته في إنكلترا جمعت ربحًا كبيرًا من عرض قطيعي على عدد من أصحاب النفوذ وغيرهم، وقبل أن أبدأ رحلتي الثانية بعته بستمئة باوند. وقد وجدت النسل قد ازداد بشكل كبير منذ عودتي الأخيرة، خاصة الخراف، التي أتمنى أن تشكل دفعًا لصناعة المنسوجات بسبب نعومة أصوافها.

لم أبق سوى شهرين مع زوجتي وعائلتي، لأن شغفي برؤية بلدان أجنبية لم يسمح لي بالبقاء أكثر. تركت ألفًا وخمسمئة باوند مع زوجتي، وأسكنتها في منزل لائق في ريدريف. وأخذت معي ما تبقى من ثروتي، جزء منه نقدًا والباقي بضائع، على أمل تحقيق بعض الربح. لم أكن في خطر ترك عائلتي تعيش على

الصدقات، فقد ترك لي عمي الأكبر جون قطعة أرض قرب إيبنغ تعود علي بثلاثين باوند في السنة، وكنت قد استأجرت حانة بلاك-بُل في شارع فيتر-لين لأمد طويل، وتعود عليّ بمبلغ مماثل. كان ابني جوني، الذي سميته على اسم عمه، ولدًا واعدًا يرتاد المدرسة المتوسطة، وابنتي بيتي تمارس التطريز (وهي الآن متزوجة ولديها أطفال) ودعت زوجتي وابني وابنتي والدموع على وجناتنا، ثم صعدت إلى متن سفينة «أدفنشر». كانت سفينة تجارية سعتها ثلاثمئة طن، متجهة إلى سورات بقيادة القبطان جون نيكولاس من ليفربول. لكنني سأترك الحديث عن هذه الرحلة إلى القسم الثاني من كتاب رحلاتي.

نهاية القسم الأول

القسم الثاني

رحلةٌ إلى بروبدينغناغ

الفصل الأول

وصفُ عاصفةٍ عاتية. يرسَل القارب الطويل لجلب الماء، يذهب المؤلف فيه لاستكشاف البلد. يُترك على الشاطئ، فيمسك به أحد السكان ويأخذه إلى بيت أحد المزارعين. استقباله هناك، والحوادث العديدة التي حصلت. وصفُ السكان.

لقد حكمت عليّ طبيعتي وظروفي بحياة حافلةٍ لا تعرف الاستقرار، فغادرت بلدي مجددًا بعد عشرة أشهر من عودتي، في العشرين من يونيو عام ١٧٠٢، وركبت البحر من ميناء داونز على متن سفينة «أدفنشر»، التي كانت متجهة إلى سورات بقيادة القبطان جون نيكولاس من كورنوول. حظينا برياح مواتية للغاية حتى وصلنا إلى رأس الرجاء الصالح، حيث رسونا للحصول على ماء عذب، لكننا بعد اكتشاف تسريب في السفينة أفرغنا حمولتنا من البضائع وقضينا الشتاء هناك، ومع إصابة القبطان بالملاريا لم نستطع المغادرة حتى نهاية مارس. أبحرنا بعد ذلك، وحظينا برحلة جيدة إلى أن عبرنا مضائق مدغشقر. في التاسع عشر من أبريل، عندما أصبحنا في شمال تلك الجزيرة على خط عرض خمس درجات جنوب خط الاستواء، اشتد عصفُ الرياح -التي تعرف في تلك البحار بالهبوب بشدة بين الشمال والغرب من بداية ديسمبر حتى بداية مايو- وصارت تأتي من جهة الغرب أكثر من المعتاد. استمرت على تلك الحال عشرين يومًا متواصلًا، جرفتنا خلالها إلى شرق جزر مولوكا وثلاث درجات شمال خط الاستواء، بحسب قياس القبطان في الثاني من مايو. سكنت الرياح عندئذٍ، وحل هدوء كامل لم تكن فرحتي به بالقليلة. لكن القبطان الذي كان رجلًا محنكًا في الملاحة في تلك البحار، أمرنا أن نتأهب لقدوم عاصفة، وحدث ما قال في اليوم التالي، حيث بدأت تهب رياح من الجنوب تسمى الرياح الموسمية الجنوبية.

عندما رأينا الريح تنذر بأن تشتد، طوينا شراع صاري المقدمة، وتأهبنا لطيّ شراع الصاري الأمامي، لكن عاصفة واجهتنا، فتأكدنا من ثبات المدافع في مكانها بشكل جيد، ثم طوينا شراع الصاري الخلفي. انطلقت السفينة مسرعة، ففضلنا أن نتركها تسير مع الموج على أن نوقفها أو نبحر مع طي كل الأشرعة. ثنينا الشراع الأمامي جزئيًا، وشددنا الحبل الموصول به نحو المؤخرة، بينما كانت ذراع الدفة مع اتجاه الريح. ظلت السفينة صامدة، وأوثقنا ربط حبل الشراع الأمامي، لكن الشراع تمزق، فأنزلنا العارضة وأدخلناه إلى السفينة، وفككنا كل ما كان موصولًا به. كانت عاصفة عاتية، واستحالُ البحر غريبًا وخطرًا. هرعنا لمساعدة عامل الدفة بشد الحبل الموصول بها، تاركين الصاري الأعلى على حاله، لأن السفينة كانت تسير مع الموج بشكل جيد، وكنا نعرف

أنها ستمخر البحر بثبات مع وجود الصاري الأعلى، بعد أن رأينا أمامنا متسعًا للحركة في المياه المفتوحة.

عندما توقفت العاصفة نصبنا الشراع الأمامي والشراع الرئيسي وأوقفنا السفينة، ثم نصبنا الشراع الخلفي، والشراع العلوي للصاري الرئيسي والأمامي. أردنا الاتجاه إلى الشرق والشمال الشرقي، وكانت الرياح جنوبية غربية. شددنا حبال الأشرعة وثبتناها إلى ميمنة السفينة، وهي الجهة التي تهب منها الرياح، وأرخينا الحبال الواصلة بين عوارض الأشرعة من جانبها المواجه للرياح، وشددنا تلك التي على الجانب الآخر. ثم أحكمنا ربط الحبال الموصولة بأطراف الأشرعة من الجانب المواجه للرياح، وشددنا حبال الصاري الخلفي من الطرف نفسه، وأبقينا السفينة سائرة في الاتجاه الصحيح قدر الإمكان.

خلال هذه العاصفة التي تبعتها رياح شديدة غربية وجنوبية غربية، جرفنا وفقًا لحساباتي خمسمئة فرسخ إلى الشرق، حتى إن أكبر بحار على السفينة لم يعرف في أي بقعة من العالم كنا. دامت مؤونتنا طويلًا، وكانت سفينتنا صامدةً وطاقمنا بصحة جيدة، لكننا بتنا في أمسّ الحاجة إلى الماء، فضلنا الاستمرار في الاتجاه نفسه على الانعطاف نحو الشمال، الذي كان من الممكن أن يوصلنا إلى الأجزاء الشمالية الغربية من قارة تارتاري العظيمة والمحيط المتجمد ([36]).

لاحت يابسةٌ لصبي من فوق الصاري العلوي في السادس عشر من يونيو عام ١٧٠٣. في اليوم التالي رأينا بوضوح جزيرة كبيرة أو قارة (لم نعرف عندئذٍ أيهما كانت)، يوجد في الطرف الجنوبي منها رأسٌ صغير من اليابسة بارز إلى البحر، وخليج صغير أشد ضحالة من أن يحمل سفينة سعتها أكثر من مئة طن. أنزلنا المرساة على بعد فرسخ من الخليج، وأرسل القبطان اثني عشر من رجاله مسلحين في قارب طويل، مع براميل للمياه في حال عثروا على شيء منه. فاستأذنته في الذهاب معهم كي أرى البلد وأكتشف ما يمكن اكتشافه.

عندما وصلنا إلى اليابسة لم نر نهرًا أو جدولًا، أو إشارة لوجود سكان. تجول رجالنا على الشاطئ بحثًا عن ماء عذب قرب البحر، ومشيت وحدي مسافة ميلٍ على الجانب الآخر، حيث وجدت البلد قاحلًا وصخريًا تمامًا. بدأت أشعر بالتعب، ولم أجد شيئًا يرضي فضولي، فتمشيت عائدًا نحو الخليج. ما إن أصبح البحر على مرأى مني حتى رأيت رجالنا في القارب يجدفون هاربين نحو السفينة. كنت سأنادي عليهم -ولو أن ذلك لم يكن لينفع- عندما أبصرت كائنًا عملاقًا يطاردهم في البحر، ويمشي بخطوات هائلة. خاض في الماء حتى ركبتيه، لكن رجالنا سبقوه مسافة نصف فرسخ، وكان البحر هناك مليئًا بصخور حادة فعجز عن إدراك القارب. علمت بكل ذلك لاحقًا، إذ لم أجرؤ وقتها على الانتظار لرؤية نهاية تلك المطاردة، بل ركضت بأقصى سرعة في الاتجاه الذي

سلكته في البداية، ثم تسلقت تلة منحدرة، بدا لي البلد من فوقها مزروعًا بالكامل، لكن ما أدهشني هو أن طول العشب في تلك الأراضي التي بدت مخصصة للكلأ كان أكثر من عشرين قدمًا.

وجدتُ طريقًا رئيسيًا، أو هكذا ظننته، إلا أنه كان مجرد ممرٍ عبر حقل شعير بالنسبة إلى السكان. مشيت فيه بعض الوقت دون أن أستطعٍ رؤية الكثير على الجانبين، فقد اقترب وقت الحصاد وبلغ طول السنابل أربعين قدمًا على الأقل. ظللت أمشي ساعةً حتى نهاية ذلك الحقل المسوّر بسياج نباتي ارتفاعه مئة وعشرون قدمًا على الأقل، وكانت الأشجار عالية لدرجة أنني عجزت عن تقدير ارتفاعها. وجدتُ في طرف الحقل مرقىً للعبور إلى الحقل المجاور، مكونًا من أربع درجات وحجرٍ يجب العبور من فوقه عند الوصول إلى الدرجة العليا. كان من المستحيل عليّ تسلقه، لأن ارتفاع كل درجة ستة أقدام، والحجرِ العلوي عشرون. بينما كنت أبحث عن فتحة في السياج أبصرتُ أحد السكان يعبر الحقل المجاور باتجاه المرقى، وكان حجمه مماثلًا لذلك الذي رأيته يطارد قاربنا في البحر. بدا بطول برج كنيسة ([37])، وكان يقطع بخطوته حوالي عشرة ياردات، بحسب تخميني. اعتراني رعب وذهول شديدان، وسارعت بالاختباء بين السنابل. من هناك رأيته واقفًا على قمة الدرج ينظر إلى الحقل المجاور من خلفه، وسمعته ينادي بصوت أعلى بعدة درجات من صوت بوق، لكنه تردد عاليًا في الهواء حتى أنني حسبته رعدًا في البداية. أتى على إثر ندائه سبعة عمالقة مثله حاملين فؤوس حصاد في أيديهم، بدا كل منها بحجم ستة مناجل. لم يكن أولئك الأشخاص مهندمين بقدر الأول، وبدوا مثل خدم أو عمال لديه، لأنهم بعد أن تلفظ ببضع كلمات ذهبوا لحصاد الشعير في الحقل حيث كنت. حاولت الابتعاد عنهم قدر الإمكان، لكنني كنت مجبرًا على التحرك بصعوبة شديدة، لأن المسافة بين سوق بعض السنابل لم تزد على قدم واحد، وبالكاد استطعت حشر نفسي بينها. على أي حال، تمكنت من التقدم بصعوبة حتى وصلت إلى جزء من الحقل كانت السنابل فيه ممددة بسبب المطر والرياح، وهنا كان من المستحيل أن أتقدم خطوة أخرى، لأن السوق كانت متشابكة لدرجة أنني لم أستطع أن أنسلّ من خلالها، وأشواك السنابل الواقعة كانت شديدة القساوة والحدة حتى أنها اخترقت ثيابي إلى جلدي. في الوقت نفسه سمعتُ صوت الحصادين على بعد أقل من مئة ياردة خلفي. كان الإجهاد قد أوهن عزمي، واستبد بي اليأسُ والأسى، فاستلقيت بين حرفَي أخدود، وتمنيت من أعماقي أن يكون هذا آخر أيامي. رحتُ أتحسر على أرملتي البائسة وأولادي اليتامى، وأندب طيشي وعنادي في سعيي وراء رحلة ثانية مخالفًا نصيحة كل أصدقائي وأقاربي. في خضم ذلك القلق المريع لم أستطع إلا أن أفكر بليليبوت، التي رآني سكانها أكبر معجزة ظهرت في العالم؛ حيث استطعت سحب أسطولٍ ملكي بيدي، وأداء تلك الأفعال الأخرى التي ستسجل

إلى الأبد في تاريخ تلك المملكة، وسيصعب على الأجيال القادمة تصديقها رغم شهادة الملايين عليها. فكرت كم سيكون مخزيًا لي أن أبدو في هذه الأمة تافهًا كما قد يبدو واحدٌ من أهل ليليبوت بيننا. لكنني وجدت ذلك أبسط مصائبي، فإذا كانت وحشية وقسوة البشر تزداد بازدياد حجمهم ([38]) ؛ ماذا يمكنني أن أتوقع إلا أن أكون لقمةً في فم أول من يكتشفني من هؤلاء الهمجيين العمالقة؟ لا شك في أن الفلاسفة على حق حين يخبروننا أن أي شيء لا يكون كبيرًا أو صغيرًا إلا بالمقارنة، فقد كان من الممكن أن يجعل القدر الليليبوتيين يعثرون على شعب يكون ناسه مصغرين بالنسبة إليهم كما هم بالنسبة إلي. ومن يدري لعل هذا العرق العملاق أيضًا يتفوق عليه بشكلٍ مماثل عرقٌ آخر في مكان بعيد من العالم، لم نكتشفه حتى الآن؟

رغم خوفي وذهولي لم أقاوم الاستغراق في تلك الأفكار، وإذ بأحد الحصادين يقترب ليصبح على بعد عشرة ياردات من الأخدود حيث كنت مستلقيًا، مما جعلني أخشى مع خطوته التالية أن يسحقني حتى الموت بقدمه، أو يقسمني نصفين بمنجله. لذلك حين أوشك على الحركة مجددًا صرخت بكل ما آتاني الخوف من قوة، مما جعل المخلوق العملاق يتمهل، ويستطلع المكان تحته بعض الوقت، حتى لمحني أخيرًا وأنا مستلقٍ على الأرض. فكر قليلًا بحذرِ شخصٍ يحاول الإمساك بحيوان صغير خطرٍ بطريقة لا تسمح له بخمشه أو عضه، كما كنت أفعل أحيانًا مع ابن عرسٍ في إنكلترا. أخيرًا، تجرأ على الإمساك بي من ظهري بين إبهامه وسبابته، وحملني على بعد ثلاثة ياردات من عينيه كي يتمكن من رؤية شكلي بوضوح. عرفت مقصده، وأسعفني الحظ بسرعة بديهة جعلتني لا أبدي أي مقاومة وأنا محمول في الهواء على ارتفاع ستين قدمًا عن الأرض، رغم أنه ضغط على جانبي بشدة خوفًا من أن أفلت من بين أصابعه. لم أجرؤ سوى على رفعِ ناظريّ نحو الشمس، وجمعِ كفيّ في وضعية توسل، وقولِ بضع كلمات بنبرة حزينة متواضعة، متناسبة مع الوضع الذي كنت فيه. فقد خشيت أن يرميني أرضًا في أي لحظة، كما نفعل عادة بحيوان صغير كريه نريد القضاء عليه. لكنه لحسن الحظ بدا معجبًا بصوتي وحركاتي، وبدأ ينظر إلي كأنني تحفة نادرة، مدهوشًا لسماعي أنطق كلماتٍ مميزة، ولو أنه لم يفهمها. في تلك الأثناء لم أستطع إمساك نفسي عن النحيب وذرف الدموع، وأدرت رأسي إلى جانبيّ لأفهمه بقدر استطاعتي كم كنت أتألم من شدة ضغط إبهامه وسبابته. بدا كأنه فهم قصدي، فقد رفع غطاء جيبه ووضعني داخله بلطف، ثم ركض بي مباشرة إلى سيده الذي كان مزارعًا وجيهًا، وهو الشخص نفسه الذي رأيته أولًا في الحقل.

بعد أن سمع المزارع حديث خادمه عني (كما افترضت من كلامهم)، أخذ قطعة قشٍ صغيرة بحجم عكاز ورفع بها طيات معطفي، الذي ظنه على الأغلب كساءً منحتني إياه الطبيعة، ثم نفخ شعري إلى الجانب ليلقي نظرة أفضل على

وجهي. نادى عماله من حوله، وسألهم (كما علمت لاحقًا) إن رأوا في الحقل كائنًا يشبهني من قبل. وضعني بعدها بلطف على الأرض على يدي وقدمي، فنهضت على الفور ومشيت ببطء جيئة وذهابًا لأريهم أنني لا أنوي الهرب، بينما جلسوا في دائرة حولي كي يروا حركاتي بشكل أفضل. خلعتُ قبعتي وانحنيت أمام المزارع، ثم جثوت على ركبتي ورفعت كفيّ وعينيّ، وقلت بضع كلمات بأعلى صوت، ثم أخرجت كيس ذهب من جيبي وقدمته إليه بتواضع. تلقاه في كف يده، وقربه من عينه ليرى ما هو، ثم قلبه عدة مرات بطرف دبوس أخرجه من كمه، لكنه لم يعرف ما يكون. عندها أشرت إليه أن يضع كفه على الأرض، فأخذت الكيس وفتحته، وسكبت كل الذهب في راحة يده. كان فيه ست عملات إسبانية من فئة أربعة بستول، بالإضافة إلى عشرين أو ثلاثين عملة أصغر. رأيته يرطب طرف خنصره بلسانه ويلتقط إحدى أكبر القطع، ثم أخرى، لكنه بدا جاهلًا تمامًا بما قد تكون. أشار إليّ أن أعيدها إلى الكيس، وأعيد الكيس إلى جيبي، ورأيت من الأفضل أن أفعل ذلك بعد أن حاولت تقديمها إليه مرارًا.

اقتنع المزارع عندئذ بأنني كائن عاقل، وأخذ يتحدث إليّ، لكن صوته اخترق أذنيّ كصوت ناعورة، مع ذلك كانت كلماته واضحة بما يكفي. أجبته بأعلى صوتٍ، بلغاتٍ عديدة، ووضع أذنه مرارًا على مسافة ياردتين مني، لكن كل ذلك لم يجدِ، فقد كان كلام كل منا غير مفهوم على الإطلاق بالنسبة إلى الآخر. عندها صرف خدمه إلى أعمالهم، وأخرج منديله من جيبه وطواه نصفين، ثم مده على كفه بعد أن وضعها مبسوطة على الأرض وباطنها نحو الأعلى، وأشار إليّ أن أصعد إليها. كان بوسعي فعل ذلك بسهولة، إذ لم يكن سمكها أكثر من قدم، ورأيت أن عليّ أن أطيعه، فتمددت على المنديل خوفًا من السقوط، وغطاني بما تبقى منه حتى رأسي زيادةً في الحماية، ثم حملني إلى منزله. هناك نادى زوجته ليريها إياني، فصرخت هاربةً كما تفعل نساء إنكلترا عند رؤية ضفدع أو عنكبوت. لكنها عندما شاهدت سلوكي وكيف كنت أفهم إشارات زوجها بشكل جيد، هدأ روعها وازدادت لطفًا تجاهي بشكل كبير.

كانت الساعة حوالي الثانية عشرة ظهرًا، وأحضر الخادم الغداء، الذي كان عبارة عن طبقٍ واحد من اللحم (يناسب الحال المتواضع للمزارعين) في صحن قطره أربعة وعشرون قدمًا. جلس المزارع وزوجته وثلاثة أطفال وجدة مسنة، ووضعني على مقربة منه فوق المائدة التي كان ارتفاعها عن الأرض ثلاثين قدمًا، فانتابني خوف شديد، وبقيت أبعد ما يمكن عن الحافة خوفًا من السقوط. قطعت السيدة قطعة لحم وفتفتت بعض الخبز على طبق ثم وضعته أمامي. انحنيت لها، ثم أمسكت شوكتي وسكيني وانهمكت بالأكل، مما أسعدهم كثيرًا. أرسلت بعد ذلك خادمتها لإحضار كأس شرابٍ صغير سعته حوالي غالونين، وملأته بالنبيذ. حملته بصعوبة بكلتي يدي، وشربتُ بصحتها

بالطريقة الأشدّ تهذيبًا، متلفظًا بكلمات إنكليزية بأعلى صوت، فضحك الجالسون من قلبهم، حتى كاد ضجيجهم يصمّ أذنيّ. وجدت طعم ذلك النبيذ شبيهًا بعصير التفاح، ولم يكن سيئًا. ثم أشار السيد إليّ بأن أقترب من صحنه، لكنني كنت في غمرة من الارتباك طوال الوقت، كما يمكن للقارئ المتسامح أن يتخيل ويعذرني، مما جعلني أتعثر بكسرة خبز وأنا ماشٍ على المائدة، وأسقط منبطحًا على وجهي. نهضتُ على الفور، وعندما رأيت القلق باديًا على أفراد العائلة تناولتُ قبعتي -التي كنت أحملها تحت ذراعي مراعاة للذوق السليم- ولوحت بها فوق رأسي، ثم هتفت ثلاث مرات لأريهم أني لم أصب بأذى. تابعت المشي نحو سيدي (هكذا سأدعوه منذ الآن)، فقام ابنه الأصغر الذي يجلس بجانبه، وكان صبيًا مشاغبًا عمره عشر سنوات، بالإمساك بي من رجليّ، ثم رفعني عاليًا في الهواء حتى ارتعدت فرائصي. لكن والده انتشلني من يده، وصفعه على خده الأيسر صفعةً كفيلةً بصرع كتيبة فرسانٍ أوروبية أرضًا، وأمره بالابتعاد عن المائدة. خفت أن يحمل الصبي ضغينةً تجاهي، وتذكرت ميل الأطفال لدينا لأذية العصافير والأرانب والقطيطات والجراء، فجثوت على ركبتي مشيرًا نحو الصبي، وأفهمت سيدي بقدر ما استطعت أنني أريد منه أن يسامح ابنه. استجاب لي، وعاد الصبي إلى كرسيه، عندئذ ذهبت إليه وقبلت يده، فأمسكها سيدي وجعله يربت عليّ بلطف.

أثناء الغداء قفزت القطة المفضلة عند سيدتي إلى حضنها، فسمعت من خلفي صوتًا كأنه صوت عشر آلات حياكة تعمل معًا، وعندما أدرت رأسي وجدت الصوت صادرًا عن خرخرة ذلك الحيوان الذي بدا أكبر بثلاث مرات من ثور، كما قدرت من شكل رأسها وأحد كفوفها بينما كانت سيدتها تطعمها وتمسدها. أربكتني شراسة تكوين هذا المخلوق، رغم أنني كنت واقفًا على الطرف الآخر من الطاولة على بعد أكثر من خمسين قدمًا، ورغم أن السيدة أمسكتها بإحكام خوفًا من أن تقفز وتمسكني بمخالبها. لكن تبين أنه لم يكن هنالك أي خطر، لأن القطة لم تعرني أي انتباه عندما وضعني سيدي على بعد ثلاثة ياردات منها، وقد قيل لي دومًا -ووجدتُ ذلك صحيحًا بالتجربة خلال رحلاتي- إن الهرب أو إظهار الخوف أمام حيوان شرس طريقةٌ مضمونة لجعله يطاردك أو يهاجمك، لذلك قررت ألا أظهر أي علامة على القلق في ذلك الوضع الخطر. مشيتُ بإقدام خمس أو ست مرات أمام رأس القطة على بعد نصف ياردة منها، مما جعلها تتراجع كما لو كانت خائفة مني. كان خوفي من الكلاب أقل حين دخل ثلاثة أو أربعة منها إلى الغرفة، كما هو معتاد في بيوت المزارعين، أحدها كان كلب حراسة يعادل بضخامته حجم أربعة فيلة، مع كلب رمادي أطول منه بقليل، لكنه أقل ضخامةً.

عندما شارف الغداء على الانتهاء دخلت المربية حاملةً بين ذراعيها طفلًا عمره سنة. لاحظني على الفور وبدأ يزعق زعيقًا يمكن سماعه من جسر لندن حتى

تشيلسي، معبرًا بالطريقة المعتادة للأطفال عن رغبته في أخذي كلعبة. أخذتني الأم بمحض التدليل ووضعتني بقرب الطفل، الذي أمسكني بسرعة من وسطي ووضع رأسي في فمه. فصرختُ بصوتٍ عالٍ، حتى أن الشقي خاف وتركني أسقط. كنت سأكسر عنقي لا محالة لو لم تحمل الأم مئزرها تحتي، واستخدمت المربية خشخيشة لتهدئة الطفل، هي عبارة عن وعاء مجوف مملوء بحجارة كبيرة، معلقة بحبل إلى خصره. لكن ذلك لم يجدِ، بحيث اضطرتْ للجوء إلى الحل الأخير وهو إرضاعه. أعترف أن لا شيء أصابني بالتقزز يومًا كمنظر ثديها المهول، الذي لا أدري بم أقارنه كي أعطي القارئ الفضولي فكرة عن حجمه وشكله ولونه. كان بارزًا مسافة ستة أقدام، ولم يكن محيطه أقل من ستة عشر قدمًا. حلمته كانت بنصف حجم رأسي، ولونها ولون الضرع كان متباينًا بشدة بسبب البقع والحبيبات والنمش، بحيث لا يمكن أن يوجد شيء أكثر قرفًا. لقد رأيتها عن قرب وأنا واقف على المائدة بعد أن جلستْ كي تتمكن من إرضاع الطفل، مما جعلني أفكر بالبشرة الجميلة لسيداتنا الإنكليزيات اللاتي تظهرن لنا في غاية الجمال لمجرد أنهن بمثل حجمنا، ولا يمكن لعيوبهن أن ترى إلا بالعدسة المكبرة، التي أثبتت التجربة أن أنعم بشرة وأشدها بياضًا تبدو تحتها خشنةً وجافة ومتباينة اللون.

أذكر حين كنت في ليليبوت، أن بشرة سكانها بدت لي الأجمل في العالم، وعندما تحدثت عن ذلك مع شخص حكيم كان صديقًا مقربًا لي، قال إن وجهي يبدو أجمل وأنعم حين ينظر إليّ من الأرض، مقارنة بمنظره حين أحمله بيدي وأقربه مني، الذي اعترف أنه كان صادمًا في البداية. قال إنه يستطيع رؤية حفر كبيرة في وجهي، وإن شعر لحيتي أثخن بعشر مرات من شعر خنزير بريّ، وجلدي مكون من عدة ألوان كلها بشعة. رغم أنني لا بد أن أطلب الإذن لأقول عن نفسي، إنني أبيض بقدر أي أحد من بني جنسي وبلدي، ولم تلوّحني الشمس إلا قليلًا خلال رحلاتي. من جانب آخر، عند الحديث عن سيدات قصر الملك قال إن لدى إحداهن نمشًا، والأخرى فمًا عريضًا جدًا، والثالثة أنفًا ضخمًا؛ وهي أشياء لم أكن قادرًا على تمييزها. أعترف أن هذه الفكرة بديهية، لكنني على أي حال لم أمتنع عن ذكرها، لئلا يظن القارئ أن أولئك العمالقة قبيحون فعلًا، ولا بد أن أنصفهم بالقول إنهم عرق جميل من البشر، بخاصة سيدي الذي بدت ملامحه متناسقة تمامًا -رغم أنه مجرد مزارع- عندما نظرت إليه من ارتفاع ستين قدمًا.

عندما انتهى الغداء خرج سيدي إلى عماله، وخمنت من صوته وإيماءاته أنه أوصى زوجته بالعناية الجيدة بي. كنت منهكًا وراغبًا بالنوم، وقد لاحظت سيدتي ذلك، فوضعتني في سريرها وغطتني بمنديل أبيض نظيف، كان أكبر وأخشن من الشراع الرئيسي في سفينة حربية. نمت قرابة ساعتين، وحلمت أنني في منزلي مع زوجتي وأولادي، مما ضاعف حزني عندما استيقظت ووجدت نفسي

وحيدًا في غرفة واسعة، عرضها مئتان إلى ثلاثمئة ياردة وارتفاعها أكثر من مئتين، مستلقيًا في سرير عرضه عشرون ياردة وارتفاعه ثمانية ياردات. كانت سيدتي قد ذهبت لتدبير شؤون المنزل وأقفلت عليّ الباب، وكنت بحاجة إلى النزول عن السرير لقضاء حاجتي. لم أحاول أن أنادي، ولو فعلتُ لكان ذلك بلا جدوى بصوتٍ مثل صوتي، مع المسافة الكبيرة بين الغرفة حيث كنتُ والمطبخ حيث كانت العائلة. في تلك الأثناء تسلق الستارة جُرذان، وركضا جيئة وذهابًا على السرير وهما يتشممانه. اقترب أحدهما من وجهي فنهضتُ مذعورًا، وسللت سيفي لأدافع عن نفسي. تجرأ الحيوانان على مهاجمتي من الطرفين، ووضع أحدهما كفه على ياقتي، لكنني تمكنت من تمزيق بطنه قبل أن يصيبني بأي أذى، فوقع عند قدميّ. عندما رأى الآخر مصير رفيقه لاذ بالفرار، لكنه لم يسلَم من جرح غائر في ظهره أصبته به وهو يهرب، مما جعل الدم يقطر منه. بعد ذلك النصر مشيت بهدوء جيئة وذهابًا على السرير لألتقط أنفاسي وأهدئ من روعي. كانت تلك الكائنات بحجم كلب حراسة كبير، لكنها تفوقه سرعة وشراسة، ولو أنني خلعت حزامي قبل أن أخلد للنوم لمزقتني إربًا وافترستني. قست ذيل الجرذ الميت فوجدت طوله ياردتين إلا إنشًا، لكنني لم أطِق جر جثته عن السرير وهي مستمرة بالنزيف، ثم لاحظت أن فيه قليلًا من حياة فأجهزتُ عليه تمامًا بضربة قوية على عنقه. بعد وقت قصير دخلت سيدتي إلى الغرفة، وعندما رأتني مضرجًا بالدم ركضت وأخذتني في يدها، فأشرتُ إلى الجرذ الميت مبتسمًا وأشرت لها بأنني لم أصب بأذى. ابتهجتْ لذلك ونادت الخادمة كي تتخلص من الجرذ الميت بملقط وترميه من النافذة. وضعتني بعد ذلك على الطاولة، حيث أريتها سيفي الملطخ بالدم ثم مسحته بطية معطفي وأعدته إلى غمده. كنت بحاجة لفعل شيء آخر لا يمكن لأحد أن يفعله نيابة عني، لذلك حاولت أن أفهم سيدتي أنني أريدها أن تضعني على الأرض، وبعد أن فعلتْ ذلك لم يسمح لي خجلي أن أعبر عما أريد أكثر من أن أشير إلى الباب وأنحني عدة مرات. أخيرًا وبصعوبة كبيرة فهمت المرأة الطيبة ما كنت أقصد، فحملتني بيدها ومشت إلى الحديقة ثم وضعتني أرضًا. ابتعدتُ مسافة مئتي ياردة نحو أحد أطرافها، وبعد أن أشرت إليها بألا تنظر إليّ أو تتبعني، اختبأتُ بين ورقتي حماض، وقضيت حاجتي.

أرجو أن يعذرني القارئ لو أطلت وصف هذه التفاصيل ومثيلاتها، التي مهما بدت سخيفة لذوي العقول المبتذلة، إلا أنها تساعد أي فيلسوف على توسيع أفكاره ومخيلته وتوظيفها في منفعة الحياة العامة والخاصة على حد سواء، وذلك كان هدفي الوحيد من تدوين هذه الحكاية وغيرها من رحلاتي إلى العالم. وكنت فيها شديد التوخي للحقيقة، دون استفاضة في المعلومات أو تنميق في الأسلوب. لكن المشهد الكامل لهذه الرحلة ترك انطباعًا قويًا في عقلي وثبت في ذاكرتي، بحيث لم أحذف حدثًا واحدًا حين دونتها. على أي حال، بعد مراجعة

دقيقة، حذفت بضع فقرات أَقل أَهمية كانت موجودة في النسخة الأولى، خشية أن أنعت بالمضجر والتافه، وهي أشياء يُتّهم بها الرحالة كثيرًا، غيرَ مظلومين على الأغلب.

الفصل الثاني

وصف ابنة المزارع. يؤخذ المؤلف إلى سوق المدينة
ثم إلى العاصمة. تفاصيل رحلته.

كان لسيدتي ابنة عمرها تسعة أعوام، وهي طفلة موهوبة بالنسبة إلى سنها، بارعةٌ في الخياطة، وتجيد إكساء دميتها. قررت مع أمها تجهيز مهد الدمية من أجلي في الليل، ووضع المهد في دُرج صغير من خزانة، ثم وضع الدرج فوق رف خوفًا من الجرذان. صار ذلك سريري طوال الوقت الذي قضيته مع تلك العائلة، لكنه أصبح أكثر راحة بعد أن بدأت أتعلم لغتهم وأعبر عن احتياجاتي. كانت تلك الفتاة الصغيرة ماهرة اليدين، لأنها بعد أن خلعتُ ثيابي أمامها مرة أو اثنتين أصبحت قادرة على إلباسي ثيابي ونزعها رغم أنني لا أكلفها بذلك أبدًا حين تتركني أفعله بنفسي. صنعت لي سبعة قمصان وثيابًا أخرى من أنعم قماش وجدته، كان أخشن من الخيش، وكانت تغسلها لي بيديها. علمتني لغتهم أيضًا، بأن تقول اسم أي شيء أشير إليه بلغتها، فأصبحت خلال بضعة أيام قادرًا على طلب أي شيء يخطر ببالي. لقد كانت لطيفة المعشر، لا يتجاوز طولها أربعين قدمًا، وهي صغيرة الحجم بالنسبة إلى سنها. أطلقت عليّ اسم غريلدرِغ، فتبنته العائلة، ومن ثم المملكة بأكملها. تعني الكلمة ما يسميه اللاتينيون «نانونكولوس» ([39])، والإيطاليون «هومنتشِلِتينو» ([40])، والإنكليز «مانكن». لم نفترق أبدًا وأنا هناك، ولها أدين بشكل رئيسي بنجاتي في ذلك البلد. دعوتها غلَمدالكلِتْش، أو المربية الصغيرة، وسأكون ناكرًا للجميل لو أغفلت ذكر رعايتها ومحبتها لي، وأتمنى لو استطعت رده كما تستحق، عوضًا عن أن أكون سببًا بريئًا وبائسًا لخيبتها، كما أظن أنه قد حصل.

بدأ يذاع في الجوار أن سيدي عثر على حيوان غريب في الحقل بحجم «سبلاكنك» تقريبًا، لكن شكله كالإنسان تمامًا، ويشبهه كذلك في كل أفعاله، يبدو أنه يتحدث بلغة صغيرةٍ خاصة به، وقد تعلم عدة كلمات من لغتهم، يقف على رجليه، وهو أليف ولطيف، يأتي حين ينادى عليه، ويفعل ما يطلب منه، أطرافه هي الأدقّ في العالم كله، وبشرته أصفى من بشرة ابنة نبيلٍ عمرها ثلاث سنوات. عندما جاء أحد المزارعين الذين يسكنون في الجوار -وهو صديق مقرب من سيدي- لزيارته بقصد الاستفسار عن حقيقة هذه القصة، جُهزت على الفور ووُضعت على طاولة، حيث مشيت كما أمرت، وسللت سيفي ثم أغمدته مجددًا؛ عبرتُ عن احترامي لضيف سيدي، وسألته عن حاله بلغته، ثم رحبت به، تمامًا كما علمتني مربيتي الصغيرة.

وضع ذلك الرجل، الذي كان مسنًا وضعيف البصر، نظارته كي يراني بشكل أفضل، فلم أقاوم أن أضحك من قلبي، إذ بدت عيناه مثل بدرين يشرقان على

غرفة من خلال نافذتين. شاركني أهل المنزل الضحك وقد فهموا سببه، لكن الرجل العجوز من حماقته غضب وانزعج. لقد كانت له سمعة رجل بخيلٍ محب للمال، وتبين أنه يستحقها بعد النصيحة الملعونة التي أسداها لسيدي، بأن يعرضني للفرجة في سوق المدينة المجاورة التي تبعد حوالي اثنين وعشرين ميلًا عن بيتنا، ويستغرق الذهاب إليها نصف ساعة ركوبًا. لقد خمنت أن هنالك أذية تدبر منذ رأيت سيدي وأصدقاءه يتهامسون طويلًا، ويشيرون إليّ مرارًا، وجعلتني مخاوفي أتخيل أن بعض كلماتهم تناهى إلى سمعي وفهمته، لكن مربيتي الصغيرة غلَمدالكلِتْش أخبرتني المسألة كلها في الصباح التالي بعد أن عرفتها من أمها بمكر. وضعتني الفتاة المسكينة على حضنها، وانخرطت بالبكاء من الخجل والحزن. لقد خافت أن يصيبني الناس العنيفون والسوقيون بأذى، كأن يمسكوني بأيديهم فيعصروني حتى الموت أو يكسروا أحد أطرافي. وقد لاحظَتْ أيضًا كم كنت خجولًا بطبيعتي وكم كنت حريصًا على حشمتي، وعرفت كم سأشعر بالإذلال إن عرضت مقابل المال فُرجةً لأدنى الناس. قالت إن أباها وأمها وعداها أن يكون غريلدرِغ لها، لكنها اكتشفت الآن أنهما يقصدان إرضاءها كما فعلا في السنة الماضية، حين تظاهرا بإهدائها خروفًا ثم باعاه إلى أحد الجزارين بمجرد أن أصبح سمينًا. بالنسبة إليّ، أؤكد بصدقٍ أنني لم أقلق مثل مربيتي، وامتلكتُ أملًا قويًا لم يغادرني أبدًا بأنني سأستعيد حريتي يومًا ما. أما بالنسبة إلى خزي التجوال بي كأنني حيوان نادر، فقد اعتبرت نفسي غريبًا تمامًا عن البلد، ولن تعاب عليّ هذه البليّة إن عدت يومًا إلى إنكلترا، لأن ملك بريطانيا العظمى نفسه كان سيواجه مثل هذا المأزق لو كان في مكاني. في الصباح التالي حملني سيدي في صندوقٍ إلى المدينة المجاورة عملًا بنصيحة صديقه، واصطحب معه ابنته الصغيرة، أي مربيتي، جالسةً على وسادة خلفه. كان الصندوق مغلقًا من كل الجوانب، وله باب صغير كي أدخل وأخرج، وبضع ثقوب للتهوية، وحرصت الفتاة على وضع بطانية سرير دميتها داخله كي أستلقي فوقها. خُضضت وتأرجحت بشدة خلال الرحلة رغم أنها استغرقت نصف ساعة فقط، فقد قطع الحصان أربعين قدمًا في كل خطوة وهرول عاليًا، ووجدت حركته أشبه بارتفاع وانخفاض سفينة في خضم عاصفة هوجاء، لكن بشكل أكثر تواترًا. كانت مسافة رحلتنا أطول مما بين لندن وسانت ألبانز ([41]). نزل سيدي في نُزلٍ يعرفه هناك، وبعد مشاورة مسؤول النزل وإجراء بعض الترتيبات الضرورية استأجر ألغروترود، أو المنادي، ليعلن في المدينة عن مخلوقٍ غريب سيعرض في نُزل «علامة النسر الأخضر»، أصغر حجمًا من سبلاكنك -وهو حيوان في تلك البلاد ذو شكل لطيف، طوله ستة أقدام- ويشبه البشر في كل جزء من جسمه، يستطيع قول عدة كلمات وتأدية خدع مسلية.

وُضعت على طاولة في أكبر غرفة في النزل، مساحتها قريبة من ثلاثمئة قدم مربع، ووقفت مربيتي الصغيرة على كرسي منخفض بقرب الطاولة كي تعتني

بي وتلقنني ما يجب عليّ فعله. سمح سيدي لثلاثين شخصًا فقط بمشاهدتي كل مرة لتجنب الازدحام. تجولتُ على الطاولة كما أشارت الفتاة، وسألتني أسئلة بقدر معرفتي باللغة، وأنا أجبتها بأعلى صوت ممكن. استدرت عدة مرات نحو الحضور، وعبرت عن احترامي، ورحبت بهم، واستخدمت عبارات أخرى تعلمتها. ثم أخذت كشتباتًا مليئًا بالخمر أعطتني إياه غلَمدالكلِتْش على أنه كأس، وشربت بصحتهم. سللت سيفي، ولوحت به على طريقة المبارزين في إنكلترا، ثم أعطتني مرافقتي جزءًا من قشة استخدمتُها كرمح، وقد تعلمت ذلك الفن في طفولتي. عُرضت في ذلك اليوم على اثنتي عشر مجموعة من الحضور، وأجبرت في كل مرة على تكرار الحماقات نفسها، حتى صرت شبه ميت من الإنهاك والاستياء. فقد حكى الذين شاهدوني أشياء رائعة عني حتى كاد الناس يكسرون الأبواب من أجل الدخول. لم يسمح سيدي، لمصلحته الخاصة، لأي أحد بأن يلمسني باستثناء مرافقتي، وتجنبًا للخطر وضع مقاعد حول الطاولة على مسافة كافية لإبقائي بعيدًا عن متناول الجميع. إلا أن صبيًا شريرًا رمى جوزة بحجم يقطينة نحو رأسي مباشرة، بالكاد تجنبتني، وإلا فقد كانت آتية بعنف شديد كفيل بأن يفلق جمجمتي. لكنني شعرت بالرضا لرؤية ذلك الشقي الصغير يضرب ضربًا مبرحًا ويُطرد من الغرفة.

أعلن سيدي أنه سيعرضني مجددًا في اليوم التالي، وجهز لي في تلك الأثناء مركبة مناسبة أكثر. كان لا بد له من ذلك، فقد أنهكت من رحلتي الأولى، ومع تسلية الحضور ثمان ساعات متواصلة، أمسيت بالكاد قادرًا على الوقوف على رجليّ أو قول كلمة. لم أستعد قواي إلا بعد ثلاثة أيام، ولم أسترح حتى في المنزل، فقد أتى الناس من مسافة مئة ميل لرؤيتي في بيت سيدي بعد أن سمعوا بشهرتي. لم يقل الحاضرون عن ثلاثين شخصًا مع زوجاتهم وأولادهم (فالبلد كثيف السكان)، وكان سيدي يطلب أجرة غرفة مليئة كلما عرضني في المنزل، ولو كان فيها عائلة واحدة. لذلك ظللت فترة لا أحظى سوى بالقليل من وقت الراحة كل يوم من الأسبوع (عدا الأربعاء، وهو يوم السبت عندهم)، رغم أنني لم أؤخذ إلى المدينة.

بعد أن اكتشف سيدي مقدار الربح الذي قد أعود به عليه، قرر أن يأخذني إلى أهم المدن في المملكة. فأمّن كل ما يحتاجه لرحلة طويلة، ورتب أموره في المنزل وودع زوجته، ثم انطلقنا باتجاه العاصمة في السابع عشر من أغسطس عام ١٧٠٣، أي بعد وصولي بشهرين. كانت العاصمة قريبة من مركز تلك المملكة، وتبعد ثلاثة آلاف ميل عن بيتنا. ركبت غلَمدالكلِتْش خلف أبيها، وحملتني على حضنها في صندوق مربوط بخصرها، بطنته من كل الجوانب بأطرى قماش استطاعت الحصول عليه، وفرشته بسرير دميتها، وزودتني بملاءات وحاجيات أخرى، جاعلةً كل شيء مريحًا قدر الإمكان. لم يرافقنا أحد سوى صبي من الخدم ركب خلفنا مع الأمتعة.

خطط سيدي أن يعرضني في كل المدن على الطريق، وأن نخرج عن مسارنا مسافة خمسين أو مئة ميل إلى أي قريةٍ أو بيت شخص مرموق حيث يمكن أن يتوقع عملاً. سلكنا رحلات سهلة لا يتجاوز مجموعها سبعة أو ثمانية أميال يوميًا، وكانت غلَمدالكلِتْش تشتكي من التعب بسبب هرولة الحصان كي أستريح، وتخرجني أحيانًا من الصندوق نزولًا عند رغبتي كي أستنشق الهواء وأرى البلد، لكنها تمسكني دومًا بإحكام عن طريق شرائط. عبرنا خمسة أو ستة أنهار أعرض وأعمق بكثير من النيل أو الغانج، ولم يكن هنالك ساقية أصغر من نهر التايمز عند جسر لندن. أمضينا حتى ذلك الوقت عشرة أسابيع في رحلتنا، وعُرضتُ في ثماني عشرة مدينة كبيرة، بالإضافة إلى عدة قرى ومنازل عائلات معينة.

في السادس والعشرين من أكتوبر، وصلنا إلى العاصمة التي تدعى بلغتهم «لوربرُلغرود» أو «فخر العالم». استأجر سيدي بيتًا في الشارع الرئيسي من المدينة غير بعيد عن القصر الملكي، ونشر إعلانًا من الطراز المعتاد يحوي وصفًا دقيقًا لي. ثم استأجر غرفة كبيرة عرضها بين ثلاثمئة وأربعمئة قدم، وأمّن طاولة قطرها ستون قدمًا كي أؤدي عرضي فوقها، وأحاطها بحافة على مسافة ثلاثة أقدام من طرفها، ومثل ذلك طولًا لحمايتي من السقوط. كررت العرض عشر مرات في اليوم، مدهشًا ومسليًا كل الناس. كنت عندها قادرًا على تحدث اللغة بشكل مقبول، وفهمِ كل كلمة تقال لي، بالإضافة إلى ذلك تعلمت أبجديتهم، واستطعت قراءة وتفسير جملة هنا وجملة هناك، لأن غلَمدالكلِتْش كانت تعلمني في المنزل وفي ساعات الفراغ أثناء رحلتنا. اعتادت أن تحمل كتابًا صغيرًا في جيبها ليس أكبر بكثير من أطلس سانسون، يحكي مختصرًا عن دينهم، وهو شائع بين الفتيات الصغيرات، فتعلمني منه الأحرف وتترجم لي الكلمات.

الفصل الثالث

يستدعى المؤلف إلى القصر، تشتريه الملكة من سيده المزارع وتقدمه إلى الملك. يتحدث مع علماء جلالته. يخصص له جناح في القصر، ويصبح مقربًا من الملكة. يدافع عن سمعة بلاده. مشاجراته مع قزم الملكة.

سببت لي المشقات التي خضتها كل يوم تراجعًا كبيرًا في صحتي خلال بضعة أسابيع، وكان سيدي يزداد جشعًا كلما كسب المزيد بفضلي، ففقدتُ شهيتي تمامًا، ونحلتُ حتى أصبحتُ أشبهَ بهيكل عظمي. لاحظ المزارع ذلك، ولظنه أنني سأموت عما قريب قرر أن يكسب مني قبل ذلك بقدر ما يستطيع، وبينما كان يفكر ويقلب الأمر بينه وبين نفسه أتى من القصر سلاردرال، أو مرشد، يأمر سيدي بإحضاري إلى هناك على الفور لتسلية الملكة وسيداتها، بعد أن جاء بعضهن سابقًا لرؤيتي وسردن لها غرائب عن جمالي وسلوكي وذكائي. كانت سعادة جلالتها وضيوفها بتهذيبي تفوق الوصف، حيث جثوت على ركبتي، وطلبت شرف تقبيل قدمها الملكية، لكن تلك الملكة العطوف مدت إليّ خنصرها (بعد أن وُضعتُ على طاولة) فعانقته بذراعي ووضعتُ طرفه بكل احترام على شفتيّ.

سألتني أسئلة عامة عن بلدي ورحلاتي، وأجبتها بقدر ما استطعت من الوضوح، وبأقل ما استطعت من الكلمات. ثم سألتني إن كنت أرغب بالعيش في القصر، فانحنيت باتجاه سطح الطاولة، وأجبت بتواضع أنني عبدٌ لسيدي، لكنني لو ملكت أمري لكنت فخورًا بتكريس حياتي لخدمة جلالتها. سألتْ سيدي إن كان يرضى ببيعي بسعر جيد، وكان هو مستعدًا للافتراق عني خشية ألا أعيش شهرًا آخر، فطلب ألف قطعة ذهبية، أمرتْ بإحضارها له على الفور. كل قطعة منها كانت بحجم ثمانمئة مويدور ([42])، لكن أخذًا بالحسبان النسبة بين كل شيء في تلك البلاد ومثيله في أوروبا، والسعر المرتفع للذهب عندهم، كان المبلغ بالكاد يساوي ألف جنيه في إنكلترا. قلت للملكة بعدها إنني أصبحتُ مخلوق جلالتها وخادمها المتواضع، لذلك أريد أن أطلب معروفًا، وهو أن توظف غلَمدالكلِتْش التي أحاطتني دومًا بعنايتها وعطفها وكانت بارعة في ذلك، كي تظل مربيتي ومعلمتي. قبلت جلالتها طلبي، وحصلت على موافقة المزارع بسهولة، فقد سره أن تكون ابنته مطلوبة في القصر، ولم تستطع الفتاة المسكينة إخفاء فرحتها. غادر سيدي السابق بعد أن ودعني، قائلًا إنه يتركني في أيدٍ أمينة، ولم أجب على ذلك بحرف واحد، بل اكتفيت بانحناءة طفيفة.

لاحظت الملكة برودي، وسألتني عن السبب عندما غادر المزارع، فقلت لجلالتها بجرأة إنني لست مدينًا لسيدي السابق بأي شيء سوى عدم قضائه

على مخلوقٍ مسكين مسالم عثر عليه بالصدفة في حقله، وقد سددتُ هذا الدين أضعافًا من خلال الربح الذي حققه من عرضي في نصف المملكة، والسعر الذي باعني به الآن. أخبرتها أن الحياة التي عشتها مذ عثر عليّ كانت مرهقة بما يكفي لقتل كائن بعشرة أضعاف قوتي؛ أن صحتي تدهورت بسبب الكدح المستمر في تسلية الرعاع كل ساعة من اليوم؛ وأن سيدي لو لم يظن حياتي في خطر لما حصلت جلالتها على صفقة بذلك السعر الزهيد. لكنني أصبحت خاليًا من كل خوف من أن تساء معاملتي تحت حماية هذه الملكة العظيمة الصالحة، زينة الطبيعة، وحبيبة العالم، وبهجة رعاياها، وعنقاء الكون؛ ورجوت ألا يكون لمخاوفي التي عشتها عند سيدي السابق داعٍ بعد الآن، حيث انتعشتُ بالفعل بتأثير حضورها المهيب.

هذا كان مجمل الحديث، وقد قلته بكثير من التردد وقليلٍ من اللباقة، وكان القسم الأخير مصوغًا بأسلوب أولئك الناس، الذي علمتني منه غلَمدالكلِتْش بعض العبارات في طريقنا إلى القصر.

تفهمت الملكة عيوبي في الكلام، لكنها دهشت لظُرف وذكاء حيوان مصغر مثلي. أخذتني بيدها وذهبت بي إلى الملك، الذي كان قد أوى إلى غرفته. كان جلالته ملكًا شديد الوقار، ذا ملامح صارمة. لم يدقق في شكلي للوهلة الأولى، فسأل الملكة ببرود منذ متى أصبحت تحب السبلاكنك، إذ يبدو أنه ظنني كذلك وأنا مستلقٍ على وجهي في يد جلالتها اليمنى. لكن الملكة، التي كانت موفورة الذكاء والفكاهة، وضعتني بلطف على قدميّ فوق المكتب وأمرتني أن أحدث الملك عن نفسي. فعلتُ ذلك بكلمات قليلة، وأكدت غلَمدالكلِتْش -التي كانت واقفة عند الباب غير قادرة على تركي أغيب عن ناظريها- كل ما حدث منذ وصولي إلى بيت والدها.

رغم أن الملك لم يقلّ علمًا عن أي أحد في بلاده، وقد درس الفلسفة والرياضيات بشكل خاص، فإنه عندما دقق في شكلي ورآني أمشي منتصب القامة، استنتج من قبل أن أبدأ بالكلام أنني قد أكون لعبة آلية صنعها حرفي بارع، وهي صناعة وصلت في تلك المملكة إلى درجة كبيرة من الإتقان. لكنه حين سمع صوتي ووجد ما قلته متناسقًا ومنطقيًا، لم يستطع إخفاء دهشته. لم يقتنع بالحكاية التي قصصتها عليه بخصوص طريقة وصولي إلى المملكة، بل ظنها قصة مدبرة بين غلَمدالكلِتْش وأبيها، وظن أنه علمني بعض الكلمات كي أباع بسعر أعلى. بسبب ذلك الخيال راح يطرح عليّ عدة أسئلة أخرى، وظل يتلقى إجابات منطقية، لا يشوبها أكثر من لهجة أجنبية، ونقص معرفةٍ باللغة، وبضعة عبارات ريفية تعلمتها في منزل المزارع، لم تناسب أسلوب القصور المهذب.

أرسل جلالته في طلب ثلاثة من كبار العلماء كانوا عندئذ في زيارتهم الأسبوعية في القصر (تبعًا للعادة في تلك المملكة)، فتفحص أولئك السادة شكلي بدقة متناهية، ثم خلصوا إلى آراء مختلفة عني؛ اتفقوا جميعًا على أنني لا يمكن أن أنجب حسب قوانين الطبيعة المعتادة، لأنني لم أزود بوسيلة للدفاع عن حياتي سواء من حيث السرعة أو القدرة على تسلق الأشجار أو الحفر في الأرض. ولاحظوا من خلال أسناني بعد أن تفحصوها بدقة أنني حيوان لاحم، رغم أن معظم رباعيات الأرجل تفوقني حجمًا، وتفوقني الفئران وغيرها سرعةً، فلم يتخيلوا كيف يمكنني أن أجد ما أقتات به إلا إذا كنت أتغذى على الحلزونات والرخويات الأخرى، ثم أثبتوا بعد عدة نقاشات علمية أن ذلك غير ممكن. بدا على أحدهم أنه يظنني جنينًا مُجهضًا، لكن الاثنين الآخرين رفضا ذلك الرأي، لأنهما رأيا أن أطرافي كاملة النمو، وأنني عشت سنوات عديدة، تدل على ذلك لحيتي التي رأوا شعيراتها بوضوح عن طريق عدسة مكبرة. لم يظنوا أنني قزم لأن صغر حجمي كان أبعد من أي مقارنة ممكنة، حيث كان طول القزم المفضل لدى الملكة قريبًا من ثلاثين قدمًا، وهو أصغر قزم معروف في المملكة.

بعد ذلك الاستنتاج النهائي طلبت أن أقول كلمة أو اثنتين، فتوجهت بكلامي إلى الملك، وأكدت لجلالته أني أتيت من بلد يوجد فيه ملايين من الجنسين لهم مثل هيئتي، وتتناسب فيه أحجام كل الحيوانات والأشجار والبيوت، بالنتيجة أستطيع أن أدافع عن نفسي وأن أجد قوتي فيه كما يستطيع أي من رعايا جلالته أن يفعل هنا، واعتبرت ذلك جوابًا وافيًا على نقاشات أولئك السادة. لكنهم ردوا بابتسامة ازدراء، قائلين إن المزارع قد علمني درسي بشكل جيد. أما الملك الذي كان أرجح منهم عقلًا، فقد صرفهم وأرسل في طلب المزارع، الذي لم يكن قد غادر المدينة لحسن الحظ. بعد أن استجوبه على انفراد، ثم بوجودي أنا والفتاة، بدأ جلالته يفكر بأن ما قلناه قد يكون صحيحًا، وطلب من الملكة أن تأمر بالاعتناء بي، وكان من رأيه أن تستمر الفتاة برعايتي، بعد أن لاحظ المودة التي يحملها كل منا للآخر. جُهز جناح مناسب لها في القصر، وكلفت مربية بتعليمها، وخادمة بإلباسها، وخادمتان أخريان بواجبات بسيطة أخرى، لكن الاعتناء بي كان موكلًا إليها بالكامل.

أمرت الملكة نجارها الخاص بصنع صندوق يكون لي بمثابة غرفة نوم، بالشكل الذي نتفق عليه أنا وغلَمدالكلِتْش. كان ذلك الرجل حرفيًا بارعًا، صنع خلال ثلاثة أسابيع وفقًا لتعليماتي غرفة نوم خشبية مساحتها ستة عشر قدمًا مربعًا، وارتفاعها اثني عشر قدمًا. لها نوافذ بأطر منزلقة، وباب، وخزانتان، مثل غرفة نوم لندنية. صنع اللوح الذي يشكل السقف بحيث يرفع ويغلق بواسطة مفصلين، من أجل وضع سرير مفروش صنعه منجدو القصر، كانت غلَمدالكلِتْش تخرجه كل يوم لتهويته، وترتبه بيديها، ثم تدخله مجددًا في الليل

وتقفل السقف فوقي. تولى حرفيّ بارع، مشهور بصنعه تحفًا صغيرة، صُنعَ كرسيين بمساند وأطر من مادة تشبه العاج، وطاولتين، وخزانة لأضع أشيائي فيها. كانت الغرفة مبطنة من كل الجوانب، بما في ذلك الأرض والسقف، لتجنب أي حادث قد يسببه إهمال من يحملني، ولتخفيف شدة الاهتزاز حين أركب العربة. طلبتُ صنع قفل لغرفتي لمنع الجرذان والفئران من الدخول، فصنع الحداد بعد محاولات كثيرة أصغر قفل رآه أهل ذلك البلد، وقد رأيت أكبر منه على بوابة منزل أحد السادة في إنكلترا. حاولت جاهدًا أن أبقي المفتاح في جيبي خوفًا من أن تضيعه غلَمدالكلِتْش. أمرت الملكة كذلك بأرق حرير يمكن الحصول عليه لصنع ثياب لي، فلم تكن أسمك بكثير من بطانية إنكليزية، وكنت أجدها ثقيلة جدًا إلى أن اعتدت عليها. لقد صنعت على طراز تلك المملكة، تشبه الفارسية قليلًا، والصينية قليلًا، وكانت ثيابًا مهيبة وراقية.

أحبت الملكة صحبتي حتى أنها لم تعد تتعشى من دوني، فوضعت لي طاولة وكرسيًا فوق مائدة جلالتها عن شمالها، وكانت غلَمدالكلِتْش تقف على كرسي وضع على الأرض بقرب طاولتي لمساعدتي والعناية بي. خصص لي طقم كامل من الأطباق الفضية وأدوات أخرى، بالمقارنة مع تلك التي تحملها الملكة، لم تبدُ أكبر بكثير مما رأيته معروضًا في متجر ألعاب لندنيّ كأثاثٍ لبيت دمية. كانت مربيتي الصغيرة تبقيها في صندوق فضي في جيبها، وتعطيني إياها وقت الطعام حسب احتياجي، وتنظفها دومًا بنفسها. لم يكن أحد يتناول العشاء مع الملكة سوى الأميرتين، عمر الكبرى في ذلك الوقت كان ستة عشر عامًا، والصغرى ثلاثة عشر وشهرًا. كانت جلالتها تضع قطعة من اللحم على أحد أطباقي فأقسم منها لنفسي، فتتسلى برؤيتي آكل بأدوات مصغرة. أما جلالتها -رغم ضعف شهيتها- فقد كانت تأكل بلقمة واحدة ما يستطيع عشرة من الفلاحين الإنكليز أكله في وجبة واحدة، وظل ذلك بالنسبة إلي منظرًا مثيرًا للغثيان لبعض الوقت. كانت تسحق بين أسنانها جناح قبرة بعظمه، رغم أنه أكبر بثمان مرات من جناح ديك رومي ناضج، وتضع في فمها قطعة خبز بحجم رغيفين من أرغفة الاثني عشر بنسًا، وتشرب من كأس ذهبي مقدار برميل كبير في الرشفة الواحدة. سكاكينها كانت أطول بمرتين من منجل مع قبضته، وحجم الملاعق والشوكات والأدوات الأخرى متناسب معها. أذكر حين أخذتني غلَمدالكلِتْش بدافع الفضول لرؤية بعض موائد القصر، حيث كانت عشر أو اثنتا عشر من تلك السكاكين والشوكات العملاقة تُرفع معًا، وشعرت أنني لم أر حتى ذلك الوقت منظرًا أكثر فظاعة.

جرت العادة كل أربعاء (الذي هو كالسبت عندهم، كما أشرت سابقًا)، أن يتناول الملك والملكة والأمراء والأميرات العشاء معًا في جناح جلالته. أصبحت مقربًا من الملك في ذلك الوقت، وكانت طاولتي وكرسيي الصغيرَين يوضعان على شماله أمام إحدى الممالح. كان جلالته يسر بالحديث معي، فيسألني عن

العادات والدين والقوانين والحكومة والتعليم في أوروبا، وأحدثه عنها بقدر ما استطعت. كان ذهنه صافيًا، ورأيه سديدًا، يعطي ملاحظات وأفكارًا في غاية الحكمة على كل ما أقول. لكن، أعترف أنني بعد أن تحدثت بإسهاب عن بلدي الحبيب، عن تجارتنا وحروبنا في البر والبحر، وعن الطوائف في ديننا والأحزاب في سياستنا، ظهر التحيز في تفكيره، فلم يمتنع عن حملي بيده اليمنى والتربيت عليّ بلطفٍ بالأخرى، وبعد موجة ضحك من القلب سألني ما إذا كنت من حزب الأحرار أم حزب المحافظين. ثم التفتَ إلى الوزير الأول الذي كان يقف خلفه حاملًا عصًا بيضاء بطول الصاري الرئيسي لسفينة «رويال سوفرين»، وعلّق على تفاهة عظَمة الكائن البشري، التي يمكن أن تقلدها حشرة ضئيلة مثلي. «مع ذلك»، قال، «أجرؤ على الظن أن هذه المخلوقات تملك ألقابًا ومراتب تشريفية، تصنع أعشاشًا وأوكارًا صغيرة تسميها بيوتًا ومدنًا، تبدع أشكالًا في لباسها وأدواتها، تحب وتكره وتختلف وتغش وتخون». واستمر على تلك الحال، بينما أخذ لوني يتبدل مرات عدة من غضبي لسماع بلدنا النبيل يعامل باحتقار، وهو سيد العلوم والحروب، قاهر فرنسا، حاكم أوروبا، مقام الفضيلة والاستقامة والشرف والصدق، وهو فخر وموضع حسد العالم.

لكنني إذ لم أكن في وضع يسمح لي بالغضب من الإساءة، بدأت أتساءل بعد تفكير مليّ إن كان في ذلك الكلام إساءة حقًا. لأنني بعد أن اعتدت طوال عدة أشهر على منظر أولئك الناس وحديثهم، ورأيت كل شيء وقعت عليه عيناي بالضخامة نفسها، ذهب عني الرعب الذي شعرت به في البداية تجاه حجمهم ومظهرهم، لدرجة أنني لو رأيت في ذلك الوقت مجموعة من السادة والسيدات الإنكليز في حليّهم وبُهرجهم، يؤدون أدوارهم العديدة بالطريقة الأشد رياءً من تبخترٍ وانحناء وهذر، للصدق، كنت سأميل إلى الضحك عليهم كما ضحك الملك ورفقته عليّ. ولم أكن أمتنع عن الضحك حتى على نفسي عندما تحملني الملكة بيدها أمام مرآة فنظهر فيها أمامي بالكامل، ولم يكن هنالك شيء مضحك كالمقارنة بيننا، حتى أنني بدأت أتخيل نفسي قد تقلصت بالفعل درجاتٍ عن حجمي الحقيقي.

لم يصبني أي شيء بالغضب والرعب أكثر من قزم الملكة ([43])، الذي كان صاحب أقصر قامة في تلك المملكة (أظن أن طوله ليس أكثر من ثلاثين قدمًا)، فأصبح شديد الغطرسة لرؤية كائن أصغر منه بكثير، وصار يختال ويضخم نفسه عندما يمر بجانبي في غرفة استقبال الملكة، بينما أقف فوق إحدى الطاولات وأتحدث مع سادة وسيدات القصر. كان نادرًا ما يفوت فرصة توجيه كلمة أو اثنتين عن صغر حجمي، فأنتقم منه عندئذٍ بمجرد مناداته «أخي»، ودعوته للمصارعة، وغيرها من التعليقات المشابهة المعتادة عند خدم القصر. في أحد الأيام على العشاء، كان ذلك الشرير الصغير مغتاظًا بشدة من شيء قلته له،

فصعد على كرسي جلالتها، وأمسكني من وسطي وأنا جالس لا أضمر أي أذى، وأوقعني في إناء فضي كبير مملوء بالقشدة، ثم هرب بسرعة. لو لم أكن سباحًا ماهرًا لساءت حالي، فقد كانت غلَمدالكلِتْش عندئذٍ في الطرف الآخر من الغرفة، وأصاب الملكة خوف شديد، حتى أن سرعة البديهة خانتها في مساعدتي. لكن مربيتي الصغيرة ركضت لإنقاذي، وأخرجتني بعد أن ابتلعتُ أكثر من ربع غالون من القشدة. أخذت إلى السرير، ولم أصب بأي أذى سوى فقدان حلتي التي فسدت تمامًا. نال القزم على ذلك ضربًا مبرحًا، وأجبر على شرب القشدة التي رماني فيها كعقاب إضافي، ولم يسترجع مكانته من بعدها، فقد أهدته الملكة إلى سيدة مرموقة بعد وقت قصير ولم أره مجددًا. أسعدني ذلك للغاية، لأنني لم أعرف إلى أي حد يمكن لذلك الولد الشرير أن يصل بكراهيته.

لقد صنع بي من قبل مقلبًا حقيرًا جعل الملكة تضحك رغم شدة استيائها منه، وأرادت أن تفصله مباشرة لو لم أتكرم بالتوسط له عندها. كانت الملكة قد وضعت في طبقها عظمة، وبعد أن أخرجت نخاعها أعادت وضعها في الطبق واقفةً كما كانت من قبل. ذهبت غلَمدالكلِتْش عندئذ إلى المنضدة الجانبية، وكان القزم ينتظر تلك الفرصة، فصعد على الكرسي الذي تقف عليه عادةً للاعتناء بي أثناء الطعام، وحملني بكلتي يديه، وعصر رجلي بشدة ثم حشرهما في تجويف العظمة حتى خصري. ظللت عالقًا فيها بعض الوقت، بمنظر مثير للضحك، وأظن أن دقيقة مرت قبل أن يعرف أحد بما حل بي، لأنني رأيت أن الصراخ ليس من مستواي. بما أن الملوك قلّما يأكلون اللحم ساخنًا، لم تحترق رجلاي، إلا أن جواربي وبنطالي كانت في حالة سيئة. ولم يتلق القزم عقابًا أكثر من جَلد مؤلم، نزولًا عند توسلي.

كانت الملكة تمازحني باستمرار بشأن خوفي، وتسألني إن كان أهل بلدي جبناء مثلي. وسبب ذلك كالتالي؛ كان الذباب يملأ تلك المملكة في الصيف، ولم تكن تلك الحشرات الكريهة، التي تعدل بحجمها قبّرة دنستابل، تتركني وشأني على الغداء بطنينها وأزيزها المستمر قرب أذني. كانت تهبط أحيانًا فوق طعامي وتخلف عليه مفرزاتها المقززة أو بيوضها، المرئية بالنسبة إلي لكن ليس لأهل ذلك البلد، الذين لم تكن لأعينهم الكبيرة مثل حدة بصري في رؤية الأجسام الصغيرة. أحيانًا كانت تقف على أنفي أو جبهتي، فتلدغني بسرعة، وتصدر عنها رائحة كريهة. كنت قادرًا على رؤية مادتها اللزجة بوضوح، تلك التي يخبرنا علماء الطبيعة أنها تمكن تلك الكائنات من المشي على السقف رأسًا على عقب. لم أل جهدًا في الدفاع عن نفسي ضد هذه الحيوانات المقيتة، ولم أقاوم أن أفزع كلما اقتربت من وجهي. اعتاد القزم أن يلتقط عددًا من تلك الحشرات بيده، كما يفعل أطفال المدارس عندنا، ويطلقها أمامي فجأة قاصدًا إخافتي

وتسلية الملكة، فأتصدى لذلك بأن أقطعها إلى أشلاء بسكيني وهي تطير في الهواء، فكانت مهارتي عندئذ تلقى الإعجاب.

أذكر أن غلَمدالكلِتْش وضعتني ذات صباح في صندوقي قرب النافذة، كما اعتادت أن تفعل في الأيام الجميلة كي أستنشق الهواء (لأنني لم أكن أجرؤ على السماح بتعليق الصندوق بمسمار خارج النافذة، كما نفعل بالأقفاص في إنكلترا)، فرفعتُ إحدى النوافذ وجلست إلى طاولتي لآكل قطعة من الحلوى على الفطور، عندما دخل أكثر من عشرين دبورًا إلى غرفتي قد جذبتهم الرائحة، وكان صوت طنينهم أعلى من صوت عشرين مزمارًا. أخذ بعضهم حلوايَ وحملها بعيدًا بالتدريج، وطار بعضهم حول رأسي ووجهي، فأربكني ضجيجهم، وتملكني الفزع من إبرهم. لكنني استجمعت شجاعتي للنهوض وسحب سيفي، ومهاجمتهم في الهواء. قتلت أربعًا منهم وهرب البقية، فأغلقت نافذتي مباشرة. كانت تلك الحشرات بحجم طائر الحجل، وعندما أزلت إبرها وجدت طولها إنشًا ونصف، وطرفها حادًا مثل إبرة. خبأتها كلها بحرص، وبعد أن عرضتها مع غرائب أخرى في أجزاء عدة من أوروبا، منحت ثلاثة منها إلى جامعة غريشام، وأبقيت الرابعة لنفسي.

الفصل الرابع

وصف البلد، واقتراح تصحيح الخرائط الحديثة. وصف قصر الملك والعاصمة. طريقة المؤلف في السفر. وصف المعبد الرئيسي.

أرغب الآن بإعطاء القارئ وصفًا وجيزًا لذلك البلد، بقدر أسفاري فيه التي لم تتجاوز مسافة ألفي ميل حول العاصمة لوربرُلغرود، لأنني كنت أرافق الملكة دومًا، ولم تكن تذهب أبعد من ذلك حين ترافق الملك في رحلاته، بل تنتظر هناك حتى يعود جلالته من استطلاع الحدود. تمتد المملكة ستة آلاف ميل طولًا، وبين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف عرضًا. ولا أستطيع إلا أن أستنتج من ذلك، أن علماء الجغرافيا في أوروبا وقعوا في خطأ كبير حين ظنوا أنه لا يفصل بين اليابان وكاليفورنيا سوى البحر. وكان رأيي دومًا أنه لا بد من وجود يابسة توازن ثقل قارة تارتاري. لذلك يجب عليهم تصحيح خرائطهم ومخططاتهم بإضافة هذه القطعة الواسعة من اليابسة إلى الأجزاء الشمالية الغربية من أميركا، وأنا مستعد لتقديم المساعدة لهم في ذلك.

المملكة عبارة عن شبه جزيرة يحدها من الشمال الشرقي سلسلة جبال ارتفاعها ثلاثون ميلًا، من غير الممكن عبورها بسبب وجود براكين في قممها، ولا يعرف أكثرهم علمًا أي كائنات تسكن وراء تلك الجبال، أو إن كانت مأهولة أصلًا. تحيط بالمملكة مياه المحيط من الأطراف الثلاثة الأخرى، ولا يوجد فيها أي ميناء بحري. أما مصبات الأنهار على الساحل فهي مليئة بصخور حادة، والبحر فيها شديد الهياج، مما يجعل الإبحار فيها مستحيلًا ولو بأصغر قواربهم، لذلك فإن أولئك الناس معزولون تمامًا عن أي تواصل مع بقية العالم. لكن الأنهار الكبيرة مليئة بالسفن وزاخرة بسمك ممتاز، وهم نادرًا ما يصطادونه من البحر، لأن حجم السمك البحري مثله في أوروبا، وبالتالي لا يستحق الصيد. يبدو جليًا أن إنتاج الطبيعة للنباتات والحيوانات بهذا الحجم العملاق مقتصر على تلك المملكة، وأترك تحديد سبب ذلك إلى العلماء. على أي حال، بين حين وآخر يأخذون حوتًا يصادف أن يجنح على الصخور، ويأكله عامة الناس بنهم. كانت تلك الحيتان ضخمة للغاية، حتى أن رجلًا بالكاد يستطيع حمله على كتفيه، وأحيانًا يؤتى بها في سلال إلى لوربرُلغرود للفرجة، وقد رأيت أحدها في طبق على مائدة الملك على أنه طعام نادر، لكنني لم أجده معجبًا به، وأظن أن ضخامته أثارت قرفه، رغم أنني رأيت أكبر منه حجمًا في غرينلاند.

البلد كثيف السكان، فيه إحدى وخمسون مدينة، وقريب من مئة بلدة مسورة، وعدد كبير من القرى. وقد يكفي أن أصف لوربرُلغرود كي أرضي فضول القارئ. تتكون المدينة من قسمين متساويين تقريبًا يقعان على طرفي نهر

يعبرها. تحوي أكثر من ثمانين ألف منزل. طولها ثلاثة غلَنغْلَنغ (ما يعادل أربعًا وخمسين ميلًا إنكليزيًا)، وعرضها اثنان ونصف، وقد قستها بنفسي على الخريطة الملكية المصنوعة بأمر من الملك، بعد أن وضعت على الأرض من أجلي، على امتداد مئة قدم. قست القطر والمحيط بقدميّ عدة مرات حافيًا، واستنادًا إلى المقياس، استطعت حسابهما بدقة كافية.

لم يكن قصر الملك بناءً عاديًا، بل مجموعة من الأبنية محيطها سبعة أميال. ارتفاع حجراته الرئيسية مئتان وأربعون قدمًا وسطيًا، وطولها وعرضها متناسبان معه. خصصت عربة لي ولغلَمدالكلِتْش، وكانت مربيتها كثيرًا ما تأخذنا لرؤية المدينة أو التجول بين المتاجر، وكنت دومًا أذهب بصحبتهم محمولًا في صندوقي، لكن الفتاة كانت تخرجني عندما أرغب، وتحملني بيديها كي أتمكن من رؤية المنازل والناس بشكل أفضل بينما نعبر الشوارع. قدرت أن عربتنا تعادل بحجمها قاعة وِستمنستر، لكنها ليست بمثل ارتفاعها، لا يمكنني أن أكون دقيقًا تمامًا على أي حال. في أحد الأيام أمرت المربيةُ الحوذي أن يتوقف عند عدة متاجر، فتجمع المتسولون الذين كانوا ينتظرون فرصتهم على جانبي العربة، وشكلوا معًا أفظع مشهد رأته عينٌ أوروبية. كان من بينهم امرأة لها ورم على ثديها، متضخم إلى حجم مهول، ومليء بحفر يمكنني أن أزحف بسهولة داخل اثنتين أو ثلاثة منها حتى يختفي كل جسمي؛ ورجلٌ له دملة على رقبته أكبر من خمسة شوالات صوف، وآخر برجلين خشبيتين طول كل منها عشرون قدمًا. لكن الأفظع كان منظر القمل الذي يزحف على ثيابهم، وقد استطعت رؤية قوائم تلك الهوامّ بعيني المجردة، بشكل أوضح من رؤية القمل الأوروبي تحت مجهر. أما خراطيمها التي تحفر بها كالخنازير، كانت تلك أول مرة أراها، وكان عليّ أن أكون فضوليًا كفاية لتشريح أحدها لو توفرت لدي الأدوات المناسبة (فقد تركتها في السفينة لسوء الحظ)، ولو أن منظرها مقزز فعلًا، حتى أنه أثار غثياني.

بالإضافة إلى الصندوق الكبير الذي كنت أحمل به عادةً، أمرت الملكة بصنع واحد أصغر، مساحته اثنتا عشر قدمًا وارتفاعه عشرة أقدام، ليكون حمله سهلًا في السفر، لأن الآخر كان كبيرًا على حضن غلَمدالكلِتْش، ومزعجًا في العربة. صنعه الحرفي نفسه، وقد وجهته طوال صنعه. كانت حجرة السفر هذه مكعبًا له نافذة وسط ثلاثة من جدرانه، وكل نافذة مغطاة بشبك حديدي من الخارج لمنع الحوادث في الرحلات الطويلة. على الجدار الرابع الذي لا يحوي نافذة، ثبت مشبكين متينين من الخارج، يمرر عبرهما الشخص الذي يحملني حزامًا جلديًا ويربطه حول خصره حين أرغب بركوب حصان. كانت تلك وظيفة موكلة إلى خادم رصين أستطيع الثقة به عندما تكون غلَمدالكلِتْش مشغولة، سواء رغبتُ بمرافقة جلالة الملك والملكة في رحلاتهما، أو رؤية الحدائق، أو زيارة سيدة مرموقة أو وزيرًا في القصر. فقد أصبحت خلال وقت قصير معروفًا

ومحترمًا بين كبار الموظفين، وأظن أن ذلك بسبب حظوتي عند جلالتيهما، وليس عن جدارة من جانبي. عندما أتعب من العربة في الرحلات الطويلة، كان الخادم يربط صندوقي بخصره ويضعه على وسادة أمامه فوق ظهر الحصان، ومن هناك كنت أحظى بمنظر كامل للمدينة من خلال نوافذي في الجوانب الثلاثة. كان لديّ في تلك الحجرة سرير مزدوج، وأرجوحة شبكية معلقة إلى السقف، وكرسيان وطاولة مثبتة ببراغٍ إلى الأرض لتجنب وقوعها مع حركة الحصان أو اهتزاز العربة. لكن تلك الحركات لم تزعجني كثيرًا رغم شدتها، بسبب اعتيادي الطويل على الرحلات البحرية.

كلما رغبت برؤية المدينة كنت أذهب في حجرة السفر التي تحملها غلَمدالكلِتْش في حضنها، راكبةً ما يشبه المحفّة المفتوحة، على طريقة ذلك البلد، يحملها أربعة رجال، ويرافقها اثنان آخران من خدم الملكة. كان الناس الذين سمعوا بي يتلهفون للتجمع حول العربة، وكانت الفتاة مراعية كفاية لتطلب من الحمالين التوقف، ثم تحملني بيدها كي يروني بسهولة أكبر.

كنت متشوقًا لرؤية المعبد الكبير، بخاصة برجه الذي يعتبر الأطول في المملكة، فأخذتني إليه مربيتي، لكنني عدت خائب الأمل بعد أن وجدتُ ارتفاعه لا يتجاوز ثلاثة آلاف قدم من الأرض حتى أعلى نقطة منه. وبالأخذ بالحسبان الاختلاف بين حجم أولئك الناس وحجمنا في أوروبا، لم يكن البرج يستحق الدهشة، ولا يعادل على الإطلاق ارتفاع برج كنيسة ساليزبري ([44]) (إن لم تخني الذاكرة) ولئلا أنتقص من أمة أعترف أنني أدين بحياتي لها، يجدر القول إن ذلك البرج المشهور، بغض النظر عن ارتفاعه، مبني بشكل جميل ومتين. سماكة جدرانه مئة قدم تقريبًا، مبني من حجارة منحوتة مساحة كل منها أربعون قدمًا مربعًا، ومزين من كل الجوانب بتماثيل آلهة وملوك منحوتة من الرخام، حجمها أكبر من الحجم الحقيقي، موضوعة في كوى عديدة. قست خنصرًا مكسورًا من أحد تلك التماثيل كان مخفيًا بين بعض القاذورات، فوجدت طوله أربعة أقدام وإنشًا. لفته غلَمدالكلِتْش بمنديل، وحملته في جيبها كي تحتفظ به مع أغراض أخرى كانت مولعة بها، على عادة الأطفال في سنها.

كان مطبخ القصر مبنى مهيبًا حقًا، سقفه محدب، وارتفاعه ستمئة قدم. عرض الفرن الكبير لا يتجاوز عرض قبة سانت بول، فقد قستها خصيصًا بعد عودتي. لكنني لو وصفت الموقد، والقدور والأباريق الضخمة، وقطع اللحم التي تدور على الأسياخ، وتفاصيل أخرى كثيرة، قد لا يصدقني أحد، وقد يظن أحد النقاد أنني بالغت قليلًا، كما يتهم الرحالة غالبًا. في سبيل تجنب انتقاد كهذا أخشى أنني بالغت في فعل العكس، ولو ترجم الكتاب إلى لغة بروبدينغناغ (وهو اسم المملكة)، سيكون من حق الملك والسكان الشكوى من أنني أسأت إليهم بوصف خاطئ ومنقوص.

يندر أن يحتفظ جلالته بأكثر من ستمئة حصان في إسطبلاته، يتراوح طولها بين أربع وخمسين وستين قدمًا. لكنه عندما يسافر في الأعياد الرسمية ترافقه قوة حراسة مسلحة مكونة من خمسمئة فارس، وجدت منظرها أروع ما رأيت على الإطلاق، إلى أن شاهدتُ جزءًا من جيشه في تدريب عسكري، سأتحدث عنه في مناسبة أخرى.

الفصل الخامس

يخوض المؤلف عدة مغامرات. وصف إعدام مجرم.
يعرض المؤلف مهاراته في الملاحة.

كان بوسعي أن أعيش بسعادة في ذلك البلد لو لم تعرضني ضآلة حجمي لحوادث سخيفة ومزعجة، سوف أذكر بعضها. كانت غلَمدالكلِتْش تحملني أحيانًا إلى حدائق القصر في صندوقي الأصغر، فتخرجني منه وتحملني بيدها، أو تضعني أرضًا كي أمشي. أذكر أن القزم رافقنا في أحد الأيام إلى الحدائق، فوضعتني مربيتي أرضًا، وبينما كنا نقف متقاربين بجانب أشجار تفاح قزمة، رغبت بإظهار حس فكاهتي بصنع تشبيه سخيف بينه وبين الأشجار، موجود في لغتهم كما في لغتنا. مما جعل الوغد الشرير يتحين فرصته بينما كنت ماشيًا تحت إحداها ليهزها فوق رأسي مباشرة، فأسقط بضع تفاحات كل واحدة منها بحجم برميل، تدحرجت قرب أذنيّ، واصطدمت إحداها بظهري فأوقعتني على وجهي، لكنني لم أصب بأذى، وتم العفو عن القزم نزولًا عند طلبي، لأنني أعطيته سببًا لفعلته.

في يوم آخر، تركتني غلَمدالكلِتْش على بقعة عشب ناعم لأتسلى بينما تتمشى بعيدًا مع مربيتها. هطل في تلك الأثناء وابل من البرَد جعلني من قوته أسقط أرضًا، وأصابت حباته جسدي بضربات قوية كما لو رشقت بكرات تنس. حاولت أن أزحف على يدي وقدمي، وأحتمي بالتمدد على وجهي في الطرف المحمي من الرياح من نبتة زعتر ليمونيّ، لكنني امتلأت بالكدمات من رأسي حتى قدميّ، ولم أستطع الخروج لمدة عشرة أيام بعدها. لا عجب في ذلك، لأن الطبيعة في ذلك البلد تراعي تناسب الأحجام في كل شيء، فكانت حبة البرد أكبر بألف وثمانمئة مرة منها في أوروبا، ويمكنني أن أثبت ذلك، فقد زنتها وقستها بدافع الفضول.

لكنني تعرضت لحادث أكثر خطورة في الحديقة نفسها، عندما تركت مربيتي الصغيرة صندوقي في الغرفة لتتجنب عناء حمله، وظننت أنها قد وضعتني في مكان آمن من الحديقة -كنت أطلب منها ذلك أحيانًا كي أستمتع بأفكاري- ثم ذهبت إلى جانب آخر مع مربيتها وبعض النساء من معارفها. بينما كانت بعيدة ولا تستطيع سماعي، اقترب من المكان الذي كنت فيه كلبٌ أبيض يملكه أحد كبار البساتنة بعد أن دخل بالصدفة إلى الحديقة. اتجه الكلب نحوي مباشرة متتبعًا الرائحة، ثم أخذني بفمه وركض بي إلى سيده، ووضعني بلطف على الأرض وهو يهز ذيله. من حسن الحظ أنه كان مدربًا بشكل جيد، فحملني بين أسنانه دون أن يصيبني بأذى، أو حتى يمزق ثيابي. لكن البستانيّ المسكين الذي يعرفني جيدًا وكان طيبًا معي، أصيب بالفزع، فحملني بيديه بلطف

وسألني عن حالي. كنت مرعوبًا ومنقطع الأنفاس فلم أستطع أن أنطق بكلمة. بعد دقائق هدأ روعي فحملني سالمًا إلى مربيتي الصغيرة، التي عادت خلال ذلك الوقت إلى المكان الذي تركتني فيه، واشتد قلقها عندما لم أظهر أو أجب نداءها، وقد وبخت البستاني بشدة بسبب كلبه. لكن تم التكتم على الأمر ولم يعرف في القصر أبدًا، لأن الفتاة خافت من غضب الملكة. أما أنا، فلم أجد من اللائق بسمعتي أن تنتشر قصة كهذه.

جعل هذا الحادث غلَمدالكلِتْش لا تطمئن عليّ بعيدًا عن ناظريها. لطالما خفت من قرار كهذا، لذلك أخفيت عنها بضع حوادث حصلت في المرات التي بقيت فيها وحدي. إذ هبط صقر مرة باتجاهي بعد أن حوم فوق الحديقة، ولو لم أسحب سيفي وأهرب إلى أسفل عريشة كثيفة، لحملني بمخالبه لا محالة. مرة أخرى كنت أمشي نحو قمة تلة صنعها خلدٌ حديثًا، فوقعت على رقبتي في الحفرة التي أفرغ منها التراب، واخترعت كذبة لا تستحق التذكر كعذر لإفسادي ملابسي. كذلك كسرت ساقي اليمنى بسبب صدفة حلزون، تعثرت بها بينما كنت أمشي وحيدًا وأفكر بإنكلترا المسكينة.

عندما كنت أمشي بمفردي في تلك النزهات، لم أعرف أأفرح أم أخجل حين ألاحظ أن الطيور الصغيرة لم تبدُ خائفة مني على الإطلاق، بل كانت تثب حولي على بعد ياردة باحثة عن ديدان وأشياء تأكلها، بكثير من اللامبالاة والثقة، كأنما لا يوجد أي كائن بالقرب منها. أذكر أن طائرًا مغردًا تجرأ مرة على خطف قطعة حلوى من يدي، أعطتني إياها غلَمدالكلِتْش من أجل الإفطار. وعندما كنت أحاول الإمساك بأحد تلك الطيور، كان يهاجمني بشدة ويحاول نقر أصابعي، التي لم أجرؤ على وضعها في متناوله، ثم يثب عائدًا لصيد الديدان والحلزونات دون قلق، كما كان يفعل من قبل. لكنني أخذت يومًا عصا غليظة ورميتها بكل قوتي، فأصبت بها حسونًا بضربة حظ وأوقعته أرضًا. أمسكته من رقبته بيديّ، وركضت به منتصرًا إلى مربيتي. لكن الطائر الذي أصيب بصدمة فقط، استعاد وعيه، وصفعني مرارًا بجناحيه على جانبي رأسي وجسدي، رغم أنني حملته مادًا ذراعيّ، وكنت بعيدًا عن متناول مخالبه، حتى فكرت عشرين مرة بإطلاقه. إلا أن أحد الخدم هرع لإنقاذي، وانتزع رأس العصفور، فتناولته على العشاء في اليوم التالي بأمر من الملكة. وقد بدا الحسون، بحسب ما أذكر، أكبر من بجعة إنكليزية.

كانت الوصيفات تدعين غلَمدالكلِتْش إلى جناحهن كل حين، وتطلبن منها أن تصطحبني معها كي تحظين برؤيتي ولمسي. أحيانًا كنّ يعرينني تمامًا من رأسي حتى قدميّ ويمددنني في أحضانهن، وكنت أشمئز من ذلك بسبب رائحة كريهة تنبعث من جلودهن. لا أقول ذلك بقصد الانتقاص من تلك السيدات الرائعات، اللاتي أكنّ لهن كل احترام، لكنني أظن أن حاسة الشم لديّ كانت

أكثر حدة بالتناسب مع صغر حجمي، وأن تلك النساء المرموقات لسنَ كريهات الرائحة بالنسبة إلى أحبائهن أو إلى بعضهن البعض، أكثر من نساء المنزلة نفسها بالنسبة إلينا في إنكلترا. على أي حال، كنت أجد روائحهن الطبيعية محتملة أكثر منها عند استعمالهن العطور، التي أغمي عليّ بسببها مباشرة. لا أنسى حين صارحني صديق مقرب لي في ليليبوت ذات يوم دافئ بعد أن تمرنتُ وقتًا طويلًا، واشتكى من رائحة نفاذة تصدر مني؛ وأنا في ذلك الأمر لا أختلف عن معظم الرجال، لكنني أظن أن حاسة شمه كانت شديدة مقارنة بي، كما هي حاستي بالنسبة إلى هؤلاء الناس. وفي ذلك الأمر، لا يمكنني إلا أن أنصف جلالة الملكة ومربيتي غلَمدالكلِتْش، اللتين كانت رائحتهما طيبة بقدر أي سيدة في إنكلترا.

أكثر ما كان يزعجني من الوصيفات عندما تأخذني مربيتي لزيارتهن، هو رؤيتهن تعاملنني دون كُلفة، كأنني كائن ليس له أدنى أهمية. فقد كنّ يتعرّين تمامًا بحضوري، ويرتدين أثوابهن بعد أن أوضع على منضدة التزين مواجهًا تمامًا لأجسادهن العارية. كان ذلك المنظر أبعد ما يكون عن الجاذبية بالنسبة إلي، ولم يثر فيّ شعورًا غير الرعب والقرف. فقد بدت جلودهن شديدة الخشونة والتجعد، وشديدة تفاوت الألوان عندما أراهن عن قرب، مع شامة هنا وشامة هناك بحجم صينية، يبرز منها شعر كثيف مثل خيوط القنب؛ ولن أقول أكثر بخصوص بقية أجسادهن. لم يترددن أبدًا في طرح ما قد شربنه بوجودي، بكمية لا تقل عن برميلين، في وعاء يسع أكثر من اثني عشر برميلًا. كانت أجمل تلك الوصيفات، وهي فتاة لعوب في السادسة عشرة، تجلسني منفرج الساقين على حلمة ثديها، إلى جانب مداعبات أخرى كثيرة، سيعذرني القارئ لو تجنبت ذكر تفاصيلها. لكنني استأت بسببها بشدة، حتى توسلت إلى غلَمدالكلِتْش أن تختلق أي عذر لعدم رؤية تلك الشابة مجددًا.

أتى مرة شابٌ هو ابن أخ مربية غلَمدالكلِتْش، وأصر على أن تذهبا لرؤية تنفيذ حكم إعدام في رجل قتل أحد معارفه المقربين. اقتنعت مربيتي بمرافقتهما، رغم أن ذلك ضد ميولها، فقد كانت رقيقة القلب بطبيعتها. أما أنا، رغم كرهي لذلك النوع من المشاهد، فقد أغراني الفضول لرؤية شيء ظننته سيكون استثنائيًا. وضع المجرم على كرسي فوق منصة مجهزة لذلك الغرض، ثم قطع رأسه بضربة واحدة من سيف طوله أربعون قدمًا. انبجس الدم من الأوردة والشرايين في الهواء بكمية مهولة، لعلوّ فاق النافورة الكبرى في حدائق قصر فيرساي، وسقط الرأس على أرض المنصة ثم ارتد بعد ارتطامه بطريقة جعلتني أجفل، رغم أنني كنت على بعد ميل إنكليزي على الأقل.

كثيرًا ما سمعتني الملكة أتحدث عن رحلاتي البحرية، وكانت تستغل كل فرصة للترويح عني عندما أكون مغمومًا، فسألتني إن كنت أجيد استخدام الأشرعة

والمجاديف، وإن كان قليل من الإبحار مفيدًا لصحتي. أجبت بأنني أعرف كليهما بشكل جيد، لأنني رغم توظيفي في السفينة بوصفي طبيبًا أو جراحًا، كنت في وقت الضرورة مجبرًا على العمل مثل أي بحار. لكنني لم أعرف كيف يمكنني الإبحار في بلدهم، حيث يعادل أصغر قارب عندهم أضخم سفينة حربية لدينا، وأي قارب أستطيع قيادته لن يصمد في أي من أنهارهم. قالت جلالتها إنني إذا أردتُ بناء مركب يمكن لنجارها الخاص أن يصنعه، وسوف تؤمن لي مكانًا أبحر فيه. كان الرجل حرَفيًا بارعًا، أنهى خلال عشرة أيام ومتبعًا إرشاداتي قارب نزهات مع كامل معداته، قادرًا على حمل ثمانية أوروبيين بسهولة. عندما أصبح جاهزًا سرّت به الملكة كثيرًا، فركضت وهي تحمله إلى الملك، الذي أمر بوضعه في حوض مليء بالماء ثم وضعي فيه، على سبيل التجربة، لكنني لم أستطع تحريك مجدافيّ فيه لضيق المسافة. إلا أن الملكة دبرت من قبل شيئًا آخر، حيث أمرت النجار بصنع حوض خشبي طوله ثلاثمئة قدم، وعرضه خمسون، وعمقه ثمانية. طليَ بالقطران لمنع التسريب، ووضع على الأرض بجانب الجدار في إحدى الغرف الخارجية في القصر. كان له صنبور في القسم الأسفل لتصريف المياه عندما تصبح راكدة، ويستطيع خادمان ملأه بسهولة خلال نصف ساعة. صرت أجدف فيه على سبيل التسلية، وللترفيه عن الملكة وسيداتها اللواتي كنّ يستمتعن برؤية مهارتي وسرعتي. أحيانًا كنت أنصب الشراع، ثم أكتفي بتدوير الدفة بينما تصنع لي السيدات رياحًا بمراوحهن. وعندما يتعبن كان بعض الخدم ينفخون على شراعي بأنفاسهم، بينما أظهر مهارتي بالقيادة يمينًا ويسارًا كما أريد. عندما أفرغ كانت غلَمدالكلِتْش تعيد قاربي إلى غرفتها وتعلقه على مسمار ليجف.

تعرضت مرة أثناء ذلك لحادث كاد يودي بحياتي، حين وضع أحد الخدم قاربي في الحوض، وحملتني مربيةُ غلَمدالكلِتْش إليه بحرص، لكنني انزلقت من بين أصابعها، وكدت أسقط من ارتفاع أربعين قدم إلى الأرض، لو لم يوقفني دبوس ضخم عالق بصدر فستانها. من حسن حظي أن رأس الدبوس دخل بين قميصي وحزام بنطالي، فظللت معلقًا في الهواء من وسطي حتى أتت غلَمدالكلِتْش لإنقاذي.

في وقت آخر كان أحد الخدم المسؤولين عن ملء حوضي كل ثلاثة أيام، مستهترًا لدرجة أنه ترك ضفدعًا ضخمًا يتسلل من دلوه (دون أن ينتبه) ظل الضفدع مختبئًا إلى أن وضعت في قاربي، لكنه عندما رأى مكانًا مناسبًا للراحة تسلق إلى القارب فأماله بشدة إلى أحد الجانبين، مما اضطررني إلى موازنته بكل ثقلي من الجانب الآخر لتجنب انقلابه. عندما أصبح الضفدع على متن القارب صار يثب في كل مرة مسافة نصف القارب، ثم يقفز من فوق رأسي جيئة وذهابًا، ملطخًا وجهي وثيابي بمخاطه المقزز. جعلته ضخامة ملامحه يبدو أقبح حيوان يمكن تصوره، لكنني طلبت من غلَمدالكلِتْش أن تدعني أتعامل

معه وحدي، وظللت أضربه بأحد مجدافيّ حتى أجبرته على القفز خارج القارب.

أكبر خطر واجهته في تلك المملكة كان بسبب قرد يملكه أحد العاملين في المطبخ. كانت غلَمدالكلِتْش قد أقفلت عليّ في غرفتها بينما تذهب لشأن أو زيارة ما، وتركت نافذة الغرفة مفتوحة بسبب حرارة الطقس، وكذلك باب ونوافذ صندوقي الكبير، حيث كنت أسكن غالبًا بسبب سعته وراحته. بينما كنت جالسًا إلى طاولتي أتأمل بهدوء، سمعت شيئًا يقفز من نافذة الغرفة إلى الداخل ويثب من جانب إلى آخر. بالرغم من خوفي تجرأت على النظر إلى الخارج دون أن أتحرك من مكاني، فرأيت ذلك الحيوان العابث يثب ويقفز، إلى أن اقترب أخيرًا من صندوقي، وبدا كأنه ينظر إليه بكثير من الفضول والمتعة، متلصصًا عبر الباب والنوافذ. تراجعتُ إلى الزاوية الأبعد من غرفتي، أو صندوقي، لكن القرد حين نظر من كل جانب أرعبني لدرجة أن بديهتي لم تسعفني بالاختباء تحت السرير، كما كان يمكنني أن أفعل بسهولة. ظل بعض الوقت يتلصص ويكشّر ويهذر، حتى لمحني أخيرًا، وأخذ يمد يده من الباب كما تفعل القطة حين تلعب مع فأر، ورغم أنني غيرت مكاني لأتجنبه، استطاع أخيرًا أن يمسك بطيّة معطفي (التي كانت سميكة ومتينة لأنها مصنوعة من حرير ذلك البلد) ثم سحبني خارجًا. أخذني بيده اليمنى وحملني كما تحمل طفلًا تريد إرضاعه، تمامًا كما رأيت النوع نفسه من الكائنات يفعل مع قطيطة في أوروبا. عندما بدأت أقاوم، عصرني بعنف حتى رأيت الاستسلام أكثر حكمة. أظن أنه حسبني أحد صغار بني جنسه، لأنه أخذ يمسد وجهي برقّة بيده الأخرى، وبينما هو كذلك قاطعه صوت عند باب الغرفة، وكأن أحدًا يفتحه. عندئذ وثب إلى النافذة التي دخل منها، ثم قفز فوق القنوات والمزاريب على ثلاثة أرجل، وهو يمسكني بالرابعة، حتى تسلق إلى سطح مجاور لسطحنا. سمعتُ غلَمدالكلِتْش تصرخ عندما حملني خارجًا. ذهلت المسكينة، وعمّ الاضطراب في القصر كله؛ ركض الخدم لإحضار سلالم، وشاهد مئة من أهل القصر القردَ جالسًا على حافة السطح، يحملني كطفل رضيع بإحدى يديه ويحشو بالأخرى فمي بطعام يغرفه من كيس في أحد خديه، ويربت علي عندما لا آكل. لم يقاوم الناس في الأسفل الضحك على ذلك، ولا ألومهم، فقد كان المنظر مضحكًا بلا شك لأي أحد ما عداي. رمى بعضهم حجارة لاقتياد القرد إلى الأسفل، ثم منع ذلك بحزم، ولو لم يمنع لقتلت.

نُصبت السلالم وتسلقها عدة رجال. عندما رأى القرد ذلك، ووجد نفسه محاصرًا وغير قادر على الإسراع كفاية بالمشي على ثلاثة أرجل، تركني أسقط على حافة قرميد وهرب. جلستُ هناك بعض الوقت على ارتفاع خمسمئة ياردة عن الأرض، أتوقع كل ثانية أن توقعني الريح أو أسقط بسبب الدوار، فأتدحرج مرارًا من الحافة حتى الإفريز. حتى تسلق شاب طيب من خدم مربيتي

ووضعني في جيب بنطاله ثم أوصلني إلى الأسفل سالمًا. كدت أختنق من القذارة التي حشرها القرد في حلقي، لكن مربيتي الصغيرة العزيزة أزالتها من فمي بإبرة صغيرة، ثم أخذت أتقيأ، فشعرت براحة كبيرة. كنت واهنًا ومتكدمًا من جانبيّ بسبب ضغط ذلك الحيوان الكريه عليّ، فاضطررت إلى ملازمة سريري أسبوعين. كان الملك والملكة وكل من في القصر يرسل للاطمئنان على صحتي كل يوم، وزارتني جلالة الملكة عدة مرات خلال مرضي. أما القرد فقد قُتل، وصدر أمر بمنع اقتراب أي قرد من القصر.

عندما زرت الملك بعد تحسني كي أشكره على أفضاله، سخر مني بسبب تلك الحادثة، وسألني عن أفكاري وتأملاتي بينما كنت بين أصابع القرد، وإن أعجبني الطعام الذي قدمه إليّ، أو طريقة إطعامه، وإن كان الهواء النقي فوق السطح قد حسن من شهيتي. ثم أراد أن يعرف ما كنت سأفعل في مناسبة مماثلة في بلدي نفسه، فأخبرت جلالته ألا وجود للقرود في أوروبا، إلا تلك التي نحضرها من أماكن أخرى للفرجة، وهي صغيرة أستطيع أن أتعامل مع عشرة منها في الوقت ذاته إن حاولت الهجوم عليّ. أما عن ذلك الحيوان المتوحش الذي تورطت معه مؤخرًا (وقد كان بحجم فيل)، لو أنني في خضم خوفي فكرت باستخدام سيفي على الأقل عندما مد يده داخل غرفتي (وكنت أنظر بشراسة، وصفقت المقبض بيدي وأنا أتكلم)، لجرحته جرحًا يجعله يفضل سحب يده بسرعة أكبر من التي أدخلها بها. قلت ذلك بنبرة صارمة، كشخص غيور يخشى أن يشك بشجاعته. لكن حديثي على أي حال لم يثر إلا ضحكًا عاليًا، لم ينجح احترام الجالسين للملك في كتمانه. جعلني ذلك أفكر بعبثية محاولة الإنسان أن يكسب الاحترام بين أولئك الذين هم خارج نطاق المساواة أو المقارنة معه. مع ذلك، رأيت تصرفي نفسه يتكرر في إنكلترا منذ عودتي، حين يتجرأ غلام وضيع ليس له أي ميزة من نسب أو شخصية أو فطنة أو ذكاء، على أن يدعي الأهمية، ويضع نفسه بمساواة أعظم الأشخاص في المملكة.

كنت كل يوم أشغل القصر بقصة مضحكة، ورغم ولع غلَمدالكلِتْش بي، إلا أنها كانت ماكرة كفاية لتخبر الملكة عن أي حماقة أرتكبها تظنها ستكون مسلية لجلالتها. كما حدث عندما شعرتْ مرةً ببعض التوعك، وأخذتها المربية لاستنشاق الهواء على بعد ساعة، أو ثلاثين ميلًا من المدينة. نزلنا من العربة قرب ممر صغير في حقل، وأنزلت غلَمدالكلِتْش صندوق سفري فخرجتُ لأتمشى. وجدت يومها روث بقر في طريقي، فشعرت بضرورة اختبار قدرتي على القفز من فوقه، وركضت، لكن قفزتي كانت قصيرة فوجدت نفسي في وسطه مغمورًا حتى ركبتي. خضت عبره بصعوبة، ونظفني أحد الخدم بمنديله بقدر ما أمكن بعد أن تمرغت بالروث، ثم وضعتني ممرضتي في صندوقي حتى عدنا. سرعان ما علمت الملكة بما حدث، ونشر الخادم القصة في القصر، فكان الضحك على حسابي أيامًا عدة.

الفصل السادس

بعض أساليب المؤلف في إمتاع الملك والملكة. يظهر مهارته في الموسيقا. يسأله الملك عن وضع أوروبا فيصفه. ملاحظات الملك في ذلك الشأن.

كنت أحضر مجالس الملك الصباحية مرة أو اثنتين في الأسبوع، وكثيرًا ما رأيته بين يدي الحلاق، فقد كان يحلق مرتين أسبوعيًا، على عادة ذلك البلد. وجدت ذلك منظرًا مخيفًا في البداية، لأن الموس أطول بمرتين من منجل عادي. طلبت في إحدى المرات من الحلاق أن يعطيني قليلًا من الرغوة، فأخرجت منها أربعين أو خمسين من أقسى الشعيرات، ثم أخذت قطعة من خشب ناعم وقطعتها لتصبح مثل ظهر مشط، وصنعت فيها ثقوبًا عديدة على مسافات متساوية بأدق إبرة استطعت الحصول عليها من غلَمدالكلِتْش. ثبتتُ الشعيرات بمهارة داخل الثقوب، مستخدمًا سكيني لتدويرها وإمالتها، فصنعت مشطًا متقنًا جاء بديلًا في الوقت المناسب عن مشطي، الذي تكسرت أسنانه حتى أصبح بلا فائدة. ولم أعرف أي حرفي في تلك البلاد يملك من المهارة والدقة ما يمكنه من صنع واحد آخر لي.

جعلني ذلك أفكر بتسليةٍ قضيت بها كثيرًا من ساعات فراغي. طلبت من وصيفة الملكة أن تحتفظ لي بشعر من مشط جلالتها، فجمعت منه كمية كافية مع الوقت، وبعد مشاورة صديقي صانع الخزانات، الذي تلقى أوامر بتنفيذ خدمات صغيرة من أجلي، طلبت منه أن يصنع هيكلي كرسيين بحجم الكرسيين الذين في صندوقي، وأن يصنع ثقوبًا صغيرة بمخرز دقيق حول تلك الأجزاء التي تشكل الظهر والمقعد. خلال تلك الثقوب حبكت أقوى الشعيرات التي جمعتها على طريقة كراسي القش في إنكلترا. عندما أنهيتهما قدمتهما هدية إلى جلالتها، فاحتفظت بهما في غرفتها، وصارت تعرضهما كتحفتين، تثيران دهشة كل من رآهما. أرادتني الملكة أن أجلس على أحدهما، لكنني رفضت أن أطيعها رفضًا قاطعًا، وقلت إنني أفضل الموت ألف ميتة على أن أضع جزءًا معيبًا من جسدي على تلك الشعيرات الثمينة التي كانت فيما سبق تزين رأس جلالتها. صنعت من تلك الشعيرات أيضًا محفظة صغيرة أنيقة طولها خمسة أقدام واسم جلالتها مرسوم عليها بحروف ذهبية (فقد كانت لدي دومًا مهارة حرفية) أعطيتها لغلَمدالكلِتْش بموافقة الملكة، ولأقول الحق كانت ملائمة للزينة أكثر من الاستخدام، لأنها لم تكن متينة كفاية لتحمل ثقل النقود، فلم تحتفظ بشيء داخلها إلا بعض الدمى الصغيرة التي تحبها الفتيات.

كان الملك محبًا للموسيقا، يقيم في القصر حفلات موسيقية باستمرار، وكنت أؤخذ إليها أحيانًا، فأوضع في صندوقي على طاولة لأستمع إليها. لكن شدة

الضجيج جعلتني بالكاد أميز النغمات، وأنا على ثقة أن كل طبول وأبواق الجيش الملكي وهي تُضرب وتُنفخ معًا بقرب أذنيك لا تعدل ذلك الضجيج. لذلك صارت عادتي أن أجعلهم يبعدون صندوقي قدر الإمكان عن مكان جلوس العازفين، ثم أغلق الباب والنوافذ وأرخي الستائر، عندها كنت أجد موسيقاهم غير مزعجة.

لقد تعلمت في صغري أن أعزف قليلًا على البيانو الصغير. كان لدى غلَمدالكلِتْش واحد في حجرتها، ويأتي معلم مرتين أسبوعيًا لتعليمها العزف. أدعوه بيانو لأنه يشبه تلك الآلة نوعًا ما، ويعزف بالطريقة نفسها. خطر لي مرة أن أسلي الملك والملكة بعزف لحن إنكليزي عليه، لكن ذلك بدا في غاية الصعوبة، لأن طول البيانو حوالي ستين قدمًا، وعرض كل مفتاح قدم تقريبًا، بالتالي لم أستطع الوصول إلى أكثر من خمسة مفاتيح بعد أن أفتح ذراعيّ على وسعهما. ولكي أضغطها كنت بحاجة إلى توجيه ضربة عنيفة بقبضتي، وسيكون ذلك مشقة بالغة دون فائدة. كانت الطريقة التي اتبعتها كالتالي؛ حضرت عصوَين بحجم هراوة عادية، أحد طرفيهما أثخن من الآخر، وغطيت الطرف الأثخن بقطعة من جلد فأر كي أطرق بها أسطح المفاتيح دون أن تتضرر، ودون أن ينقطع الصوت. وُضع أمام البيانو مقعدٌ أقصر من مستوى المفاتيح بأربعة أقدام، ثم وضِعتُ على المقعد، وصرت أنزلق عليه بسرعة جيئة وذهابًا وأنا أضرب المفاتيح اللازمة بعصوَيّ، فنجحت بصعوبة في عزف موسيقا رقصةٍ سريعة، أمتعت جلالتي الملك والملكة. كان ذلك أكثر نشاط مجهد اختبرته على الإطلاق، مع ذلك لم أستطع أن أضرب أكثر من ستة عشر مفتاحًا، ولا أن أعزف القرار والجواب متتاليين كما يفعل العازفون الآخرون، فشكل ذلك عيبًا كبيرًا في أدائي.

كان الملك -كما أسلفت- رجلًا ذا عقل راجح، وكثيرًا ما كان يأمر بإحضاري في صندوقي ووضعي على طاولة في غرفته، ثم يأمرني بإخراج أحد كرسيي، والجلوس على مسافة ثلاثة ياردات منه فوق سقف الصندوق، مما يجعلني على مستوى وجهه تقريبًا. بتلك الطريقة خضت معه في عدد من الأحاديث، وتجرأت مرة على أن أقول لجلالته إن الازدراء الذي أظهره تجاه أوروبا وبقية العالم لا يبدو متناسبًا مع رجاحة عقله، وأضفتُ أن العقل لا يتعلق بحجم الجسد، بل على العكس، لاحظنا في بلدنا أن أطول الناس هم أكثر المحرومين منه؛ ومن بين الحيوانات الأخرى يشتهر النمل والنحل بالاجتهاد والمهارة والذكاء أكثر من الأنواع الأكبر حجمًا؛ ومهما كان يعدني تافهًا، فأنا أرجو أن أعيش لأقدم لجلالته أي خدمة تذكر. أنصت الملك بانتباه، وبدأ يكون عني فكرة أفضل من أي وقت مضى، وطلب أن أصف له حكومة إنكلترا بأكبر تفصيل ممكن، لأن الملوك مهما كانوا معجبين بأساليبهم عادةً (هذا ما خمنه عن الملوك الآخرين من خلال أحاديثي السابقة)، عليهم أن يهتموا بمعرفة أي شيء قد يستحق التقليد.

تخيل في نفسك، أيها القارئ المحترم، كم تمنيت أن يكون لي في ذلك الوقت لسانُ ديموستيني أو شيشرون، ليمكّنني من الإشادة بمجد بلدي العزيز كما يليق بفضائله وعزه.

بدأت حديثي بأن بلدنا تتكون من جزيرتين تؤلفان ثلاث ممالك قوية تحت حكم واحد، بالإضافة إلى مستعمراتنا في أميركا. أسهبت في الحديث عن خصوبة تربتنا وحرارة مناخنا. ثم تحدثت بالتفصيل عن البرلمان الإنكليزي، الذي تشكل هيئة مرموقة تدعى مجلس اللوردات قسمًا منه، وهم أشخاص من أنبل دم وأعرق وأغزر ميراث. وصفت له الاهتمام الاستثنائي الذي يولى إلى تعليمهم في مجال العلوم والحروب، مما يؤهلهم ليكونوا مستشارين بالوراثة للملك والمملكة، ويشاركوا في التشريع، ويكونوا أعضاءً في المحكمة القضائية العليا التي تصدر أحكامًا قطعية لا يمكن استئنافها، وأبطالًا مستعدين للدفاع عن ملكهم وبلادهم، بشجاعتهم وسلوكهم وإخلاصهم. قلت إن أولئك هم زينة المملكة وحصنها الحصين؛ تابعون فاضلون لأجدادهم الأفاضل، شرفهم هو ثمرة فضيلتهم، التي لم يسمع يومًا أن ذريتهم انحرفت عنها. يشارك هؤلاءَ في عضوية ذلك المجلس عددٌ من رجال الدين الملقبين بالأساقفة، وظيفتهم الحرص على الدين وأولئك الذين يرشدون الناس في شؤونه. يختارهم الملك وأكثر مستشاريه حكمة، بعد أن يبحثوا عنهم في البلاد من بين رجال الدين الذين يتميزون بطهارة حياتهم وسعة علمهم، الذين هم بحق الآباء الروحيون لرجال الدين وللناس.

أضفت أن القسم الآخر من البرلمان مكون من مجلس يدعى مجلس العموم، مؤلف من أسمى الرجال، المنتقين بحرية من قبل الشعب نفسه لكفاءاتهم وحبهم لبلادهم، ممثلين عن حكمة الأمة كاملة. ويكوّن هذان المجلسان البرلمانَ الأكثر مهابة في أوروبا، الذي تحتكم إليه السلطة التشريعية، فضلًا عن الملك.

ثم انتقلتُ إلى المحاكم العدلية التي يترأسها القضاة، وهم الحكام الموقرون، الممثلون عن القانون للفصل في الحقوق والملكيات المتنازع عليها بين الناس، بالإضافة إلى معاقبة المجرم وحماية البريء. ذكرتُ الإدارة الحصيفة لخزينتنا، وشجاعة وإنجازات قواتنا في البر والبحر. حسبت عدد سكاننا بذكر عدد الملايين من أتباع كل طائفة دينية أو حزب سياسي. لم أهمل حتى ذكر رياضاتنا وألعابنا أو أي تفصيل آخر رأيته قد يمس سمعة بلدي. وختمت كل ذلك بموجز تاريخي عن الأحداث في إنكلترا منذ مئة عام حتى الآن. لم ينته ذلك الحديث في أقل من خمسة لقاءات دام كل منها عدة ساعات، وقد أنصت الملك لكل ذلك بانتباه شديد، مسجلًا ملاحظات كثيرة مما أقول، بالإضافة إلى قائمة بالأسئلة التي يريد طرحها عليّ.

عندما انتهت تلك الأحاديث الطويلة راجع الملك ملاحظاته في لقاء سادس، طارحًا عدة شكوك وتساؤلات واعترافات عن كل موضوع. سأل عن أسلوب تنمية عقول وأجساد أبناء النبلاء، وعما يشغلون به القسم الأول الملائم للتعليم في حياتهم، وعن الطريقة المتبعة لتعويض تلك الجماعة عند انقراض عائلة نبيلة، والمؤهلات المطلوبة في أولئك الذين سيصبحون اللوردات الجدد. وما إذا كان مزاج الملك، أو مبلغ من المال لسيدة في القصر أو إلى الوزير الأول، أو خطة لتقوية الحزب بما يتعارض مع المصلحة العامة، يلعب دورًا في تلك الترقيات. سأل عن حجم المعرفة التي يملكها أولئك اللوردات في قوانين بلدهم، وكيف حصلوا عليها حتى يتمكنوا من تقرير حقوق إخوتهم من الرعية في آخر المطاف؛ وعما إذا كانوا دائمًا خالين من الطمع أو التعصب أو الفاقة، بحيث قد تجد الرشوة أو شيء مشين آخر طريقًا إليهم؛ وما إذا كان رجال الدين الذين ذكرتهم يرقون إلى تلك المكانة على أساس علمهم بأمور الدين وطهر حياتهم، ما إذا كانوا منافقين في الوقت الذي كانوا فيه رجال دين، أو متزلفين لنبيلٍ ما، يستمرون باتباع آرائه بخضوع بعد ضمهم إلى ذلك المجلس.

ثم رغب بمعرفة الطرق المتبعة في اختيار أولئك الذين أدعوهم العموم، وما إذا كان أي غريب صاحب جيب مليء قد يؤثر على المصوتين من العامة لاختياره عوضًا عن مالك أراضيهم أو أبرز الرجال في الحي. وكيف يمكن أن يحرص الناس على الانضمام لذلك المجلس، وقد قلتُ إنه شيء صعب ومكلف، مما يؤدي إلى إفلاس عائلاتهم دون أي راتب أو تعويض. لأن ذلك بدا على درجة كبيرة من الفضيلة وحب المصلحة العامة مما جعل جلالته يشك أنها قد لا تكون صادقة دومًا. ورغب أن يعرف إن كان أي من هؤلاء السادة الغيورين يهدفون لإعادة تمويل أنفسهم بعد النفقات والجهد الذي تكبدوه، عن طريق التضحية بالمصلحة العامة في سبيل خطط ملك ضعيف وشرير، أو وزارة فاسدة. لقد ضاعف أسئلته، واستجوبني بدقة عن كل تفصيل في ذهنه، مقدمًا أسئلة واعتراضات لا تنتهي، لا أظن من الصائب أو الملائم تكرارها.

بخصوص ما قلته عن محاكمنا، طلب جلالته أن أجيبه على عدة نقاط، وكنت قادرًا على ذلك بسهولة، بعد أن كدت أفلس بسبب قضية استغرقت زمنًا طويلًا في المحكمة العليا، حكمت لصالحي أخيرًا مع تعويض النفقات. سأل عن الوقت الذي يستغرقه التمييز بين الصواب والخطأ، وبأي ثمن؛ ما إذا كان للمحامين والخطباء حرية الدفاع في قضية يعرفون أنها ظالمة أو مؤذية أو قمعية؛ ما إذا كان للانقسامات الدينية أو الحزبية أي وزن في ميزان العدالة؛ ما إذا كان أولئك المحامون أشخاصًا تعلموا مبادئ العدالة بالمطلق، أو فقط في ما يخص العادات المحلية أو المدنية أو الدولية؛ وما إذا كان لهم أو للقضاة، دورٌ في صياغة تلك القوانين التي يسمحون لأنفسهم بتفسيرها وتمويهها كما يحلو لهم؛ ما إذا كانوا يتقدمون للدفاع عن وضدّ القضية نفسها في أوقات مختلفة، أو

يستشهدون بسوابق قضائية لإثبات آراء متناقضة؛ ما إذا كان رجال القانون مؤسسة غنية أو فقيرة؛ ما إذا كانوا يأخذون أي مكافأة مالية مقابل الترافع أو تقديم رأي قانوني. وبشكل خاص، ما إذا كانوا يقبلون أعضاءً في مجلس العموم.

تناول تاليًا إدارة الخزينة، وقال إنه يظن أن ذاكرتي قد خانتني، لأنني حسبت ضرائبنا على أنها خمسة أو ستة ملايين في السنة، وعندما أتيت على ذكر النفقات وجد أنها تزيد على الضعف، فالملاحظات التي سجلها كانت دقيقة في ذلك الشأن. وأخبرني أنه يأمل أن تفيده معرفته بطريقتنا، وأنه لا يمكن أن يخطئ في حساباته، لكن إذا كان ما قلتُه صحيحًا، ما زال في حيرة كيف لمملكة أن تنفد أموالها مثل شخص عادي. سألني من هم دائنونا؟ ومن أين نجد نقودًا لندفع لهم؟ تعجب لسماعي أتكلم عن حروب مكلفة وواسعة، أننا لا بد أن نكون أشخاصًا نحب النزاعات، أو أننا نعيش بين جيران سيئين. أن قادة الجيش لا بد أن يكونوا أغنى من الملوك. سألني ما شأننا بما هو خارج جزرنا، إلا فيما يتعلق بالتجارة والاتفاقيات، أو الدفاع عن شواطئنا بأسطولنا، وفوق كل شيء دهش لحديثي عن جيش المرتزقة في أوقات السلم وبين ناس أحرار. قال إن كان يحكمنا بموافقتنا أشخاص يمثلوننا، فلا يستطيع أن يتخيل ممن قد نكون خائفين أو من سنقاتل. وسألني عن رأيي فيما إذا كان من الأفضل لشخص عادي أن يدافع عن بيته بنفسه مع أولاده وعائلته، أو يوكل ذلك لبعض الأوغاد المنتقين عشوائيًا من الشوارع، مقابل أجور ضئيلة قد يكسبون أكثر منها من جز رقابهم.

لقد ضحك على طريقتي الغريبة في الحساب (على حد تعبيره) لاستنتاج أعداد السكان بحساب مستند إلى الطوائف والأحزاب العديدة في الدين والسياسة. قال إنه لا يرى المنطق في إجبارٍ من يحمل آراء متعصبة ضد المجتمع على تغييرها، أو في عدم إجباره على إخفائها، فكما أن هناك طغيانًا في فرض الحكومة للأول، كذلك من الضعف عدم فرض الثاني، إذ يجب أن يسمح للإنسان بالاحتفاظ بالسموم في خزانته، لكن دون أن يبيعها على أنها خمور.

لقد لاحظ أنني ذكرت القمار من بين ملاهي طبقتنا النبيلة، فرغب أن يعرف في أي سن يبدؤون ممارسة تلك اللعبة، وفي أي سن يتخلون عنها، وكم تستهلك من وقتهم، وما إذا كانت تصل إلى مرحلة التأثير على ثرواتهم. ما إذا كان من الممكن لأشخاص وضيعين جشعين أن يجمعوا ثروة كبيرة بمهاراتهم في تلك اللعبة، مما يضع النبلاء أنفسهم في ضائقة، فيعتادون رفقة السوء، ويبعدهم ذلك عن الارتقاء بعقولهم، فتجبرهم الخسارة التي اختبروها على أن يمارسوا المهارة الشائنة نفسها على الآخرين.

لقد دهش تمامًا من الوصف التاريخي الذي سردته عن أحداث القرن الأخير، قائلًا إنه ليس سوى كومة من مؤامرات وانقلابات وجرائم ومجازر وثورات ونفي، من أسوأ ما قد يسببه الظلم والانقسام والنفاق والخيانة والقسوة والغضب والجنون والكره والحسد والرغبة والشر والجشع.

اجتهد الملك في لقاء آخر في تلخيص كل ما قد قلته، وقارن بين الأسئلة التي طرحها والإجابات التي قدمتُها، ثم أخذني بيديه، وربت عليّ بلطف، ثم قال هذه الكلمات التي لن أنساها ما حييت، أو أنسى الأسلوب الذي قالها به؛ «صديقي الصغير غريلدرِغ، لقد مدحت بلدك مديحًا مبهرًا، وأثبتَ أن الجهل والبطالة والرذيلة هي المكونات المناسبة لتأهيل مشرّع، أن أفضل من يسن القوانين ويفسرها ويطبقها هم الذين تكمن مصالحهم في إفسادها وتمويهها وتضليلها. أرى فيكم ملامح نظام ربما كان مقبولًا بشكله الأصلي، لكن نصفه مُحي وما تبقى شوه وطمس تمامًا بالفساد. ولا يبدو مما قلته أن أي كمالٍ مطلوبٌ لتحصيل أي مكانة بينكم، فلا يصبح الرجال نبلاء بموجب فضيلتهم، أو يرقّى القساوسة على أساس صلاحهم أو علمهم، أو الجنود لسلوكهم وشجاعتهم، أو القضاة لنزاهتهم، أو عضو مجلس الشيوخ لحبه لبلاده، أو المستشارون لحكمتهم. أما بالنسبة إليك (أردف الملك)، فقد أمضيتَ الجزء الأكبر من حياتك في السفر، لذلك أرجو أنك نجوت حتى الآن من كثير من عيوب أهل بلدك. لكنني مما استشفيت من حديثك نفسه، والإجابات التي انتزعتها منك بصعوبة، لا يمكنني إلا أن أستنتج أن الأعم الغالب من أبناء بلدك هم أكثر عرق كريهٍ من الهوام الصغيرة المقززة التي سمحت لها الطبيعة يومًا بالزحف على سطح الأرض».

الفصل السابع

حب المؤلف لبلده. يقدم عرضًا مفيدًا للملك لكنه يقابل بالرفض. مقدار جهل الملك بالسياسة. نقص ومحدودية العلم في ذلك البلد. قوانينهم والشؤون العسكرية والأحزاب في الحكومة.

لم يكن ليوقفني عن إخفاء ذلك الجزء من قصتي سوى حب عظيم للحقيقة. كان من غير المجدي التعبير عن استيائي، لأنه يحول إلى سخرية دومًا، فاضطررت إلى البقاء صابرًا بينما يتعرض بلدي العظيم والحبيب للإهانة. يؤسفني أن شيئًا كهذا قد حصل، كما قد يشعر أي من قرائي. لكن الملك كان شديدَ الفضولِ وكثيرَ السؤالِ عن كل تفصيل، ولم يكن من المتناسب مع أصول العرفان بالجميل أو الأخلاق الحميدة أن أرفض إجابته بقدر ما أستطيع. مع ذلك ربما يمكنني أن أدافع عن نفسي، بأنني قد تملصت بمهارة من عدد من أسئلته، وأعطيت كل شيء منحىً أفضل بعدة درجات مما قد تسمح به صرامة الحقيقة. كنت أحمل لبلدي دائمًا ذلك الولاء المحمود، الذي ينصح به ديونيسيوس هاليكارناسوس ([45]) كلَّ مؤرخ. فأخفيت عيوب ومواطن ضعف أمتي، ووضعت فضائلها وجمالها في دائرة الضوء. ذلك كان مسعاي في الأحاديث الكثيرة التي أجريتها مع الملك، رغم أنه للأسف لم يكلل بالنجاح.

لكن لا بد من التجاوز عن ملك يعيش معزولًا تمامًا عن العالم، ويجهل العادات والأساليب السائدة في الشعوب الأخرى. نقص المعرفة هذا يصنع تحيزات كثيرة وضيقًا في الأفق، نحن والبلدان الأكثر تقدمًا في أوروبا مُعفون منها. ومن الصعب طبعًا، أن تقدم أفكار ملك بعيد حول الفضيلة والرذيلة نموذجًا للبشرية جمعاء.

لإثبات ما قلته للتو، ولإظهار مساوئ التعليم المحدود، سأدرج هنا مقطعًا سيكون من الصعب تصديقه. على أمل التودد إلى الملك والاستزادة من حظوته، أخبرته عن اختراعٍ ظهر قبل ثلاثمئة إلى أربعمئة سنة، عبارة عن مسحوق، إذا وقعت شرارة واحدة على كومة منه تكون كفيلة بإشعالها كلها في لحظة ولو كانت كبيرة مثل جبل، فتجعله يطير في الهواء دفعة واحدة بجلجلة كالرعد؛ أن كمية مناسبة من ذلك المسحوق إن حشرت داخل أنبوب مجوف من النحاس أو الحديد، وبحسب حجمه، يمكنها أن تطلق كرة من حديد أو رصاص بقوة وعنف شديدين، لا شيء يستطيع احتمالهما؛ أن أكبر الكرات التي تطلق بهذه الطريقة لا تستطيع فقط تدمير صفوف كاملة من الجيش دفعة واحدة، بل تسوي أمتن الجدران بالأرض، وتغرق سفنًا تحمل ألف رجل إلى قاع البحر، وعندما تربط كرتان معًا بسلسلة تخترق صواري وحبالًا وأشرعة، وتقطع مئات الأجسام قسمين مخلفة حطامها في المكان؛ أننا نضع أحيانًا ذلك

المسحوق في كرات حديدية كبيرة مجوفة، ونطلقها بآلة على مدينة نحاصرها، فتشقّ الأرض وتحيل البيوت إلى ركام، وتفجر وترمي الشظايا في كل مكان، وتقتل كل من يكون بقربها؛ أنني أعرف المكونات وطريقة تركيبها، وهي رخيصة ومتوفرة، وأستطيع أن أرشد حرفييه لصنع مثل تلك الأنابيب بحجم يتناسب مع كل شيء في مملكة جلالته؛ أن طول أكبرها لن يتجاوز مئتي قدم، وأن عشرين أو ثلاثين أنبوبًا ملقمًا بكمية مناسبة من المسحوق والكرات، يمكن أن يدمر أسوار أقوى مدينة في المملكة خلال بضع ساعات، أو يدمر العاصمة بأكملها إذا حاولت يومًا أن تعارض أوامره الصارمة. قدمت ذلك الاقتراح لجلالته بتواضع، كعلامة بسيطة على الامتنان مقابل ما منحني من حظوته وحمايته.

صعق الملك من وصفي لتلك الأسلحة الرهيبة، ومن الاقتراح الذي قدمته. ودهش لقدرة حشرة ضعيفة تافهة مثلي (تلك كانت تعابيره) على حمل مثل هذه الأفكار اللاإنسانية، وبطريقة شديدة الألفة، حتى إنني لم أبدُ متأثرًا على الإطلاق بمشهد الدم والدمار الذي وصفته كنتيجة معتادة لتلك الأسلحة الهدامة، التي لا بد أن يكون مخترعها الأول عقلًا شريرًا وعدوًا للإنسانية. أما عن نفسه، قال إن لا شيء يسعده بقدر الاكتشافات الجديدة في العلم أو الطبيعة، لكنه يفضل أن يخسر نصف مملكته على أن يكون مطلعًا على سر كهذا، وقد أمرني ألا آتي على ذكره مجددًا إن كنت حريصًا على حياتي.

ياله من تأثير غريب لضيق التفكير والرؤية المحدودة! ملكٌ يتمتع بكل صفة تجلب التوقير والحب والتقدير، ذو قدرات عالية وحكمة عظيمة وعلمٍ واسع، صاحب مواهب فذة في الحكم، ويكاد يكون معشوقًا من قبل رعاياه؛ يجعلُ من قلقٍ صغير غير ضروري ولا نعرف له وجودًا في أوروبا، سببًا في إفلات فرصة وضعت بين يديه، يمكنها أن تجعله حاكمًا مطلقًا على حيوات وحريات وثروات رعاياه. لا أقول ذلك بنية الانتقاص من الفضائل الكثيرة التي يملكها ذلك الملك العظيم، الذي أشعر أن صورته ستهتز في نظر القارئ الإنكليزي بسبب هذا الحديث: لكنني أرى هذا النقص فيهم ناتجًا عن جهلهم، لأنهم حتى الآن لم يحولوا السياسة إلى علم ([46])، كما فعل ألمع المفكرين في أوروبا. وأذكر جيدًا أنني، خلال أحاديثي مع الملك، قلت إن لدينا عدة آلاف من الكتب التي تتناول فن الحكم، فأعطاه ذلك -بعكس ما قصدتُ تمامًا- صورةً سيئة عن فهمنا وتفكيرنا. أقر أنه يبغض ويكره كل غموض أو مجاملة أو خداع، سواءً في ملك أو في وزير، ولم يفهم ما أعنيه بعبارة أسرار الدولة حين لا يكون في المسألة عدو أو أمة منافسة. وقد حدد العلمَ بالحكم بحدود جد ضيقة: إلى العقل والمنطق السليم، إلى العدالة والتسامح، إلى الفصل السريع في القضايا المدنية والجنائية، بالإضافة إلى عدة أشياء أخرى بديهية لا تستحق التفكير. قال إن من رأيه، أن أي شخص يتمكن من جعل قرني ذرة أو ورقتي عشب تنموان على

بقعة من الأرض لم يكن فيها إلا واحدة من قبل، فهو يستحق من البشر أكثر، ويقدم لبلده خدمة أجلّ، من كل جنس السياسيين مجتمعين.

علمُ هذا الشعب ناقصٌ، يتألف فقط من علم الأخلاق والتاريخ والشعر والرياضيات، وهي العلوم التي لا بد من الاعتراف بتفوقهم فيها. لكن الأخير منها مكرس تمامًا لكل ما قد يكون نافعًا في الحياة، وتحسين الزراعة والصناعات، لذلك قد يلقى قليلًا من التقدير عندنا. أما بالنسبة إلى المفاهيم، وجوهر الأشياء والكائنات، والمجردات، وما وراء الطبيعة، فلم أستطع أن أوصل أي استيعاب لها إلى عقولهم.

يجب ألا يتجاوز عدد كلماتِ أي قانونٍ أحرفَ أبجديتهم المؤلفة من اثنين وعشرين حرفًا فقط، لكن القليل منها يصل إلى ذلك الطول. وقد صيغت القوانين بأسلوب في غاية البساطة والسهولة، وليس أولئك الناس متناقضين بشكل يجعلهم يجدون أكثر من تفسير واحد لها، وتعدّ كتابة تعليق على أي قانون جريمة عظمى. أما عن البت في القضايا المدنية، أو الدعاوى ضد مجرمين، فالسوابق القضائية قليلة، لذلك لا يملكون سببًا يجعلهم يتباهون بامتلاك موهبة استثنائية في أي المجالين.

فن الطباعة موجود لديهم منذ أقدم العصور، مثلهم مثل الصينيين، لكن مكتباتهم ليست ضخمة ([47])، ولا يزيد محتوى مكتبة الملك التي تعد الأكبر في البلاد على ألف مجلد، موجود في معرض طوله ألف ومئتا قدم. سمح لي أن أستعير منها أي كتاب شئت، وصنع نجار الملكة في إحدى غرف غلَمدالكلِتْش آلة خشبية طولها خمسة وعشرون قدمًا، شكلها مثل سلم مائل، وطول درجاته خمسون قدمًا. كانت في الحقيقة دَرجًا متنقلًا، يوضع على بعد عشرة أقدام من جدار الغرفة، ويوضع الكتاب الذي أريد قراءته مستندًا إلى الجدار بشكل مائل، فأصعد في البداية إلى الدرجة العليا من الدرج، ثم ألتفت نحو الكتاب وأبدأ القراءة من قمة الصفحة، وأمشي يمينًا ويسارًا ثماني أو عشر خطوات، بحسب طول السطر، حتى أصل إلى نقطة تقع أسفل مستوى نظري، فأنزل بالتدريج حتى أصل إلى الأسفل. بعد ذلك أصعد مجددًا وأبدأ الصفحة التالية بالطريقة نفسها. كنت أستطيع قلب الصفحات بسهولة بكلتي يدي، لأنها سميكة وقاسية مثل ورق مقوى، وطول أكبرها لا يتجاوز ثمانية عشر أو عشرين قدمًا.

أسلوبهم كان واضحًا وعمليًا وبسيطًا، لكنه ليس منمقًا، فهم لا يتجنبون شيئًا كتجنبهم زيادة كلمات غير ضرورية أو استخدام تعابير كثيرة. لقد قرأت العديد من كتبهم، خاصة في مجالَي التاريخ والأخلاق، وأمتعني بشكل خاص كتيب قديم عن ذلك الأخير، كان موجودًا دومًا في غرفة غلَمدالكلِتْش، تملكه مربيتها، وهي سيدة وقورة مسنة كانت تهتم بما يكتب في مجالَي الأخلاق والتقوى.

يتحدث الكتاب عن ضعف الجنس البشري، ولا يلقى تقديرًا سوى بين النساء والعوام. على أي حال، كان لدي فضول لمعرفة ما يقوله مؤلف من ذلك البلد عن هذا الموضوع، فوجدت الكاتب قد تناول المواضيع المعتادة لعلماء الأخلاق الأوروبيين، مبينًا أن الإنسان كائن ضئيل وتافه وضعيف بطبيعته، عاجز عن الدفاع عن نفسه ضد قسوة الطقس أو هياج حيوان بريّ، يتفوق عليه أحد الكائنات بالقوة، وآخر بالسرعة، وثالث بحدة البصر، ورابع بالمهارة. وأضاف أن الطبيعة تدهورت في العصور الأخيرة المتردّية، ولم يعد يمكنها اليوم سوى إنتاج ولادات صغيرة ناقصة التكوين مقارنة بالعصور القديمة. قال إن من المنطقي التفكير، ليس فقط في أن الجنس البشري كان أضخم في الأصل، بل أن العمالقة كانوا موجودين في عصور سابقة، وكما يؤيد التاريخ والعرف ذلك، فقد أكده الاستخراج المتكرر لعظام وجماجم عملاقة عثر عليها صدفة في عدة أجزاء في المملكة، تتجاوز بكثير الجنس البشري المتقزم الموجود في عصرنا. قال إن قوانين الطبيعة نفسها تقتضي أننا يفترض أن نخلق من الأساس بحجم أكبر وأكثر صلابة، وليس بحجم معرض للدمار من أي حادث، كسقوط قرميدة عن سطح منزل، أو حجر رماه طفل، أو الغرق في جدول ماء. بذلك المنطق نفسه استنبط الكاتب تطبيقات أخلاقية أخرى مفيدة في مسير الحياة، لا ضرورة لذكرها هنا. بالنسبة إليّ، لم أستطع إلا أن أتأمل سعة انتشار القدرة على المحاضرة في الأخلاق في كل مكان، أو التذمر والاستياء الذي تثيره بسبب انتقادنا للطبيعة. وأنا أرى أن البحث الدقيق قد يثبت بطلان تلك الانتقادات عندنا، كبطلانها عند أولئك الناس.

أما فيما يخص شؤونهم العسكرية، فهم يتباهون بأن جيش الملك مؤلف من مئة وستة وسبعين ألف جندي من المشاة، واثنين وثلاثين ألف فارس. هذا إن كنا نستطيع تسميته جيشًا، وهو مكون من الحرفيين في مدن عديدة، والفلاحين في الريف، ويعين قادتهم من النبلاء فقط، دون أي أجر أو مكافأة. وهم ماهرون في تدريباتهم، وملتزمون بالنظام، ولم أجد عجبًا في ذلك، فكيف يمكن أن يحدث العكس إذا كان الفلاح تحت إمرة مالك أرضه، وكل ابن مدينة تحت إمرة المسؤولين في مدينته، المختارين بالانتخاب على طريقة مدينة البندقية.

رأيت مراتٍ فرقة عسكريةٍ من لوربرُلغرود تتدرب في حقل واسع قرب المدينة مساحته عشرون ميلًا. لم يكونوا أكثر من خمس وعشرين ألف جندي، وستة آلاف فارس، لكن كان من المستحيل عليّ عدهم بسبب المسافة الشاسعة التي يشغلونها. إن فارسًا راكبًا على جواد كبير قد يبلغ ارتفاعه تسعون قدمًا، وقد رأيت ذلك الجمع من الفرسان، عند تلقي الأمر، يسلّون سيوفهم معًا، ويلوحون بها في الهواء. لا يمكن للعقل أن يتخيل شيئًا يوازي ذلك ضخامةً ورهبة ودهشة، إذ بدا وكأن عشرة آلاف ومضة برق تسري في الوقت ذاته في كل مكان في السماء.

كنت أود أن أعرف كيف استطاع الملك، الذي لا يمكن لأي بلد آخر الوصول إلى مملكته، أن يفكر بالجيوش، أو يعلّم رعاياه التدريب العسكري. لكنني علمت لاحقًا من خلال الحديث معهم وقراءة تاريخهم، أنهم كانوا على مر العصور يصابون بالمرض نفسه الذي يتعرض له كل البشر، حيث يتنازع النبلاء في سبيل السلطة، والناس في سبيل الحرية، والملوك في سبيل الحكم المطلق. ورغم نجاح قوانين المملكة في التخفيف من حدة تلك النزاعات، إلا أن أحد الأطراف الثلاثة كان أحيانًا يخرق تلك القوانين، مما سبب حروبًا أهلية أكثر من مرة، انتهى آخرها بسلام على يد جد الملك الحالي باتفاقية ترضي الجميع. وظلت القوات المسلحة التي قبلت بتلك الاتفاقية ملتزمة بالنظام العسكري الصارم منذ ذلك الوقت.

الفصل الثامن

يذهب الملك والملكة في رحلة إلى الحدود. يرافقهم المؤلف. توصف طريقة مغادرته البلادَ بالتفصيل. يعود إلى إنكلترا.

لازمني دومًا إحساس قوي بأنني سأستعيد حريتي يومًا ما، رغم أنه كان من المستحيل توقع الطريقة، أو رسم أي خطة مع أدنى أمل بنجاحها. كانت السفينة التي أتيت على متنها أول سفينة تصل إلى مرمى البصر من ذلك الشاطئ على الإطلاق، وقد أصدر الملك أوامر صارمة، في حال ظهور واحدة أخرى، بأن تؤخذ إلى الشاطئ وتجلب مع ركابها وطاقمها إلى لوربرُلغرود في إحدى عربات المزارع. أراد أن يأتي لي بامرأة من مثل حجمي كي أزيد النسل معها، لكنني كنت سأفضل الموت على أن أحتمل عار ترك ذريةٍ تحبس في أقفاص مثل طيور الكناري، وقد تباع مع الوقت إلى النبلاء أو محبي النوادر في المملكة. لقد عوملت بكل طيبة، وكنت مقربًا من ملك وملكة عظيمين، ومحبوبًا لدى كل من في القصر، لكن ذلك كان على حساب الكرامة البشرية. لم أستطع أبدًا أن أنسى أهلي الذين تركتهم ورائي، وأردت أن أكون مع أشخاص أتكلم معهم من المستوى نفسه، وأمشي في الشوارع والحقول دون خوف من أن أموت دوسًا مثل ضفدع أو جرو صغير. لكن خلاصي حلّ في وقتٍ أبكر مما توقعت وبطريقة غير عادية، وسأسرد كل ما حدث بالتفصيل.

أمضيت حتى ذلك الوقت عامين في ذلك البلد، وفي بداية الثالث رافقت أنا وغلَمدالكلِتْش الملكَ والملكة في رحلة إلى الساحل الجنوبي للمملكة. أخِذتُ كالعادة داخل صندوق السفر الخاص بي، الذي كان -كما أسلفت- حجرة مريحة عرضها اثنتا عشر قدمًا. وقد طلبتُ تعليق أرجوحة بخيوط حريرية إلى الزوايا الأربعة من الأعلى، لتخفف الاهتزاز عندما يحملني خادم أمامه على ظهر حصان، وصرت معظم الأحيان أنام في أرجوحتي ونحن في الطريق. كذلك أمرت النجار أن يصنع فتحة في سقف حجرتي مساحتها قدم مربع، لا تقع فوق منتصف الأرجوحة مباشرة، كي تسمح بمرور الهواء في الطقس الحار أثناء نومي، وكنت أغلقها متى أردت بواسطة لوح ينزلق يمينًا ويسارًا في ثلم.

عندما شارفت الرحلة على نهايتها، رأى الملك أن نقضي بضعة أيام في قصر يملكه قرب فلانفلاسْنِك، وهي مدينة تبعد ثمانية عشر ميلًا إنكليزيًا عن شاطئ البحر. كنا أنا وغلَمدالكلِتْش متعبَين للغاية، فقد التقطتُ زكامًا بسيطًا، لكن مرض الفتاة المسكينة جعلها طريحة الفراش. كنت أتوق إلى رؤية المحيط الذي قد يكون المشهد الوحيد لخلاصي، هذا إن حدث على الإطلاق، فتظاهرتُ بأنني في حال أسوأ مما كنت عليه بالفعل، وطلبت إذنًا باستنشاق هواء البحر

النقي برفقة خادم أحبه، كان يؤتمن عليّ أحيانًا. لن أنسى أبدًا التردد التي وافقت به غلَمدالكلِتْش على ذهابي، ولا الأمر الصارم الذي أعطته للخادم بأن يحرص عليّ، منخرطةً في الوقت نفسه في طوفان من الدمع، كما لو أنها حدست بما سيحدث. أخرجني الصبي بصندوقي ومشى مبتعدًا عن القصر نصف ساعة باتجاه الصخور على الشاطئ. أمرته هناك أن يضعني أرضًا، فرفعتُ إحدى النوافذ وألقيتُ نظراتٍ حزينةً تواقة على البحر. ثم وجدت نفسي متوعكًا، فأخبرت الخادم أنني أريد أخذ قيلولة في أرجوحتي آملًا أن تحسن من حالي. دخلت، فأغلق النوافذ لدرء البرد، وسرعان ما غططت في النوم. أعتقد أن الصبي ظن أن مكروهاً لن يحدث وأنا نائم، ومضى يبحث بين الصخور عن بيوض طيور، فقد رأيته من نافذتي من قبل يبحث في المكان ويلتقط واحدة أو اثنتين من بين الشقوق. أيًا كان ما حدث، فقد أيقظني فجأة شيءٌ شدّ صندوقي بعنف من الحلقة المثبتة على سقفه. شعرت بالصندوق يرتفع عاليًا في الهواء، ثم يتحرك إلى الأمام بسرعة كبيرة. كانت الهزة الأولى كفيلة بإيقاعي عن أرجوحتي، لكن الحركة أصبحت بعد ذلك أقل اضطرابًا. صرختُ عدة مرات بأعلى صوت، لكن بلا جدوى، ونظرت من النافذة فلم أر سوى الغيوم والسماء. سمعت صوتًا فوقي يشبه رفيف أجنحة، ثم بدأت أستوعب الوضع المؤسف الذي كنت فيه، فقد التقط أحد النسور حلقة صندوقي بمنقاره كي يتركه يسقط فوق صخرة، مثل سلحفاة في صدفتها، ثم يلتقط جسدي ويلتهمه. لأن ذكاء ذلك الطائر وحاسة شمه تمكنه من اكتشاف طريدته من مسافة بعيدة، ولو كانت مخبأة بشكل أفضل مما كنت بين ألواح خشب سمكها إنشان.

بعد وقت قصير لاحظت أن صوت رفيف الأجنحة يتسارع، وصندوقي يهتز إلى أعلى وأسفل مثل لافتة في يوم عاصف. سمعت عدة ضربات أو لطمات توجه إلى النسر (حسب ظني، فأنا واثق أن ذلك الحيوان هو ما حمل حلقة صندوقي في منقاره)، ثم شعرت بنفسي فجأة أسقط شاقوليًا لمدة تزيد على دقيقة، لكن بسرعة كبيرة حتى أوشك نفسي على الانقطاع. أوقفت سقوطي غطسة عنيفة كان صوتها في أذنيّ أعلى من صوت شلالات نياغارا، حل بعدها ظلام لدقيقة أخرى، ثم بدأ صندوقي يرتفع حتى تمكنت من رؤية ضوء من أعلى نوافذي. فهمت عندئذ أنني سقطت في البحر. طفى صندوقي مغمورًا مسافة خمسة أقدام في الماء بفعل ثقل جسدي والأغراض التي فيه، والصفائحِ الحديدية العريضة المثبتة للتدعيم على الزوايا الأربعة من أعلى وأسفل. أظن الآن، كما ظننت في ذلك الوقت، أن بضعة نسور تبعوا النسر الذي طار بصندوقي بهدف مقاسمة الفريسة معه، مما اضطره لإسقاطي كي يدافع عن نفسه.

حافظت الصفائح الحديدية المثبتة إلى أرض الصندوق، وهي الأثقل، على توازنه وهو يسقط، وحمته من التحطم على سطح الماء. كل مفصل في الصندوق كان يعمل بأثلام، ولم يكن الباب يدور على مفصلين، بل يفتح إلى أعلى وأسفل مثل نافذة، مما أبقى حجرتي محكمة الإغلاق، فلم يتسرب إليها سوى قليل من الماء. خرجتُ من أرجوحتي بصعوبة بعد أن حاولت فتح اللوح الجرار الموجود في السقف، الذي صنع بهدف إدخال الهواء، لأنني كدت أختنق من نقصه.

كم تمنيت وقتها لو كنت مع عزيزتي غلَمدالكلِتْش، التي أبعدتني عنها ساعةٌ واحدة إلى ذلك الحد! يمكنني أن أقول بصدق، إنني وسط مصيبتي لم أستطع إلا أن أتحسر على مربيتي المسكينة، والحزن الذي ستعانيه بسبب فقدي، ثم استياء الملكة منها، وضياع مستقبلها. ربما لم يمر كثير من الرحالة بمثل الصعوبات والضيق الذي كنت فيه عندئذٍ، وأنا أتوقع كل دقيقة أن أرى صندوقي يتحطم، أو ينقلب مع أول هبّة ريح أو موجة عالية. شق واحد في أي من الألواح الزجاجية كان كفيلًا بموت فوري لي. ولم يكن شيء ليحمي النوافذ سوى الشبك المعدني المتين الذي وضع من الخارج للوقاية من الحوادث أثناء السفر. رأيت الماء يتسرب من عدة شقوق، لكن التسريب لم يكن كبيرًا، فحاولت أن أوقفه قدر الإمكان. لم أستطع رفع سقف حجرتي، وكان عليّ أن أفعل ذلك ثم أجلس فوقه، كي أستطيع على الأقل أن أحمي نفسي من أن أعلق في ذلك السجن، كما يمكن أن أدعوه. ولو نجوت من هذه المخاطر ليوم أو اثنين، ماذا يمكنني أن أتوقع سوى موت مأساوي من البرد والجوع. بقيت في تلك الظروف أربع ساعات، أتوقع وأتمنى أن تكون كل دقيقة هي الأخيرة.

لقد أخبرت القارئ من قبل بوجود مشبكين حديديين مثبتين على جانب صندوقي الخالي من النوافذ، كان الخادم يمرر فيهما حزامًا جلديًا ويربطه حول خصره. بينما أنا في ذلك الحال البائس سمعت، أو ظننت أنني سمعت احتكاكًا على جانب الصندوق من طرف المشبكين، ثم بدأت أتخيل أن الصندوق يسحب في البحر، فقد شعرت كل حين بشيء يشبه الشد، جعل الأمواج ترتفع حتى أعلى نوافذي، وتتركني في ظلام شبه تام. أعطاني ذلك أملًا ضعيفًا بالنجاة رغم أنني لم أستطع أن أتخيل كيف ستأتي. حاولت أن أفك براغي أحد الكراسي التي كانت مثبتة بالأرض، وبعد أن نجحت بصعوبة في تثبيتها مجددًا تحت اللوح المنزلق الذي فتحته من قبل، صعدت فوق الكرسي وقربت فمي من الفتحة قدر الإمكان وطلبت النجدة بأعلى صوت، وبكل اللغات التي أعرفها. ثم ربطتُ منديلي بعصا كنت أحملها أحيانًا، وأخرجتها من الفتحة ملوحًا بها في الهواء، بحيث لو مر أي قارب أو سفينة في الجوار، يمكن للبحارة أن يستنتجوا وجود كائن تعيس محبوس في الصندوق.

لم أجد فائدة من كل ما فعلت، بل وجدت حجرتي تتحرك بشكل واضح، وبعد ساعة أو أكثر اصطدم الصندوق من الجانب الذي يحمل المشبكين بشيء صلب، ظننته صخرة، ووجدت نفسي أتأرجح أكثر من ذي قبل، ثم سمعت صوتًا واضحًا على غطاء حجرتي، مثل احتكاك حبل يمر عبر الحلقة، ووجدت نفسي أرتفع أربعة أقدام على الأقل. عندها رفعتُ عصاي ومنديلي من جديد طالبًا النجدة، حتى كاد يبح صوتي. سمعت صيحة عالية ردًا عليّ تكرر ثلاث مرات، أعطتني شحنات من الفرح لا يتخيلها إلا من يحس بمثلها، ثم سمعت صوت خطوات فوق رأسي، وشخصًا ينادي من خلال الفتحة بالإنكليزية: «إذا كان في الأسفل أحدٌ فليتكلم»، فأجبت بأنني رجل إنكليزي أوقعه سوء الحظ في أكبر بليّة قد تصيب أي مخلوق، وتوسلت بأسلوب مؤثر أن ينقذني أحد من السرداب الذي كنت فيه. أجاب الصوت أنني في أمان، فالصندوق مربوطٌ بسفينتهم، والنجار قادم على الفور لشق فتحة في الغطاء كبيرة بما يكفي لسحبي خارجًا. أجبت أن لا داعي لذلك، لأنه سيستغرق طويلًا، وأنه يكفي أن يضع أحد أفراد الطاقم إصبعه في الحلقة ويرفع الصندوق من البحر إلى السفينة، ومن ثم إلى حجرة القبطان. ظن بعضهم أنني مجنون عند سماعي أتكلم بذلك الجموح، وضحك آخرون، إذ لم يخطر لي أبدًا أنني أصبحت بين أشخاص بمثل طولي وقوتي. أتى النجار ونشر خلال دقائق فتحة من أربعة أقدام مربعة، ثم أنزل سلمًا صغيرًا صعدت عليه، وأخذت من هناك إلى السفينة وأنا في حالة إعياء شديد.

كان جميع البحارة في دهشة كبيرة، وسألوني ألف سؤال، لكنني لم أرغب بالإجابة. كنت كذلك مرتبكًا لرؤية هذا العدد من الأقزام؛ هكذا ظننتهم بعد أن اعتادت عيناي لوقت طويل على رؤية الأشياء العملاقة التي غادرتها للتو. لكن القبطان توماس ولكوك، وهو رجل محترم من شروبشاير، عندما لاحظ أنني موشك على الإغماء أخذني إلى قمرته، حيث أعطاني شرابًا لتهدئتي، ثم جعلني آوي إلى فراشه ونصحني أن أستريح قليلًا، وكنت في أمس الحاجة لذلك. شرحت له قبل أن أنام أن لدي بعض الأثاث الثمين في صندوقي، أفضل من أن أخسره، عبارة عن أرجوحة بديعة وسرير جميل وكرسيين وطاولة وخزانة؛ وأن حجرتي كانت مبطنة من كل الجوانب، بل منجدة بالحرير والقطن؛ وأنه إن سمح لأحد أفراد الطاقم أن يحضر خزانتي إلى قمرته، سأفتحها أمامه وأريه أغراضي. ظن القبطان أنني أهذي عند سماعي أتفوه بهذه السخافات، لكنه وعدني أن يأمر بما قلت (أظن لتهدئتي)، ثم صعد إلى السطح وأرسل بعض رجاله إلى حجرتي، فسحبوا منها كل أشيائي (كما وجدت لاحقًا) وأزالوا منها التنجيد. لكن الكراسي والخزانة والسرير التي كانت مثبتتة إلى الأرض تضررت من جهل البحارة الذين نزعوها بالقوة. ثم نزعوا بعض الألواح لاستخدامها في السفينة، وبعد أن أخذوا كل ما أرادوا، تركوا الهيكل في البحر، فغرق تمامًا

بسبب الشقوق الكثيرة التي صنعوها في الأرض والجوانب. سررت بأنني لم أكن شاهدًا على الدمار الذي سببوه، لأنني واثق أنه كان سيؤثر بي، باستدعائه أحداثًا ماضية إلى ذهني كنت أفضل نسيانها.

نمت بضع ساعات، ظلت ترعبني خلالها أحلام المكان الذي كنت فيه والأخطار التي نجوت منها، إلا أنني شعرت بالتحسن بعد استيقاظي. كانت الساعة الثامنة مساءً، وطلب القبطان العشاء فورًا، ظنًا منه أني لم آكل منذ وقت طويل. لقد عاملني بلطف شديد عندما وجدني لا أبدو مجنونًا أو أتكلم كلامًا غير منطقي. وعندما تركنا لوحدنا طلب مني أن أحكي له عن رحلاتي، وعن الحادث الذي جعلني أنجرف على غير هدى في ذلك الصندوق الخشبي العملاق. أخبرني أنه كان ينظر خلال منظاره حوالي الثانية عشرة ظهرًا، فرآه من بعيد وظنه سفينة؛ أنه لم يكن بعيدًا عن طريقه، فرغب أن يذهب إليه على أمل شراء بعض البسكويت بعد أن شارف ما معه على النفاد، وعندما اقترب واكتشف خطأه، أرسل قاربًا لاكتشاف ما يكون، لكن الرجال عادوا مذعورين، يقسمون أنهم رأوا منزلًا طافيًا؛ أنه ضحك على حماقتهم وذهب بنفسه في القارب، وأمر الرجال أن يأخذوا حبلًا متينًا معهم؛ أنه جدف حولي عدة مرات، وقد كان الطقس هادئًا، فرأى نوافذي والشبك الحديدي الذي يحميها، ثم اكتشف مشبكين على أحد الجوانب الذي كان مصنوعًا بكامله من ألواح خشبية دون أي ممر للضوء. فأمر رجاله بالتجديف إلى ذلك الجانب، وربط حبلًا بأحد المشابك، ثم أمر بسحب علبتي (على حد تعبيره) باتجاه السفينة. عندما أصبح هناك أمرهم بربط حبل آخر بالحلقة المثبتة إلى الغطاء، ورفع صندوقي بالبكرات، لكن كل البحارة لم يتمكنوا من رفعه أكثر من قدمين أو ثلاثة. قال إنهم رأوني أبرز منديلي من الفتحة، فاستنتج أن رجلًا مسكينًا لا بد أن يكون محبوسًا في جوفه. سألته إن رأى هو أو أحد أفراد الطاقم طيورًا عملاقة في الهواء في الوقت الذي رأوني فيه أول مرة. أجاب أنه ناقش المسألة مع البحارة بينما كنت نائمًا، فقال أحدهم إنه رأى ثلاثة نسور تطير شمالًا، لكنه لم ير شيئًا يدل على أنهم أكبر من الحجم الطبيعي. خمنت أن ذلك بسبب الارتفاع الكبير الذي كانت فيه، ولم يعرفوا سبب سؤالي. ثم سألت القبطان كم يتوقع أن يكون بعدنا عن اليابسة. قال إننا، بحسب أفضل تقديراته، على بعد مئة فرسخ على الأقل. أكدت له أنه لا بد أن يكون مخطئًا بالنصف تقريبًا، فأنا لم أغادر البلد الذي كنت فيه إلا قبل ساعتين على الأكثر من الوقت الذي وقعت فيه في البحر. بدأ يفكر مجددًا أن ذهني مشوش، ولمح إلي بذلك، ونصحني أن آوي إلى السرير في غرفة خصصها لي. فأكدت له أنني أشعر بتحسن كبير بصحبته وحديثه، وأنني بحال أفضل من أي وقت مضى.

اكتست ملامحه بالجدية، وسألني بصراحة إن كان عقلي قد اضطرب بعد ارتكاب جريمة بشعة عوقبت عليها بأمر من ملكٍ ما، بنفيي داخل ذلك

الصندوق، كما يجبر أعتى المجرمين في البلدان الأخرى على الإبحار في مراكب مخروقة دون مؤونة طعام. ورغم أنه سيأسف لأخذ رجل بذلك السوء على متن سفينته، إلا أنه تعهد بإيصالي سالمًا إلى الشاطئ في أول ميناء نصل إليه. أضاف أن شكوكه ازدادت بسبب بعض الأشياء غير المعقولة التي قلتها في البداية للبحارة ومن ثم له، فيما يتعلق بحجرتي أو صندوقي، بالإضافة إلى نظراتي الغريبة وسلوكي أثناء تناول العشاء. طلبت منه أن يصبر لسماعي أسرد قصتي، وحكيت له كل شيء بأمانة منذ غادرت إنكلترا آخر مرة حتى اللحظة التي عثر عليّ فيها. ولأن الحقيقة تجد طريقها دومًا إلى العقول الواعية، اقتنع ذلك الرجل الطيب المحترم مباشرة بصدقي وصراحتي، وقد كان صاحب قليل من التعليم وكثير من المنطق السليم. لكن، لأؤكد أكثر على كل ما قلته، طلبت منه أن يأمر بإحضار خزانتي، التي كنت أحتفظ بمفتاحها في جيبي (وقد أخبرني سابقًا كيف تخلص بحارته من صندوقي) فتحتها أمامه، وأريته المجموعة الصغيرة من النوادر التي صنعتها في ذلك البلد، الذي أنقذت منه بطريقة غريبة. كان من بينها المشط الذي صنعته من شعيرات لحية الملك، وآخرُ من المادة نفسها، لكنها مثبتة على قلامة من ظفر جلالة الملكة صنعتُ منها ظهر المشط. بالإضافة إلى تشكيلة من الدبابيس والإبر التي يتراوح طولها من قدم حتى نصف ياردة، وأربعة إبر دبابير مثل مسامير النجارين، وبعضٌ من شعر الملكة، وخاتم ذهبي أهدتني إياه مرة بكرمٍ، بعد أن نزعته من خنصرها وألقته فوق رأسي مثل عقد. طلبت من القبطانٍ أن يقبل الخاتم هديةً مقابل لطفه، لكنه رفض ذلك بشكل قطعي. أريته ثؤلولًا قطعته بيدي من إصبع قدم إحدى الوصيفات، وكان بحجم تفاحة كنتية وشديد الصلابة، حتى أنني حين عدت إلى إنكلترا جوفته كفنجان وطليته بالفضة. أخيرًا، أريته البنطال الذي كنت ألبسه وقتها، وكان مصنوعًا من جلد فأر.

لم أستطع إجباره على أخذ شيء سوى ضرس خادم، وجدته يتأمله بفضول كبير وأعجب به، فقبله بكثير من الشكر، أكثر مما يكفي لشيء بسيط كهذا. وقد اقتلعه جراح غير متمرس من فم أحد خدم غلَمدالكلِتْش بعد أن شعر بألم في أسنانه، لكنه كان سليمًا بقدر أي سن في فمه، فطلبتُ تنظيفه ثم وضعته في خزانتي. كان طوله قدم تقريبًا، وقطره أربعة إنشات.

بدا القبطان سعيدًا وراضيًا تمامًا بالحكاية البسيطة التي حكيتها له، وقال إنه يأمل أن أتكرم على العالم بكتابتها ونشرها بعد العودة إلى إنكلترا. فأجبته بأنني أرى مكتباتنا تغص بفائضٍ من كتب الرحلات بالفعل، وأن لا شيء ينتشر اليوم ما لم يكن غريبًا، وأنني أظن أن اهتمام بعض الكتاب بالحقيقة يقل عن اهتمامهم بغرورهم ومصالحهم، أو بتسلية القرّاء الجهلة؛ أن قصتي لا تحوي سوى القليل إلى جانب الأحداث المعتادة، من دون ذلك الوصف الدقيق للنباتات الغريبة والأشجار والطيور والحيوانات الأخرى، أو العادات الهمجية

وعبادة الأصنام لدى الشعوب البدائية، الذي يستفيض فيه معظم الكتاب. لكنني شكرته على رأيه، ووعدته أن أبقي الأمر في بالي.

قال إنه مستغرب كثيرًا من أمر معين، وهو أنه سمعني أتكلم بصوتٍ عالٍ للغاية، وسألني إن كان الملك أو الملكة في ذلك البلد ثقيلَي السمع. قلت له إن ذلك ما اعتدتُ عليه في السنتين الماضيتين، وأنني أعجبت كثيرًا بصوته وأصوات رجاله، الذين بدوا وكأنهم يهمسون همسًا، مع ذلك استطعت سماعهم بشكل جيد. لكنني في ذلك البلد، كنتُ حين أتكلم أشبهَ برجلٍ يقف في الشارع مخاطبًا آخر ينظر إليه من أعلى برج كنيسة، إلا عندما كنت أوضع فوق طاولة أو أحمل في يد شخص ما. أخبرته أيضًا أنني عندما صعدت على متن السفينة، ووقف البحارة حولي، هيئ إلي أنهم أضأل وأتفه المخلوقات التي رأيتها على الإطلاق؛ وأنني في بلد ذلك الملك لم أعد أحتمل النظر في المرآة بعد أن اعتادت عيناي على رؤية الأشياء العملاقة، لأن المقارنة جعلتني أحتقر نفسي. قال القبطان إنه أثناء تناول العشاء لاحظ أنني أنظر إلى كل شيء ببعض الدهشة، وأنني بدوت أحيانًا بالكاد قادرًا على كتم ضحكي، ولم يعرف كيف يفسر ذلك، لكنه عزاه إلى خلل في عقلي. أجبت بأنه كان على حق، فقد استغربت من قدرتي على تحمل رؤية أطباق بحجم قطعة فضية من فئة ثلاث بنسات، وفخذ خنزير بالكاد بحجم لقمة، وفنجان ليس أكبر من جوزة، وتابعت وصف بقية الأشياء والأطعمة في مسكنه بالطريقة نفسها. رغم أن الملكة أمرت بتحضير أدوات صغيرة لكل احتياجاتي عندما كنت في ضيافتها، إلا أن أفكاري كانت مأخوذة بكل ما رأيته في كل مكان حولي، وقد تجاهلتُ ضآلة حجمي كما يتجاهل الناس أخطاءَهم.

فهم القبطان دعابتي جيدًا، وأجاب بمرحٍ بالمثل الإنكليزي القديم: بأنه يظن أن عيني أكبر من معدتي، فقد وجد شهيتي ضعيفة رغم أنني لم آكل طيلة النهار، واستمرارًا في مرحه قال إنه مستعد لدفع مئة باوند بسرور مقابل رؤية حجرتي في منقار النسر، ثم رؤيتها تسقط من ذلك الارتفاع الكبير إلى البحر، فلا بد أن ذلك منظر مدهش يستحق أن ينتقل وصفه إلى الأزمان المستقبلية. أضاف أن المقارنة بـ فيتون ([48]) كانت شديدة الوضوح، حتى أنه لم يستطع ألا يفكر بها. لكن ذلك التشبيه لم يعجبني.

كان القبطان في طريقه إلى إنكلترا عائدًا من تونكين ([49])، فأبحر باتجاه الشمال الشرقي إلى خط عرض ٤٤ درجة وخط طول ١٤٣. لكنه واجه رياحًا تجارية بعد يومين من انضمامي إليه، فأبحرنا إلى الجنوب مدة طويلة، ثم حافظنا على مسارنا باتجاه غرب-جنوب-غرب بمحاذاة ساحل هولندا الجديدة ([50])، ثم جنوب-جنوب-غرب حتى درنا حول رأس الرجاء الصالح. كانت رحلتنا موفقة، لكنني لن أضجر القارئ بالحديث عنها. زار القبطان ميناءين أو ثلاثًا،

وأرسل قواربه من أجل المؤن والماء العذب. لكنني لم أغادر السفينة حتى وصلنا إلى ميناء داونز، وكان ذلك في الثالث من يونيو عام ١٧٠٦، بعد قرابة تسعة أشهر من هروبي. عرضت عليه أن أترك أغراضي رهنًا إلى أن أدفع أجرتي، لكنه أصر على ألا يقبل فلسًا واحدًا. ودعنا بعضنا وداعًا حارًا، وأخذت منه وعدًا بأن يأتي لزيارتي في منزلي في ريدريف.

استأجرت حصانًا ودليلًا بخمس شلنات استعرتها من القبطان. وبينما كنت على الطريق أتأمل صغر البيوت والأشجار والمواشي والناس، بدأت أظن نفسي في ليليبوت، وخفت أن أدوس كل مسافر أقابله، فصرت أصرخ بهم أحيانًا كي يبتعدوا عن الطريق، وكدت أعرض نفسي للضرب لقاء وقاحتي.

اضطررت إلى السؤال عن منزلي حتى وصلتُ إليه، وعندما فتح أحد الخدم الباب انحنيت قبل أن أدخل، خوفًا من أن أصدم رأسي (مثل إوزة تحت بوابة) خرجت زوجتي لعناقي، فانحنيت إلى ما دون ركبتيها ظانًا أنها لن تستطيع الوصول إلى فمي. ثم جثت ابنتي على ركبتيها تطلب بركتي، لكنني لم أستطع رؤيتها قبل أن تنهض، بعد أن اعتدت لمدة طويلة على الوقوف رافعًا ناظريّ ورأسي لمسافة أعلى من ستة أقدام، ثم حاولتُ رفعها بيد واحدة من خصرها. نظرتُ بعد ذلك إلى الخدم وبعض الأصدقاء الذين كانوا في المنزل متشامخًا، كما لو أنهم أقزامٌ وأنا عملاق. قلت لزوجتي إنها بالغت في التقتير، وجوعت نفسها وابنتها حتى اشتد نحولهما. باختصار، لقد تصرفت بشكل غير قابل للتفسير، حتى كانوا جميعًا من رأي القبطان حين رآني أول مرة، وظنوا أنني فقدت صوابي. أقول هذا كمثال على قوة العادة والتحيز.

خلال وقت قصير، تمكنت أنا وعائلتي وأصدقائي من فهم بعضنا، لكن زوجتي أصرت على أنني يجب ألا أبحر مجددًا. إلا أن قدري الشرير أمر بذلك فلم تملك أن تمنعني، كما سيرى القارئ فيما بعد. أما الآن، أختم هنا الجزء الثاني من رحلاتي الصعبة.

نهاية القسم الثاني

القسم الثالث

رحلةٌ إلى لابوتا، بالنيباربي، لُغناغ، غلبْدبْدرِب، واليابان

الفصل الأول

ينطلق المؤلف في رحلة ثالثة، يأسره القراصنة. يناصبه العَداءَ رجلٌ هولندي. يصل المؤلف إلى جزيرة، ثم يؤخَذ إلى لابوتا.

قبل مضيّ عشرة أيام على عودتي جاء لزيارتي القبطانُ ويليام روبنسون من كورنوول، قائدُ سفينة «هوبْوِل»، وهي سفينة ضخمة سعتها ثلاثمئة طن. كنت من قبل جراحًا وشريكًا بالربع في سفينة هو قبطانها في رحلة إلى شرق المتوسط، وقد عاملني دومًا كأخٍ أكثر من مرؤوس. عندما سمع بوصولي جاء لزيارتي بدافع الصداقة، إذ لم يدُر بيننا سوى الأحاديث المعتادة بعد غياب طويل. لكنه كرر زيارته وعبر عن سروره برؤيتي أتمتع بصحة جيدة، وسألني إن كنت سأستقر على الدوام، وأفصح عن نيته بالسفر إلى جزر الهند الشرقية بعد شهرين. ثم دعاني أخيرًا بشكل صريح، ولو بشيء من الاعتذار، للعمل جراحًا على متن السفينة، وقال إنني أستطيع توظيف جراحٍ آخر عندي إلى جانب مساعدَين، وإن راتبي سيكون ضعف المعتاد، ونظرًا إلى أن خبرتي في الملاحة تكاد ترقى إلى خبرته، سوف يحرص على الأخذ بنصيحتي كما لو كنت شريكًا في القيادة.

قال الكثير من الأشياء اللطيفة الأخرى، وكنت أعرفه شخصًا صادقًا فلم أستطع رفض عرضه، وقد ظل تعطشي لرؤية العالم بالشدة نفسها بالرغم من متاعبي السابقة. بقيت لديّ صعوبة وحيدة هي إقناع زوجتي، لكنها وافقت أخيرًا آملة في ذلك خيرًا مستقبليًا لأولادها.

أبحرنا في الخامس من أغسطس عام ١٧٠٦، ووصلنا إلى ميناء سانت جورج ([51]) في الحادي عشر من أبريل عام ١٧٠٧. مكثنا فيه ثلاثة أسابيع استراحةً لبحارتنا بسبب مرض عدد منهم، من ثم اتجهنا إلى تونكين، حيث قرر القبطان أن يبقى بعض الوقت عندما وجد الكثير من البضائع التي يريد شراءها غير جاهزة بعد، ولم يتوقع أن يستطيع شحنها قبل عدة أشهر. لذلك، وعلى أمل تسديد بعض النفقات، اشترى مركبًا وحمله بعدة أصناف من البضائع مما يتاجر به أهل تونكين مع الجزر المجاورة، ثم عينني قائدًا له على رأس أربعة عشر رجلًا، ثلاثة منهم من أهل البلد، وأوكل إليّ المتاجرة بها بينما يتم شؤونه في تونكين.

لم نكد نبحر ثلاثة أيام حتى بدأت عاصفةٌ عاتية، دفعتنا إلى الشمال الشرقي ثم إلى الشرق مدة خمسة أيام، حظينا بعد ذلك بطقس جيد بالرغم من هبوب الرياح بقوة من الغرب. في اليوم العاشر طاردتنا سفينتا قراصنة، سرعان ما

استولتا على مركبنا، فقد كان يبحر ببطء شديد بسبب ثقل البضائع، ولم نكن في حال يسمح لنا بالدفاع عن أنفسنا.

غزا القرصانان مركبنا في الوقت نفسه، مندفعَين بعنفٍ في مقدمة رجالهما، لكنهم وجدونا منبطحين على وجوهنا (وقد أمرت رجالي بذلك) فأوثقونا بحبال متينة وعينوا حارسًا علينا، ثم انصرفوا إلى تفتيش المركب.

رأيت بينهم رجلًا هولنديًا بدا صاحب سلطة، رغم أنه لم يكن قائد أي من السفينتين. عندما عرف من ملامحنا أننا إنكليز أخذ يبربر بلغته ويقسم أننا سنقيد ظهرًا لظهرٍ ونرمى في البحر. كنت أستطيع التحدث بالهولندية بشكل جيد، فأخبرته من نكون، وتوسلت إليه -على اعتبار أننا مسيحيون بروتستانت، من بلدين متجاورين ومتحالفين ([52]) - أن يحث القبطانَ على الرأفة بنا. أثار ذلك غضبه، فكرر تهديداته، ثم استدار إلى رفاقه وتحدث بحماسٍ شديد، باللغة اليابانية على ما أظن، مستخدمًا كلمة «كريستيانوس» أكثر من مرة.

كانت كبرى سفينتي القراصنة تحت قيادة قبطان ياباني، يتحدث الهولندية قليلًا لكن بشكل رديء. اقترب ذلك القبطان مني، وبعد أن طرح عدة أسئلة أجبتها بخضوعٍ شديد، قال إننا لن نُقتل. انحنيتُ له عندئذٍ انحناءة كبيرة، ثم التفتُ إلى الهولنديٍ وقلت له، يؤسفني أن أجد رحمةً في قلب رجلٍ وثنيّ أكثر مما في قلب أخٍ مسيحي. لكنني سرعان ما ندمت على تلك الكلمات الحمقاء، لأن ذلك الشريرَ الخبيث بعد أن حاول سدىً إقناع القبطانين برميي في البحر (ولم يقبلا بذلك بعد الوعد الذي قطعاه لي بأنني لن أقتَل)، نجح أخيرًا في إقناعهما بإنزال عقابٍ بي، كان أسوأ بكل شكلٍ من الموت نفسه.

قُسم رجالي إلى مجموعتين متساويتين أرسِلتا إلى سفينتَي القراصنة، وتسلم مركبي طاقم جديد. أما بالنسبة إليّ فقد قرروا تركي في عُرض البحر في قاربٍ صغير، مع مجدافين وشراعٍ ومؤونة أربعة أيام، تكرم القبطان الياباني بمضاعفتها من مخازنه، ولم يسمح لأي رجلٍ بتفتيشي. نزلتُ إلى القارب، بينما وقف الهولندي على سطح المركب يحمّلني كل الشتائم والألفاظ النابية التي تسعها لغته.

قبل ساعة من رؤية القراصنة كنت قد وجدتُ بالقياس أننا على خط العرض ٤٦ شمالًا وخط الطول ١٨٣ ([53])، ولما ابتعدتُ عنهم أبصرتُ بواسطة منظار الجيب عدة جزر إلى الجنوب الشرقي. كانت الرياح مواتية، فنصبت شراعي واتجهت إلى أقربها. بعد ثلاث ساعات وصلت إليها، ووجدتها صخرية تمامًا، فجمعت الكثير من البيض، ثم أشعلت نارًا أحرقتُ بها بعضًا من نبات الخلنَج وأعشاب البحر الجافة، وشويت البيض عليها. لم آكل شيئًا آخر على العشاء، كي أحافظ

على مؤونتي لأطول وقت ممكن. في الليل احتميت بصخرةٍ مفترشًا بعض الخلنَج، ونمت نومًا هنيئًا.

أبحرت في اليوم التالي إلى جزيرة أخرى، ثم إلى ثالثة ثم إلى رابعة مستخدمًا شراعي تارة ومجدافيّ تارة. لكنني لن أتعب القارئ بحديث تفصيلي عن المصاعب التي واجهتني. يكفي أن يعلم أنني وصلت في اليوم الخامس إلى آخر جزيرة في مرمى البصر، تقع جنوب شرق الجزيرة السابقة.

كانت الجزيرة أبعد مما توقعت، فلم أصل إليها قبل خمس ساعات. درت حولها دورة شبه كاملة حتى وجدتُ مكانًا مناسبًا لأرسو، عبارةً عن خليج صغير أعرض بثلاث مرات من قاربي. وجدتُ تلك الجزيرة صخرية، تتخللها حزم من العشب ونباتات ذات رائحة زكية. أخرجت زادي القليل وأكلت حتى استعدتُ قواي، ثم خبأت الباقي في كهف من الكهوف الكثيرة الموجودة. جمعت بعد ذلك كثيرًا من البيض من فوق الصخور، وكميةً من الطحالب الجافة والعشب اليابس، وخططت لإشعالها في اليوم التالي لشيّ البيض (فقد كان بحوزتي حجر صوان وقطعة فولاذ وكبريت وعدسة محدبة) استلقيت طوال الليل في الكهف حيث وضعت مؤونتي، مفترشًا العشب والطحالب اليابسة التي جمعتها للوقود، لكنني لم أنم إلا قليلًا، فقد غلب قلقي على تعبي وأبقاني صاحيًا. أخذتُ أفكر باستحالةِ الحفاظ على حياتي في ذلك المكان النائي، وببؤسِ النهاية التي سأواجهها. وجدت نفسي من شدة الإرهاق واليأس غيرَ قادر على النهوض، وقبل أن أستجمع قواي للخروج من الكهف كان النهار قد شارف على الانقضاء. مشيت قليلًا بين الصخور تحت سماء صافية تمامًا، وشمسٍ كانت ساطعة بشدة حتى أنني أدرت وجهي عنها، لكنها بدأت تُحجب فجأة بطريقة مختلفة عما يحدث حين تعترضها غيمة. التفتُ فرأيت جسمًا ضخمًا معتمًا بيني وبين الشمس يتقدم باتجاه الجزيرة، بدا كأنه على ارتفاع ميلين، وحجبَ الشمسَ ست أو سبع دقائق، لكنني لم أشعر بالهواء يزداد برودة أو بالسماء تظلم أكثر مما لو وقفت في ظل جبل. عندما أخذ الشيء يقترب أكثر من المكان الذي كنت فيه، بدا لي جسمًا متماسكًا صلبًا، سطحه السفلي مسطحٌ وصقيل، يلمع بشدة من انعكاس البحر فيه. وقفتُ على مرتفَع يبعد مئتي ياردة عن الشاطئ، ورأيت ذلك الجسم الضخم يهبط حتى صار في مستواي تقريبًا، على بعد أقل من ميل إنكليزي عني. أخرجت منظاري، فرأيت بوضوح عددًا من الناس يصعدون ويهبطون جوانبَه التي بدت منحدرة، لكنني لم أستطع تمييز ما يفعلونه.

أثار حبي الفطريّ للحياة مشاعرَ من الفرح في داخلي، وكنت مهيئًا للإحساس بأملٍ بأن تنقذني هذه المغامرة بطريقة أو بأخرى من المكان والوضع البائس الذي كنت فيه. في الوقت ذاته يصعب على القارئ أن يتخيل دهشتي لرؤية

جزيرةٍ تطير في الهواء، يسكنها ناسٌ قادرون على رفعها وخفضها وتحريكها كما يشاؤون، لكنني لم أكن عندئذٍ في مزاج يسمح بفلسفة تلك الظاهرة، وفضلت مراقبة المسار الذي تسلكه الجزيرة. ظلت ثابتةً بعض الوقت، لكنها سرعان ما اقتربت أكثر، واستطعت رؤية جوانبها المحاطة بعدة طوابق من الأروقة، مع أدراجٍ على مسافات معينة للنزول من طابق إلى آخر. رأيت في الطابق الأسفل بعض الناس يصطادون السمك بصنارات منحنية، وآخرين يتفرجون. لوحت بقلنسوتي (فقد اهترأت قبعتي منذ وقت طويل) وبمنديلي باتجاه الجزيرة، ولما اقتربَت أكثر ناديتُ وصرخت بأعلى صوت، ثم دققت النظر فرأيت ناسًا مجتمعين في الجانب المقابل لي، وأدركت من إشارتهم باتجاهي ومن إيماءاتهم لبعضهم أنهم رأوني بوضوح، رغم أنهم لم يردوا ندائي. لكنني رأيت أربعة أو خمسة رجال يصعدون الأدراج بسرعة إلى سطح الجزيرة، ثم يختفون، وأصبتُ في ظني أنهم أرسِلوا لتلقي أوامر من شخصٍ في السلطة فيما يتعلق بهذا الوضع.

تزايد عدد الناس، وبعد أقل من نصف ساعة ارتفعت الجزيرة وتحركت بحيث بدا الطابق الأسفل على بعد أقل من مئة ياردة مني، وعلى مثل الارتفاع الذي كنت فيه. اتخذتُ أكثر الوضعيات استعطافًا، وتكلمت بالنبرة الأشد تواضعًا، دون أن أتلقى جوابًا. بدا الواقفون أشخاصًا ذوي مكانة مرموقة، تدل على ذلك ثيابهم، وأخذوا يتناقشون بحماسٍ ناظرين إليّ بين حين وآخر. أخيرًا نادى أحدهم بلهجة صافية ناعمة لطيفة، لا يختلف جَرسها عن الإيطالية، فأجبته بها آملًا أن يكون وقعها ألطف على أذنيه.

رغم أن كلًا منا لم يفهم كلام الآخر، إلا أنهم عرفوا ما أريد بسهولة بعد أن رأوا المأزق الذي كنت فيه، فأشاروا إليّ أن أنزل عن الصخرة وأتجه نحو الشاطئ، وكذلك فعلت. تحركت الجزيرة الطائرة وارتفعت إلى علوّ مناسب حتى أصبحت حافتها فوقي مباشرة، عندئذٍ أنزِلت سلسلةٌ من الطابق الأسفل مع مقعدٍ مثبت بنهايتها، تشبثتُ به، ثم رُفع إلى الأعلى بالبكرات.

الفصل الثاني

وصف طبائع اللابوتيين وعلمِهم. وصف الملك وقصره، واستقبال المؤلف هناك. مخاوف وهموم السكان. وصف النساء.

أحاط بي جمعٌ من الناس عند وصولي، بدا لي الواقفون بقربي منهم أرقى منزلةً. أخذوا ينظرون إليّ بطريقة تدل على الدهشة، ولم أكن أقل دهشةً منهم، لأنني لم أرَ من قبل عرقًا بتلك الغرابة في شكله وثيابه وهيئته. رؤوسهم كانت مائلة نحو اليمين أو اليسار، وإحدى أعينهم موجهة نحو الداخل، والأخرى نحو السماء. أما ثيابهم فمزينة برسوم شموسٍ وأقمار ونجوم، مع أخرى لكمنجاتٍ ونايات وقيثارات وأبواق وغيتارات وبيانوات وآلات موسيقية أخرى غير معروفة في أوروبا. رأيتُ هنا وهناك عددًا منهم يبدون مثل خدم، وفي أيديهم عصا قصيرة تتدلى من طرفها نُفاخة، تحوي كمية صغيرة من البازلاء المجففة أو الحصوات الصغيرة (كما علمت لاحقًا) بتلك النفاخات كانوا يصفقون بين حينٍ وآخر أفواه وآذان الواقفين بجانبهم، ولم أعرف حينئذٍ معنى ذلك الفعل. تبين فيما بعد أن عقول أولئك الناس تظل منهمكة بتأملات عميقة، مما يجعلهم عاجزين عن الكلام أو سماع أحاديث الآخرين دون أن ينبههم لمسٌ خارجي لأعضاء الكلام والسمع. لذلك السبب يوظف القادرون على تحمل التكلفة صفاقًا في العائلة على الدوام كواحد من الخدم (اسمه الأصلي كليمينول)، لا يخرجون أو يقابلون أحدًا من دونه. وظيفته، عندما يجتمع شخصان أو أكثر، أن يصفق بالنفاخة برفقٍ فمَ الذي سيتكلم، وأذن الذي، أو الذين يتحدث إليهم. وهو مسؤول أيضًا عن مرافقةِ سيده أثناء مشيه وصفقِه بخفّة على عينيه عند اللزوم، لأن انشغاله الدائم بالتفكير يجعله عرضة للسقوط عند كل منحدر أو صدم رأسه بكل لافتة، أو أن يدفع المارة في الشوارع أو يدفعه المارة فيسقط في مصرف مياه.

كان من الضروري تزويد القارئ بهذه المعلومات، لأنه سيكون من دونها عاجزًا مثلي عن فهم تصرفات أولئك الناس وهم يرشدونني عبر الأدراج نحو سطح الجزيرة، ومنه إلى القصر الملكي. بينما كنا نصعد، نسوا عدة مرات ما هم فاعلون وتركوني وحدي، إلى أن نشطت ذاكرتهم مجددًا بفضل صفاقيهم، وبدوا غير مبالين أبدًا برؤية ثيابي وملامحي الأجنبية، وبصيحات العوامّ الذين كانت أفكارهم وعقولهم أكثر تشتتًا.

دخلنا القصر أخيرًا، ودلفنا إلى قاعة الاستقبال حيث وجدتُ الملك جالسًا على عرشه، يرافقه على كل جانبٍ أشخاصٌ ذوي منزلة رفيعة، وأمام العرش كانت

طاولةٌ كبيرة مملوءة بكُرات وأدواتٍ رياضية من كل الأنواع ([54]). لم ينتبه الملك إلينا على الإطلاق رغم الضجيج الذي رافق دخولنا من تجمع سكان القصر، فقد كان عندئذٍ مشغولًا بمسألة ما، وانتظرنا ساعة على الأقل قبل أن يتمكن من حلها. كان على جانبيه خادمان شابان يحملان صفاقة في أيديهما، عندما وجداه متفرغًا صفق أحدهما فمه بلطف والآخر أذنه اليمنى، مما جعله يجفل كمن أوقظ فجأة، وبعد أن نظر إليّ وإلى الذين بصحبتي تذكر مسألة قدومنا التي تم إعلامه بها مسبقًا. تلفظ ببضع كلمات، أتى إليّ على إثرها شابٌ يحمل صفاقة، وصفق أذني اليمنى بلطف، لكنني أشرت له بقدر استطاعتي أنني لست بحاجة إلى تلك الأداة، وعلمتُ لاحقًا أن ذلك أعطى الملك والحاشية انطباعًا سيئًا عن قدراتي العقلية. سألني الملك عدة أسئلة، حسب تخميني، وقدمت نفسي إليه بكل لغة أعرفها، وعندما أصبح من الواضح ألن أفهمه أو يفهمني، أرشِدت بأمرٍ منه إلى جناح في قصره حيث كُلف خادمان بالعناية بي (كان هذا الملك متميزًا عن أسلافه بحسن ضيافته للأجانب) قُدم طعام العشاء، وشرفني بتناوله معي أربعةٌ من النبلاء تذكرت رؤيتهم سابقًا بالقرب من جلالة الملك. تناولنا وجبتين في كل منهما ثلاثة أصناف، في الأولى كتفُ خروفٍ مقطعٌ بشكل مثلثٍ متساوي الأضلاع، وقطعةُ لحم بقر بشكل متوازي أضلاع، وبودينغ بشكل مدور؛ وفي الثانية بطتان مربوطتان بشكل كمنجتين، معها نقانق وبودينغ تشبه ناياتٍ ومزامير، وصدرُ عجل بشكل قيثارة. وقطّع الخدمُ خبزنا بشكل مخاريط وأسطواناتٍ ومتوازيات أضلاع، وأشكال هندسية أخرى.

أثناء تناول العشاء أخذت أسأل عن أسماء الأشياء بلغتهم، فسُرّ النبلاء بالإجابة بمساعدة صفاقهم، آملين إثارة إعجابي بقدراتهم إن تمكنوا من تشجيعي على الحديث معهم، واستطعت خلال وقت قصير طلب الخبز والشراب وأي شيء آخر أريده.

عندما غادر ضيوفي بعد العشاء، جاء إليّ شخصٌ بأمرٍ من الملك برفقة صفاق، حاملًا معه قلمًا وحبرًا وأوراقًا، وثلاثة أو أربعة كُتب، وحاول أن يفهمني بالإشارات أنه أرسِل كي يعلمني اللغة. جلسنا معًا أربع ساعات، كتبتُ فيها عددًا كبيرًا من الكلمات في أعمدة تقابلها ترجمتها. حاولت أيضًا تعلم بعض العبارات، فكان معلمي يأمر الخادم أن يحضر شيئًا، أو يلتفت أو ينحني أو يجلس أو يقف أو يمشي، وغير ذلك، وكنت أنا أسجل الجمل كتابةً. أراني أيضًا في أحد كتبه رسومًا للشمس والقمر والنجوم والأبراج الفلكية والمدارات والدوائر القطبية، بالإضافة إلى أسماء العديد من أشكال المستويات والأجسام، وعلمني أسماء وأوصاف كل الآلات الموسيقية والمصطلحات العامة في العزف على كل منها. عندما غادر رتبت الكلمات مع ترجمتها ترتيبًا أبجديًا. وهكذا، خلال بضعة أيام، وبفضل ذاكرة شديدة الإخلاص، اكتسبتُ بعض المعرفة بلغتهم.

الكلمة التي أترجمها «الجزيرة الطائرة» أو «الطافية»، هي في اللغة الأصلية «لابوتا»، ولم أستطع أبدًا أن أعرف الأصل الصحيح لتلك الكلمة. «لاب» في اللغة القديمة تعني «مرتفع»، و«أونته» تعني «حاكم»، ويقال إن كلمة «لابوتا» اشتقت بتحوير كلمة «لابونته»، لكنني لا أتفق أبدًا مع هذا الاشتقاق الذي يبدو معقدًا بعض الشيء. وقد قررت أن أعرض على علمائهم تخميني، بأن «لابوتا» تشبه «لاب أوتد»، حيث «لاب» تعني رقص أشعة الشمس في البحر، و«أوتد» تعني جناح، لكنني على أي حال لن أفرض ذلك، بل أكتفي بعرضه على القارئ الفطِن ليحكم بنفسه.

لاحظ الخادمان المؤتمنان عليّ من قبل الملك رثاثةَ ثيابي، فأمرا خياطًا بأن يأتي في الصباح التالي ويأخذ مقاساتي من أجل صنع طقم من الثياب. أدى الخياط وظيفته بطريقة تختلف عن أصحاب تلك المهنة في أوروبا، حيث قاس طولي أولًا بمزواة ربعية، ثم رسم أبعاد وحدود جسمي كله بالمسطرة والفرجار، ودوّن ذلك على ورقة. بعد ستة أيام أحضر الثياب مصنوعة بشكل رديء وغير متناسق، لأنه أخطأ برقم في الحسابات، لكنني ارتحت عندما رأيت هذه الحادثة شائعة ولا تلفت الانتباه.

خلال فترة انعزالي بانتظار الثياب، وبسبب توعك أقعدني عدة أيام أخرى، وسعت معجمي كثيرًا، فاستطعت عند زيارتي التالية إلى القصر فهمَ العديد من الأشياء التي قالها الملك، والردَّ عليها بإجابات بسيطة. أعطى جلالته أمرًا بتحريك الجزيرة إلى الشرق والشمال الشرقي نحو النقطة الواقعة فوق لاغادو، عاصمةِ المملكة التي تقع في القارة بالأسفل. كنا نبعد عنها تسعين فرسخًا، واستمرت رحلتنا إليها أربعة أيام ونصف، لم أشعر خلالها بحركة الجزيرة في الهواء إطلاقًا.

في الصباح التالي عند الساعة الحادية عشرة، جهز الملك والنبلاء وأفراد الحاشية والموظفون آلاتِهم الموسيقية، ثم استمروا بالعزف عليها ثلاث ساعات دون انقطاع، حتى دوخني الضجيج. لم أعرف معنى ذلك، إلى أن أخبرني معلمي الخاص أن أهل جزيرتهم اعتادوا على سماع موسيقى الكواكب التي كانت تُعزف في فترات معينة، وكان كل من في القصر الآن مستعدًا للقيام بدوره في الآلة التي يتقن العزف عليها.

أثناء رحلتنا باتجاه العاصمة لاغادو، أمر الملك بإيقاف الجزيرة فوق مدن وقرى معينة من أجل استلام طلبات رعاياه، وذلك بإنزال عدد من خيوط القنب المحملة بثقل في نهايتها، يعلق الناس طلباتهم عليها، فتصعد مثل قصاصات الورق التي يثبتها الأطفال بالخيط المربوط بطائرتهم الورقية. أحيانًا كانوا يرسلون نبيذًا وطعامًا من الأسفل فيُسحب إلى الأعلى بالبكرات.

أعانتني معرفتي بالرياضيات وشيءٍ من الموسيقا على تعلم أسلوبهم اللغوي، الذي يعتمد على هذين العلمين. فهم يعبرون عن أفكارهم بواسطة الخطوط والأشكال، وإذا أرادوا مديح جمال امرأة على سبيل المثال، أو أي مخلوق آخر، يصفونه باستخدام المعينات والدوائر ومتوازيات الأضلاع والإهليلجات ومصطلحات هندسية أخرى، أو بمصطلحات تقنية متعلقة بالموسيقى لا داعي لذكرها هنا. وقد رأيت في مطبخ القصر أدواتٍ موسيقيةً ورياضية من كل نوع، يقطعون على شكلها اللحوم التي تقدم على مائدة جلالة الملك.

بيوتهم مبنية بشكل رديء، جدرانها مائلة، لا يوجد بين أي اثنين منها في أي بيت زاويةٌ قائمة، وينتج هذا الخلل من الازدراءِ الذي يكنونه للهندسة التطبيقية بوصفها علمًا ميكانيكيًا مبتذلًا، ومن التعليماتِ المعقدة التي يعطونها للعمال وتعتبر أعلى من قدراتهم العقلية، مما يؤدي إلى ارتكاب أخطاء دائمًا. رغم براعتهم في استخدام المسطرة والقلم والفرجار على الورق، إلا أنهم في الأفعال العادية وأسلوب حياتهم أكثر الناس بعدًا عن الإتقان وأقلهم مهارة، وهم أكثر الناس بطءًا وتشتتًا في إدراك جميع أمور الحياة فيما عدا الرياضيات والموسيقى. إنهم مناقشون سيئون، ومدفوعون إلى المعارضة بعنفٍ إلا عندما يتفقون مع الرأي الصحيح، وذلك نادر الحدوث. الخيال والذوق والاختراع أشياء غريبة عنهم تمامًا، ولا يوجد في لغتهم أي كلمة يمكن التعبير بها عن هذه المفاهيم، وكل مدى أفكارهم وعقولهم محصور في العلمَين المذكورَين سابقًا.

يؤمن معظمهم بالتنجيم، خاصة المهتمون بعلم الفلك، رغم أنهم يخجلون من الاعتراف بذلك علنًا. لكن ما أثار إعجابي، رغم كونه شيئًا غير قابل للتفسير، هو اهتمامهم الشديد بالأخبار والسياسة، حيث يسألون باستمرار عن الشؤون العامة، ويدلون بآرائهم في شؤون الدولة، ويناقشون بحماس كل تفصيلٍ من رأي حزب ما. لاحظت كذلك الميل نفسه لدى معظم علماء الرياضيات الذين عرفتهم في أوروبا، رغم أنني لم أرَ أبدًا أي شبه بين هذين العلمين، إلا إذا كان أولئك الناس يعتقدون أن وجود العدد نفسه من الدرجات في أكبر الدوائر وأصغرها، يعني بالتالي أن إدارةَ العالم وتنظيمَه لا يتطلبان قدراتٍ أكبر من الإمساك بمجسّم كرة أرضية وتدويره. لكنني أرجح أن هذه الصفة نابعةٌ عن علة شائعة في الطبيعة البشرية، تجعلنا نميل إلى الفضول والاعتداد بالنفس في مسائل لا تخصنا البتة، ولسنا مؤهلين لها سواء من حيث التعليم أو الطبيعة.

يرزح أولئك الناس تحت وطأة قلق مستمر، ولا يتمتعون بلحظةٍ من راحة البال. ينجم ذلك عن أسبابٍ ذات تأثير قليل على باقي البشر، هي عبارة عن تغيرات معينة يخشون حدوثها في الأجرام السماوية، منها أن الشمس، باقترابها الدائم من الأرض، لا بد أن تبتلعها أو تمتصها مع الوقت ([55]) ؛ أن وجه الشمس سوف يغطى بانبعاثاتها نفسها، وستتوقف عن إرسال الضوء إلى العالم؛ أن الأرض

تجنبت بأعجوبة تماسًا مع ذيل المذنب الأخير كان سيحولها إلى رماد لا محالة، وقد حسبوا أن المذنب التالي سيدمرنا على الأرجح بعد إحدى وثلاثين سنة من ذلك الوقت، لأنه إذا اقترب في حضيضه ([56]) من الشمس لدرجة معينة (لديهم حسابات تجعلهم يخشون حدوث ذلك)، سيحمل درجة حرارة أعلى بعشرة آلاف مرة من حديد متوهج، وبغيابه عن الشمس سوف يملك ذيلًا مشتعلًا طوله مليون وأربعة عشر ميلًا، وإذا مرت الأرض على بعد مئة ألف ميل عن نواة أو جسم المذنب، ستشتعل النار فيها وتتحول إلى رماد؛ أن الشمس بإنفاقها أشعتها كل يوم دون أي مغذّ يعوضها، سوف تُستهلك تمامًا في النهاية وتتلاشى، ولا بد أن يرافق ذلك دمار الأرض وكل الكواكب التي تستمد الضوء منها.

خوفهم الدائم من تلك الأخطار الوشيكة وسواها يجعلهم لا يهنؤون بالنوم في أسرتهم، ولا يتلذذون بمباهج الحياة ومتعها. عندما يلتقون بأحد معارفهم في الصباح يبدؤون بالسؤال عن صحة الشمس، كيف بدت عند غروبها وشروقها، وما الآمال التي يملكونها في تجنب ضربة المذنب القادم. وهم يخوضون في تلك الأحاديث بالانفعال نفسه الذي يعتري صبية لسماعهم قصصًا مرعبة عن العفاريت والغيلان، إذ يستمعون إليها بانتباه، ويعجزون عن النوم من شدة خوفهم.

نساء الجزيرة مفعمات بالحيوية، يمقتن أزواجهن ويعجبن بالغرباء، الذين يأتي عدد كبير منهم من القارة الدنيا إلى القصر دومًا، إما من أجل شؤون البلدات والمجالس البلدية، أو لمصالحهم الخاصة، لكنهم مكروهون بسبب افتقارهم إلى الملكات الذهنية نفسها التي يملكها أهل الجزيرة. من بين هؤلاء تختار النساء عشاقهن. لكن المغيظ في الأمر أنهن يتصرفن بثقة وتلقائية بسبب انهماك الزوج بالتفكير دائمًا، حتى أن الزوجة وعشيقها قد يصلان إلى درجة كبيرة من الحميمية أمام عينيه، إن لم يكن بحوزته سوى أوراقه وأدواته، ولم يكن صفاقه إلى جانبه.

تشتكي الزوجات والبنات من عزلتهن في الجزيرة، رغم أنني وجدتها أروع بقعة في العالم، ورغم أنهن يعشن فيها في وفرة ورخاء ويسمح لهن بفعل ما يشأن. لكنهن تواقات إلى رؤية العالم وتجربة مباهج العاصمة، التي لا يسمح لهن بزيارتها دون إذن خاص من الملك. لكن ليس من السهل الحصول على ذلك الإذن، لأن النبلاء اكتشفوا بعد تجارب متكررة صعوبة إقناع نسائهم بالرجوع من الأسفل. سمعت عن امرأة مرموقة من القصر، كان لها عدة أولاد، ومتزوجة من الوزير الأول، الرجلِ الأغنى في المملكة، وهو شخص شديد الوسامة ويحبها حبًا جمًا، ويسكن في أفضل مكان على الجزيرة؛ أنها نزلت إلى لاغادو بحجة صحتها، واختبأت هناك عدة أشهر، حتى أصدر الملك أمرًا بالبحث عنها، فعُثر عليها في مطعم رخيص ترتدي أسمالًا، بعد أن رهنت ثيابها للإنفاق على

خادم مسن قبيح كان يضربها يوميًا، وكانت بصحبته دون إرادتها. وبالرغم من أن زوجها استقبلها بكل اللطف الممكن، ودون كلمة عتاب، تمكنت بعد وقت قصير من التسلل إلى الأسفل مجددًا مع كل مجوهراتها، وذهبت إلى زير النساء نفسه، ولم يسمع عنها شيء منذ ذلك الوقت. ربما يظنها القارئ قصة أوروبية أو إنكليزية، ولم تحدث في بلد قصيّ، لكن ليأخذْ بعين الاعتبار أن نزوات النساء ليست محدودة بإقليم أو شعب معين، وأنهن أكثر تشابهًا مما يمكن أن نتخيل.

خلال شهر تمكنت من إتقان لغتهم إلى حدٍ ما، واستطعت الإجابة على معظم أسئلة الملك عندما حصل لي الشرف بلقائه. لم يظهر الملك أي رغبة بالسؤال عن القوانين أو الحكومة أو التاريخ أو الدين أو العادات في البلدان التي زرتها، بل اقتصرت أسئلته على حالة العلوم الرياضية، وتلقى الوصف الذي قدمته بكثير من الازدراء واللامبالاة، رغم تنبيه صفاقَيه من الجانبين.

الفصل الثالث

تفسير إحدى الظواهر بواسطة علم الفيزياء وعلم الفلك. تقدم اللابوتيين في الأخير. أسلوب الملك في كبت الثورات.

طلبتُ إذنًا من الملك لرؤية غرائب الجزيرة، فتكرم بمنحي إياه، وأمر معلمي الخاص بمرافقتي. كنت أود بشكل خاص أن أعرف السبب الصناعيّ أو الطبيعي لحركاتها المتعددة، وسأعطي القارئ وصفًا علميًا لها.

الجزيرة الطائرة، أو الحائمة، مستديرة تمامًا، قطرها ٧٨٣٧ ياردة أو ما يعادل أربعة أميال ونصف، وبالتالي تبلغ مساحتها عشرة آلاف فدان. سماكتها ثلاثمئة ياردة، وسماكة طبقتها السفلية، التي تبدو لمن ينظر إليها من الأسفل صفيحة مستوية متجانسة من الأدَمَنْت ([57])، تبلغ حوالي مئتي ياردة. توجد فوقها طبقات المعادن العديدة في ترتيبها المعتاد، وفوق كل ذلك طبقة من التراب الكثيف عمقها عشرة أو اثنتا عشرة قدمًا. يعدّ ميلان السطح العلوي من المحيط نحو المركز سببًا طبيعيًا لنقل كل الندى والأمطار التي تهطل على الجزيرة في جداول صغيرة لتصب في أربعة أحواض كبيرة محيط كل منها نصف ميل، وتبعد مئتي ياردة عن المركز، يتبخر الماء منها باستمرار بتأثير الشمس أثناء النهار مما يمنع فيضانها بشكل فعال. بالإضافة إلى أن الملك يستطيع أن يرفع الجزيرة فوق مستوى الغيوم والتبخر، فيمنع بذلك سقوط الندى والأمطار متى أراد. لأن أعلى الغيوم لا يرتفع أكثر من ميلين، كما يتفق علماء الطبيعة، أو على الأقل لم يعرف حدوث ذلك في هذا البلد.

توجد في مركز الجزيرة فجوةٌ قطرها خمسون ياردة، ينزل منها علماء الفلك إلى قبة ضخمة تسمى «فلاندونا غاغنولي» أو «كهف علماء الفلك»، تقع على عمق مئة ياردة تحت السطح العلوي من طبقة الأدَمَنْت. يضيء ذلك الكهفَ عشرون قنديلًا باستمرار، ينعكس نورها في الأدَمَنْت فتنتشر ضوءًا قويًا في كل ركن. تملأ المكانَ أنواع من السداسيات والرباعيات والمناظير والأسطرلابات وأدوات فلكية أخرى. لكن أغربها، والذي يعتمد عليه مصير الجزيرة، هو حجر مغناطيس عملاق شكله مثل مكّوك النسيج، طوله ست ياردات، ومحيط أثخن موضع فيه ثلاث ياردات على الأقل، معلق بواسطة محور قوي من الأدَمَنْت يمر من مركزه الذي يتحرك حوله، وهو متوازن تمامًا، مما يجعل أضعف يد قادرة على تدويره. تحيط بالحجر أسطوانة من الأدَمَنْت، طولها أربعة أقدام، وثخانتها مثل ذلك، وقطرها اثنتا عشرة ياردة، موضوعة بشكل أفقي، وتستند إلى ثمانية أعمدة من الأدَمَنْت، طول كل منها ست ياردات. في منتصف وجهها المقعر يوجد ثلم عمقه اثنا عشر إنشًا، يرتكز فيه طرفا المحور، ويدار عند الحاجة.

لا يمكن لأي قوة أن تحرك ذلك الحجر من مكانه، لأن الأسطوانة وقواعدها عبارة عن قطعة واحدة متواصلة مع الجسم الأدَمَنْتي الذي يشكل قاعدة الجزيرة. بواسطة ذلك المغناطيس يمكن رفع الجزيرة أو خفضها، أو تحريكها من مكان إلى آخر، لأنه يملك في أحد طرفيه قوة جاذبة بالنسبة إلى أرض المملكة التي يحكمها الملك، وقوة نابذة في الطرف الآخر. عند وضع المغناطيس شاقوليًا بتوجيه طرفه الجاذب نحو الأرض، تنخفض الجزيرة، أما حين يوجه طرفه النابذ نحو الأسفل ترتفع الجزيرة شاقوليًا نحو الأعلى. عندما تكون وضعية المغناطيس مائلة تكون حركة الجزيرة مائلة كذلك، لأن قوة ذلك المغناطيس تؤثر بخطوط موازية لاتجاهه.

بواسطة تلك الحركة المائلة تنتقل الجزيرة إلى أنحاء مختلفة من أراضي المملكة، ولشرح طريقة حركتها، ليكن AB خطًا مرسومًا عبر أراضي بالنيباربي، وليكن cd خطًا يمثل حجر المغناطيس، وليكن d طرفه النابذ وc طرفه الجاذب. لنفترض أن الجزيرة فوق C، وليكن الحجر في الوضعية cd وطرفه النابذ نحو الأسفل، عندئذ ترتفع الجزيرة بشكل مائل نحو D. عندما تصل إلى D، لنقل أن الحجر أدير حول محوره حتى أشار طرفه الجاذب نحو E، عندها ستتحرك الجزيرة بشكل مائل نحو E. ومن هناك إذا أدير الحجر مجددًا حول محوره حتى يقف في وضعية EF وطرفه النابذ نحو الأسفل، سترتفع الجزيرة بشكل مائل نحو F. ومن هناك، بتوجيه الطرف الجاذب نحو G، ستتجه الجزيرة نحو G. ثم تنتقل من G إلى H، بإدارة الحجر بحيث يصبح طرفه النابذ نحو الأسفل مباشرة. هكذا، بتغيير وضع الحجر كلما دعت الحاجة، ترتفع الجزيرة وتنخفض بالتناوب في اتجاه مائل، وبذلك الارتفاع والانخفاض المتناوب (على اعتبار الميلان مهملًا)، تنتقل الجزيرة من أحد أطراف المملكة إلى الآخر. لا بد من الإشارة إلى أن هذه الجزيرة لا يمكن أن تتحرك أبعد من حدود أراضي المملكة في الأسفل، ولا يمكن أن ترتفع أكثر من أربعة أميال. يعزو علماء الفلك ذلك (وقد ألفوا أبحاثًا كثيرة بخصوص الحجر) إلى أن الخاصية المغناطيسية لايمتد تأثيرها مسافةً أكثر من أربعة أميال، وأن المعدن الذي يؤثر في الحجر ويقع في باطن الأرض وفي البحر على مسافة ستة فراسخ من الشاطئ، ليس منتشرًا في كل الكوكب، بل ينتهي عند حدود تلك المملكة. بفضل ذلك الوضع المتفوق كان من السهل على الملك أن يخضع أي بلد يقع في مجال جذب ذلك المغناطيس.

عندما يوضع الحجر بشكل يوازي الأفق تتوقف الجزيرة عن الحركة، لأن طرفيه في تلك الحالة يبعدان عن الأرض المسافة ذاتها، فيؤثران بقوتين متساويتين إحداهما تشدها نحو الأسفل والأخرى تدفعها نحو الأعلى، بالتالي لا ينتج عن ذلك أي حركة.

يخضع ذلك المغناطيس لإشراف علماء فلك معينين، يغيرون وضعيته من وقت لآخر كما يأمر الملك. وهم يمضون الجزء الأكبر من حياتهم في رصد الأجرام السماوية بواسطة عدسات تتفوق كثيرًا على عدساتنا من حيث الجودة. فرغم أن طول أكبر مناظيرهم لا يتجاوز ثلاثة أقدام، إلا أنه يقرب أكثر من مئة من مناظيرنا، ويظهر النجوم بوضوح أشد. مكنتهم هذه الميزة من توسيع اكتشافاتهم لتفوق اكتشافات علمائنا في أوروبا. لقد صنعوا قائمة بعشرة آلاف نجم ثابت، بينما لا تحوي أكبر قائمة لدينا أكثر من ثلث ذلك العدد. اكتشفوا كذلك قمرين تابعين يدوران حول المريخ، يبعد أقربهما عن مركز الكوكب مسافة تساوي ثلاثة أضعاف قطره بالضبط، وأبعدهما خمسة أضعاف. تستغرق دورة الأول حول نفسه عشر ساعات، والثاني واحدًا وعشرين ساعة ونصف. بذلك تكون النسبة بين مربعَي فترتيهما الدوريتين قريبة جدًا إلى نسبة مكعبَي بعديهما عن مركز المريخ. مما يظهر بوضوح أنهما يخضعان لقانون الجاذبية نفسه الذي يؤثر على الأجرام السماوية الأخرى ([58]).

لقد رصدوا ثلاثةً وتسعين مذنبًا مختلفًا، وحسبوا فترات دورانها بدقة كبيرة. إن كان ذلك صحيحًا (وهم يؤكدونه بثقة كبيرة) فأتمنى أن تنشر ملاحظاتهم، كي تساعد نظرية المذنبات -التي هي الآن ضعيفة ومغلوطة- على اللحاق بكمال أقسام أخرى من علم الفلك.

بوسع الملك أن يتمتع بسلطة مطلقة يتفوق بها على أي ملك آخر، إذا استطاع إقناع الوزراء بالانضمام إليه، لكن أولئك بسبب وجود أملاكهم في الأسفل على القارة، وباعتبار وظيفة المقربين من الملك لها أمد غير مؤكد، لا يقبلون أبدًا باستعباد بلادهم.

إذا انخرطت أي مدينة في عصيان أو تمرد، أو انقسمت إلى فصائل متناحرة، أو رفضت دفع الضريبة المعتادة، يستطيع الملك إعادة سكانها إلى الطاعة بوسيلتين؛ الأولى والأكثر تساهلًا هي إبقاء الجزيرة محلقة فوق تلك المدينة والأراضي المحيطة بها، مما يحرمهم الانتفاعَ بالشمس والمطر، فتلحق بهم المجاعة والأمراض. وإذا كانت جريمتهم تستحق أكثر من ذلك، يُرمَون في الوقت نفسه بحجارة كبيرة من الأعلى، فلا يملكون أي وسيلة للدفاع عن أنفسهم إلا بالاختباء في سراديب أو كهوف، بينما تتحول أسقف بيوتهم إلى حطام. أما إذا استمروا بالعصيان أو حاولوا إشعال ثورة، يلجأ الملك إلى الحل الأخير، وهو ترك الجزيرة تنزل فوق رؤوسهم مباشرة، مما يسبب دمارًا شاملًا للبيوت والناس على حد سواء. لكنه نادرًا ما يجد نفسه بحاجة إلى استخدام ذلك القدر من العنف، ولا يرغب بتنفيذه أصلًا. أما وزراؤه فلا يجرؤون على نصحه بفعل ذلك، لأنه سيجلب عليهم كره الناس، ويسبب دمارًا كبيرًا لممتلكاتهم التي توجد جميعها في الأسفل، لأن الجزيرة ملكٌ للملك.

يوجد سبب أهم يجعل الملك يأبى دومًا تنفيذ هذا الحكم الرهيب إلا عند الضرورة القصوى، فلو أن في المدينة التي ينوي تدميرها صخورًا طويلة، كما هو معتاد في المدن الكبيرة -وهو شيء يتم اختياره منذ البداية لمنع حدوث هذه الكارثة- أو أبراجًا عالية أو أعمدةً من الحجر، يمكن للهبوط المفاجئ أن يعرض السطح السفلي للجزيرة للخطر. ورغم أنه مكون من صفيحة كاملة من الأدَمَنْت ثخنها مئتا ياردة، إلا أنه يمكن أن يتصدع بفعل صدمة شديدة، أو ينفجر بعد الاقتراب كثيرًا من النيران في البيوت في الأسفل، كما قد يحدث للدعامات الحديدية أو الحجرية لمداخننا. يعلم الناس ذلك جيدًا، ويعرفون إلى أي مدىً يستطيعون المضيّ في عنادهم حين تصبح حريتهم أو ممتلكاتهم في خطر. أما الملك، حين يستفَز إلى أقصى حدّ ويصمم على سحق المدينة إلى حطام، يأمر بإنزال الجزيرة ببطء شديد متظاهرًا بالرأفة برعاياه، لكن ذلك في الواقع خوفًا من كسر القاعدة الأدَمَنْتية، الذي سيجعل المغناطيس عاجزًا عن حملها، باتفاق العلماء، فتسقط كل الجزيرة إلى الأرض.

قبل ثلاث سنوات من وصولي إلى هناك، وبينما كان الملك في جولة حول مملكته، حدث شيء غير معتاد كان يمكن أن يشكل نهاية لذلك النظام الملكي، على الأقل بشكله الحالي. بدأ الملك رحلته بزيارة ليندالينو ([59])، المدينة الثانية في المملكة. بعد ثلاثة أيام من مغادرته قام السكان -الذين كثيرًا ما اشتكوا من الظلم والقمع- بإغلاق بوابات المدينة والقبض على المحافظ. وبنَوا بسرعة وجهد كبيرَين أربعة أبراج ضخمة، يقع كل منها في إحدى زوايا المدينة ذات الشكل المربع، وطولها يساوي طول صخرة صلدة مدببة تقع في مركز المدينة تمامًا، ثم وضعوا على قمة الصخرة وقمة كل برجٍ مغناطيسًا كبيرًا. تحسبًا لفشل خطتهم أمنوا كمية كبيرة من أكثر أنواع الوقود قابلية للاشتعال، آملين أن يحرقوا به السطح السفلي الأدَمَنْتي للجزيرة إذا فشلت خطة حجر المغناطيس.

مرت ثمانية أشهر قبل أن يعلم الملك بثورة الليندالينيين، فأمر عندئذٍ بأن تحلق الجزيرة فوق المدينة. كان الناس متضامنين، وقد خزنوا مؤونة كافية، وعندهم نهر كبير يمر من وسط المدينة، بينما حلق الملك فوقهم أيامًا عدة لحرمانهم من الشمس والمطر. عندما أمر بإنزال عدد من خيوط القنب لم يرسل أحد منهم استرحامًا، بل طلباتٍ جريئةً بتعويض كل مظالمهم، ومنحهم حصانة من المحاكمة، وحقَّ اختيار المحافظ بنفسهم، ومطالب جامحة أخرى. مما جعل جلالته يأمر كل سكان الجزيرة برمي المدينة بحجارة كبيرة من الطابق السفلي، لكن السكان احترزوا من الأذى بالانتقال مع حاجياتهم إلى الأبراج الأربعة ومبانٍ حصينة أخرى، وسراديب تحت الأرض.

صمم الملك عندئذٍ على القضاء على أولئك الناس الأباة، فأمر بإنزال الجزيرة ببطء إلى ارتفاع أربعين ياردة عن قمة الأبراج والصخرة. نفذ المسؤولون الأمر، لكنهم وجدوا أن الهبوط كان أسرع من المعتاد، وأنهم عند تدوير حجر المغناطيس لم يستطيعوا تثبيته في مكانه إلا بصعوبة كبيرة، ووجدوا الجزيرة موشكة على السقوط. أرسلوا إلى الملك خبرًا مستعجلًا بذلك الحدث المدهش، وتوسلوا إليه أن يأذن برفع الجزيرة. وافق الملك، وعقد مجلسًا استشاريًا أمر مسؤولي حجر المغناطيس بحضوره. طلب أكبرهم سنًا وأكثرهم خبرة إذنًا بإجراء تجربة، بينما كانت الجزيرة تحلق فوق المدينة وتعلو على نطاق القوة الجاذبة التي شعروا بها، فأخذ خيطًا متينًا طوله مئة ياردة وربط بنهايته قطعة أدَمَنْت يدخل في تكوينها خليط من معدن حديدي من مثل طبيعة مكونات السطح السفلي للجزيرة، وأنزله من طابقها الأسفل ببطء باتجاه قمة الأبراج. لم تكد القطعة تنزل أربع ياردات عندما شعر بها تنجذب بقوة نحو الأسفل، وبالكاد استطاع شدها إليه. ثم رمى عدة قطع صغيرة من الأدَمَنْت، ولاحظ أنها انجذبت بقوة نحو قمة البرج. أجريت تلك التجربة على الأبراج الثلاثة الأخرى والصخرة، فوجدوا النتيجة نفسها.

أفشلت تلك الحادثة تدابير الملك تمامًا، ودون إطالة في التفاصيل، اضطر إلى تنفيذ مطالب أهل المدينة.

لقد أكد لي أحد كبار الوزراء أن الجزيرة لو هبطت إلى مسافة أقرب إلى المدينة ولم تستطع الارتفاع مجددًا، كان السكان مصممين على تثبيتها إلى الأبد، وقتل الملك وكل خدمه، وتغيير الحكومة كليًا.

بحسب أحد القوانين الرئيسية في هذه المملكة، لا يسمح للملك أو لأي من ولديه الكبيرين بمغادرة الجزيرة، كذلك الأمر بالنسبة إلى الملكة إلى أن تتجاوز سن الإنجاب.

الفصل الرابع

يغادر المؤلف لابوتا إلى بالنيباربي، يصل إلى العاصمة. وصف العاصمة وريفها. يستقبله لورد مرموق بترحيب. حديثه مع ذلك اللورد.

لا يمكنني أن أدعي أن معاملتي أسيئت في تلك الجزيرة، مع ذلك أعترف أنني وجدت نفسي مهمَلًا، بشكل لا يخلو من بعض الازدراء. فلم يبدُ على الملك أو الناس أي فضول تجاهي في أي موضوع سوى الرياضيات والموسيقا، اللذين كنت فيهما أقل معرفةً منهم بكثير، مما جعلني لا أحظى بكثير من الاهتمام.

من ناحية أخرى، كنت متلهفًا لمغادرة الجزيرة بعد أن رأيت كل معالمها، بسبب ضجري الشديد من أولئك الناس. لا شك أنهم متفوقون في علمَين أحمل لهما تقديرًا كبيرًا، وأعرف عنهما الكثير؛ لكنهم في الوقت ذاته كانوا دائمي الذهول والاستغراق في التفكير، حتى أنني لم أقابل قط أشخاصًا أكثر إزعاجًا منهم. لم أحدث سوى النساء والتجار والصفاقين وخدم القصر خلال إقامتي التي دامت شهرين، فأصبحتُ بذلك جديرًا بالازدراء، لكن أولئك كانوا الوحيدين القادرين على إعطائي أي إجابة منطقية.

كنت قد اكتسبت بالدراسة الجادة معرفةً جيدة بلغتهم، وتعبت من البقاء في جزيرة ألقى فيها قليلًا من الترحيب، لذلك عزمت على مغادرتها عند أول فرصة.

كان في القصر لورد تربطه صلة قرابة بالملك، ولهذا السبب وحده يعامَل باحترام، إلا أن الجميع يعدونه أجهل وأغبى شخص بينهم. لقد أدى خدمات بارزة للملك، وهو يتمتع بمواهب بارزةٍ طبيعية ومكتسبة، يعضدها الشرف والنزاهة، لكنه يفتقر إلى أي مهارة موسيقية، حتى أن منتقديه يقولون إنه كثيرًا ما يخرج عن الإيقاع، ولم يستطع أساتذته أن يعلموه إلا بصعوبة كبيرة برهنةَ أبسط النظريات الرياضية. كان يلقاني بترحابٍ دومًا، وكثيرًا ما يأتي لزيارتي، فيسأل عن الأمور في أوروبا، وعن قوانين وعادات وأعراف وعلوم البلاد الكثيرة التي سافرت إليها، ثم يستمع إليّ بانتباه شديد، ويلقي ملاحظاتٍ حكيمةً على كل ما أقول، بينما يرافقه صفاقان شكليًا، إلا أنه كان لا يستخدمهما إلا في القصر وخلال الزيارات الرسمية، ويأمرهما بالمغادرة دومًا عندما نجلس على انفراد.

ناشدت هذا الشخص المرموق أن يتوسط من أجلي لدى جلالته كي يأذن لي بالمغادرة، فأخبرني أنه سيفعل ذلك آسفًا، بعد أن قدم إلي عدة عروض مغرية للبقاء رفضتها بامتنان شديد.

في السادس عشر من فبراير ودعت الملك والقصر، فأهداني الملك ما قيمته مئتا باوند إنكليزي، ونسيبةُ الداعم لي ضعفَ ذلك، بالإضافة إلى رسالة توصية إلى صديق له في العاصمة لاغادو. كانت الجزيرة في ذلك الوقت تحلق فوق جبل يبعد حوالي ميلين عنها، فأنزلوني من الطابق الأسفل بالطريقة نفسها التي رُفعت بها.

تسمى القارة الخاضعة لحكم الجزيرة الطائرة «بالنيباربي»، أما العاصمة فاسمها لاغادو كما أسلفت. شعرت بالراحة حين وجدت نفسي واقفًا على أرض ثابتة، ومشيت إلى المدينة دون أي قلق، لأنني كنت ألبس مثل ثياب السكان وتعلمت لغتهم بما يكفي كي أحادثهم. سرعان ما عثرت على منزل اللورد الذي أوصي بي إليه، فسلمته رسالة صديقه النبيل من الجزيرة، واستقبلني بترحيب. كان اسمه «مونودي»، وقد أمر بتجهيز جناح في بيته أقمت فيه خلال بقائي، وأكرم وفادتي.

في الصباح التالي بعد وصولي، أخذني في عربته لرؤية المدينة، التي تعدل مساحتها نصف مساحة لندن. لكنني وجدت البيوت فيها مبنية بشكل بالغ الغرابة، ومعظمها بحاجة إلى الترميم. كان الناس يمشون في الشوارع مسرعين، يبدو عليهم الغضب، وأعينهم شاخصة وأغلبهم يرتدي أسمالًا. عبرنا إحدى بوابات المدينة، وقطعنا مسافة ثلاثة أميال في الريف، حيث رأيت الكثير من العمال يشتغلون في الأرض بأدوات عديدة، لكنني لم أستطع معرفة ما يسعون لفعله، ولم أر أي إشارة لنمو حبّ أو عشب، رغم أن التربة بدت ممتازة. شعرت بالدهشة إزاء هذه المشاهد الغريبة في المدينة والريف على حد سواء، وتجرأت على سؤال مرافقي عن معنى وجود هذا العدد من الرؤوس والأيادي والوجوه المشغولة، سواء في الشوارع أو في الحقول، لأنني لم أر أي نتائج جيدة لعملهم؛ بل على العكس، لم أر قط تربة محروثة بمثل هذه الرعونة ([60])، أو بيوتًا أسوأ بناءً أو أكثر تهدمًا، أو ناسًا تدل هيئتهم وسلوكهم على هذا القدر من التعاسة والعوز.

كان اللورد مونودي شخصًا رفيع المستوى، شغل منصب محافظ لاغادو بضع سنوات، لكنه عُزل من منصبه بسبب عصابة من الوزراء اتهموه بعدم الكفاءة. وقد تساهل الملك معه، بوصفه رجلًا ذو نية حسنة لكن قليل الذكاء.

عندما انتقدتُ البلد وسكانه بصراحة، لم يجب بأكثر من أنني لم أقض بينهم وقتًا كافيًا كي أحكم عليهم، وأن شعوب العالم المختلفة لها عادات مختلفة، إلى جانب حجج أخرى بنفس المعنى. لكنه عندما عدنا إلى قصره سألني عن رأيي في بنائه، وعما رأيته من عيوب، وما لديّ من انتقادات على مظهر ولباس خدمه. كان يستطيع سؤالي مطمئنًا، لأن كل شيء عنده كان رائعًا ومنظمًا وأنيقًا، فأجبته بأن حكمة سيادته ورقيّه وغناه أعفته من تلك النقائص التي

يسببها الغباء والفقر في الآخرين. قال إنني إن قبلت أن أذهب معه إلى بيته الريفي حيث تقع مزرعته، على بعد عشرين ميلًا، سيكون لدينا متسع أكبر لهذا النوع من الأحاديث. قلت لحضرته إنني تحت تصرفه، وعلى ذلك انطلقنا في الصباح التالي.

خلال رحلتنا، لفتَ نظري إلى الطرق العديدة التي يستخدمها الفلاحون في الاعتناء بأرضهم، وقد بدت لي غير نافعة على الإطلاق، لأنني لم أر قرنًا من الذرة أو ورقة عشب سوى في أماكن قليلة. لكن المشهد تغير تمامًا بعد ثلاث ساعات من السفر، إذ دخلنا إلى ريفٍ رائع، حيث بيوت الفلاحين متقاربة ومبنية بعناية، والحقول مسورةٌ، تحوي كرومَ عنب وحقولَ ذرة ومروجًا. لا أذكر أنني رأيت مشهدًا أجمل منه. عندما رأى سيادته ملامحي تشرق، أخبرني متنهدًا أن مزرعته تبدأ هناك وتستمر بهذا الشكل حتى نصل إلى بيته، لكن أهل بلده يسخرون منه ويزدرونه لعدم إدارة شؤونه بشكل أفضل، ولتقديمه مثالًا سيئًا للمملكة، لا يتبعه على أي حال سوى قلة مسنون وعنيدون وضعفاء مثله.

وصلنا أخيرًا إلى المنزل، الذي كان بناءً بهيًا، مبنيًا وفقًا لأفضل قواعد العمارة القديمة. كانت النوافير والحدائق والممرات والطرقات والبساتين كلها منسقةً بقرار وذوق دقيقين. امتدحتُ كل ما رأيته مديحًا يليق بروعته، لكن حضرته لم يعلق على ذلك على الإطلاق إلا بعد العشاء عندما لم يكن معنا أحد، حيث أخبرني بحزنٍ أنه على الأرجح سيهدم بيوته في المدينة والريف ليعيد بناءها على الطراز الحديث، وأنه سيدمر كل النباتات، ويشكل بعضها حسب متطلبات الاستخدام الحديث، ويعطي أمرًا بمثل ذلك إلى المستأجرين لديه، إلا إذا قبل تحملَ الاتهام بالتكبر والتفرد والتكلف والجهل والانزواء، وربما، زيادةَ استياء جلالته منه.

قال إن دهشتي ستتناقص أو تختفي حين يخبرني ببعض التفاصيل التي لم أسمع عنها في القصر، حيث يظل الناس مأخوذين بأفكارهم الخاصة فلا يأبهون بما يحدث هنا في الأسفل.

مختصر حديثه كان كالتالي؛ قبل أربعين عامًا تقريبًا، صعد بعض الناس إلى لابوتا، إما من أجل عمل أو بهدف التسلية، وبعد إقامة خمسة أشهر عادوا بعلمٍ سطحي وناقص بالرياضيات، لكن مليئين بأمزجة متقلبة اكتسبوها في تلك المنطقة الشاهقة. باتوا بعد عودتهم يبغضون طريقة عمل كل شيء في الأسفل، وأخذوا يخططون لوضع أسس جديدة لكل الفنون والعلوم واللغات والحرَف. لذلك حصلوا على رخصة ملكية من أجل إنشاء أكاديمية المخترعين في لاغادو، وقد أثرت تلك النزوة بقوة على الناس حتى لم تعد أي مدينة تخلو من مثل هذه المؤسسة، التي يحاول العلماء فيها اختراع قواعد وأساليب جديدة للزراعة والبناء، وصناعة أدوات وآلات جديدة لكل حرفة وصنعة؛

باستخدامها سوف يستطيع الرجل آن ينجز عمل عشرة رجال، ويصبح من الممكن بناء قصر في أسبوع من مواد شديدة المتانة، تدوم إلى الأبد دون إصلاح، وكل ثمار الأرض سوف تنضج في أي موسم نختاره، وتزداد مئة مرة عما هي في الحاضر، إلى جانب عديد من المقترحات الرائعة الأخرى. المشكلة الوحيدة هي أن أيًا من هذه المشاريع لم ينجح بعد، وإلى أن يتم ذلك، يعيش البلد في حالة دمار مأساوي، فالبيوت مهدمة والناس دون طعام أو ثياب. وبدل أن يثبطهم كل ذلك يصممون أكثر بخمسين مرة على تنفيذ خططهم، مدفوعين إلى ذلك بالأمل واليأس على حد سواء. أما عن نفسه، بما أنه لا يملك روح مغامر، فقد قرر أن يعمل بالأساليب القديمة، أن يعيش في المنازل التي بناها أسلافه، ويتصرف مثلهم في كل ناحية من حياته دون إبداع. قال إن قلة آخرين من النبلاء فعلوا المثل، لكنهم أصبحوا موضع ازدراء وكره بوصفهم أعداء للفن وجهلةً ومواطنين سيئين، يفضلون راحتهم وكسلهم على التطوير العام لبلادهم.

أضاف حضرة اللورد أنه لن يفسد بمزيد من التفاصيل المتعةَ التي سأشعر بها بلا شك عند رؤية الأكاديمية، وأصر على أن أذهب إليها. ثم طلب مني أن أنظر إلى بناء متهدم في طرف الجبل يبعد ثلاثة أميال، وحكى لي عنه التالي؛ كان يملك طاحونة على مسافة نصف ميل من منزله، يحركها فرعٌ من نهر كبير، وتكفي احتياجات عائلته وعدد كبير من المستأجرين لديه. حتى أتت إليه قبل سبع سنوات جماعةٌ من أولئك المخترعين يقترحون هدم الطاحونة، وبناء واحدة غيرها في طرف الجبل على حرفٍ سوف تُحفر فيه قناة طويلة من أجل تخزين المياه، التي ستُنقل إلى هناك بأنابيب وآلات لإمداد الطاحونة. ذلك لأن الرياح والهواء في المرتفعات تهيج المياه وتجعلها مهيأة أكثر للحركة، ولأن الماء حين ينزل في منحدر سوف يدير الطاحونة بنصف تيار النهر اللازم لتحريكها، لأن مجراه أقل انحدارًا. قال إنه لم يكن حينئذٍ على علاقة طيبة مع القصر، فقبل العرض بعد إصرار عدد من أصدقائه. وبعد أن وظف مئتي رجل لمدة سنتين، فشل المشروع، وغادر المخترعون تاركين اللوم يقع عليه كليًا، وظلوا يسخرون منه منذ ذلك الوقت. وقد جعلوا آخرين يمرون بالتجربة نفسها، بالقدر نفسه من الوعد بالنجاح، والقدر نفسه من خيبة الأمل.

بعد أيام قليلة عدنا إلى المدينة، لكن حضرته قرر ألا يذهب معي بنفسه بسبب سمعته السيئة في الأكاديمية، بل أوصى بي صديقًا له كي يصحبني إلى هناك. وقد قدمني إليه بوصفي شخصًا محبًا للاختراع، وصاحب فضول وذهن منفتح. ولم يكن ذلك بعيدًا عن الحقيقة، فقد كنت مخترعًا بشكلٍ ما في سنوات شبابي.

الفصل الخامس

يسمح للمؤلف برؤية أكاديمية لاغادو ([61]). وصف مفصل للأكاديمية. الأعمال التي تشغل العلماء هناك.

ليست الأكاديمية بناءً واحدًا متكاملًا، بل سلسلةً من المنازل على جانبي الطريق، تم شراؤها واستخدامها لذلك الغرض بعد أن أصبحت مهجورة. استقبلني البواب بترحيب، وظللت أذهب إلى هناك عدة أيام، حيث وجدتُ في كل غرفة عالمًا أو أكثر، وأظن أنني مررت على ما لا يقل عن خمسمئة غرفة.

أول عالمٍ رأيته كان رجلًا ضئيلًا، وجهه ويداه ملوثة بالسخام، وشعر رأسه ولحيته طويل وأشعث ومحروق في عدة أماكن، أما ملابسه وقميصه وبشرته فكانت كلها باللون نفسه. لقد أمضى ثمان سنوات عاكفًا على مشروع لاستخراج أشعة الشمس من الخيار، يفترض أنها ستعبأ في قوارير، وتغلق بإحكام، ثم تطلق لتدفئ الهواء في فصول الصيف الباردة القاسية. أخبرني بثقة أنه خلال السنوات الثمان القادمة سوف يصبح قادرًا على تزويد حدائق المحافظ بأشعة الشمس بسعر مناسب. لكنه اشتكى من قلة مخزونه، وناشدني أن أعطيه شيئًا كتشجيع على الإبداع، خاصة أن الموسم كان فقيرًا بالخيار. قدمت إليه هبة بسيطة من مالٍ أمدني به سيدي النبيل لهذا الغرض، لأنه يعرف عادتهم بالتسول من كل من يذهب لرؤيتهم.

دخلت إلى غرفة أخرى، وكدت أخرج منها مسرعًا بعد أن باغتتني رائحة مروعة. لكن مرافقي حثني على المتابعة، وناشدني هامسًا ألا أسبب أي إهانة قد تثير الاستياء، فلم أجرؤ حتى على سد أنفي. كان العالِم في تلك الغرفة أقدمَ طالب في الأكاديمية، لون وجهه ولحيته أصفر شاحب، ويداه وثيابه ملطخة بالقذارة. عندما قُدمت إليه ضمني بشدة (وكنت سأعذره لو لم يفعل) منذ دخوله إلى الأكاديمية وهو يعمل على إرجاع البراز البشري إلى الطعام الأصلي، عن طريق فصل مكوناته المختلفة، وإزالة الصبغة التي تلقاها من الصفراء، وتبخير الرائحة، وفصل اللعاب. وكان يتلقى دعمًا أسبوعيًا من المجتمع، عبارةً عن وعاء بحجم برميل كالذي يصنع في بريستول، مملوءٍ ببراز بشري.

رأيت عالمًا آخر يعمل على تكليس الجليد ليصيّره بارودًا، وأراني بحثًا قد كتبه عن ليونة النار كان يخطط لنشره. وكان هنالك معماريّ فذّ، اخترع طريقة جديدة لبناء المنازل بالبدء من السقف والعمل نزولًا حتى الأساس، وأيد ذلك لي بالأساليب المشابهة للحشرتين الأكثر حكمة، النحل والعنكبوت.

كان ثمة رجل ولد ضريرًا، ولديه عدة متدربين عندهم الحالة نفسها، وظيفتهم هي خلط الألوان للرسامين، وقد علمهم أستاذهم تمييزها من خلال اللمس

والشم. من سوء حظي أنني وجدتهم في ذلك الوقت غير متقنين لدروسهم، وبدا الأستاذ نفسه مخطئًا بشكل عام. يلقى هذا الفنان تشجيعًا وتقديرًا من قبل الأخوية كلها.

في حجرة أخرى أعجبني مخترعٌ وجد طريقةً لحراثة الأرض باستخدام الخنازير، بهدف توفير كلفة المحراث والمواشي وأجر العمال. الطريقة كالتالي: على مساحة فدان من الأرض تُدفن كميةٌ من البلوط والتمر والكستناء، ومكسرات أو خضراوات أخرى مما تفضله تلك الحيوانات، متباعدةً ستة إنشات وعلى عمق ثمانية. ثم يدخل ستمئة خنزير أو أكثر إلى الحقل، فينبشون الأرض كلها خلال بضعة أيام بحثًا عن طعامهم، مما يجعلها جاهزة للبذار، ويسمدونها بروثهم في الوقت ذاته. لكن التجربة أثبتت أن كلفة ذلك ومشقته كبيرة، ولم ينتج عنه من المحصول شيء يذكر، لكن لا شك أن ذلك الاختراع قابل لتطوير كبير.

دخلت إلى غرفة أخرى تغطي سقفَها وجدرانها شباكُ عناكب لم تترك سوى ممر ضيق للمخترع كي يدخل ويخرج. عند دخولي نادى عليّ بصوت عالٍ ألا أخرب شباكه. لقد عاب الخطأ الجسيم الذي يرتكبه العالم منذ زمن طويل باستخدام دودة القز، بينما نملك وفرة من الحشرات المنزلية التي تتفوق عليها بقدرتها على النسج بالإضافة إلى الغزل، واقترح أن استخدام العناكب سيوفر كلفة صبغ الحرير، وقد اقتنعت بذلك تمامًا عندما أراني عددًا كبيرًا من ذباب ذي ألوان رائعة، يقدمه طعامًا لعناكبه، وأكد لنا أن الخيوط ستأخذ الصبغة منه. وبما أنه يملك كل الألوان منها، فهو يأمل أن يرضي أذواق الجميع، حالما يستطيع العثور على طعام مناسب للذباب من أصماغ مختلفة وزيوت ومواد غروية أخرى، لإعطاء قوة وتماسك للخيوط.

كان ثمة عالم فلك يسعى إلى وضع ساعة شمسية على دوارة الرياح الكبيرة فوق مبنى البلدية، عن طريق مزامنة الحركة اليومية والسنوية للأرض والشمس، بحيث توافق كل التحركات العرضية للرياح.

كنت أشكو من تشنج بسيط في أمعائي، فأدخلني مرافقي إلى غرفة يشغلها طبيب مرموق، يشتهر بعلاج ذلك المرض عن طريق استخدامين متعاكسين لأداة واحدة. كان لديه منفاخ كبير له فوهة طويلة رفيعة من العاج، أكد أنه بإدخالها مسافة ستة إنشات عبر فتحة الشرج وسحب الغازات بها، يستطيع أن يجعل الأمعاء ضامرة مثل مثانة مجففة. أما حين يكون المرض أكثر عنادًا وعنفًا، يدخل الفوهة بعد أن يملأ المنفاخ بالهواء، ويفرغه في جسم المريض، ثم يسحبه لإعادة نفخه بينما يضغط بإبهامه بقوة على فتحة المؤخرة، وبتكرار ذلك ثلاث أو أربع مرات، تخرج الغازات المرَضية بقوةٍ طاردةً معها السموم (مثل مياه وضعت في مضخة)، ويتعافى المريض. شاهدته يجري التجربتين على كلب، فلم أجد للأولى أي أثر عليه، لكنه بعد الثانية أوشك على الانفجار، ثم

أفرغ أمعاءه بعنفٍ بشكل مقزز لي ولمن معي، ومات على الفور، وتركنا الطبيب يحاول إنعاشه بالعملية نفسها.

زرت الكثير من الغرف الأخرى، لكنني لن أضجر القارئ بكل الغرائب التي رأيتها، لحرصي على الإيجاز. لقد رأيت حتى ذلك الوقت جانبًا واحدًا من الأكاديمية، وكان الثاني مخصصًا لرواد العلم النظري، سأحكي المزيد عنه بعد أن أذكر شخصًا بارزًا آخر يدعونه «الفنان العالمي»، أخبرنا أنه منذ ثلاثين سنة عاكف على توظيف أفكاره لتحسين الحياة البشرية. كان لديه غرفتان كبيرتان مليئتان بالغرائب، وفيهما خمسون رجلًا منكبين على العمل، بعضهم يكثف الهواء إلى مادة جافة ملموسة باستخلاص النترات وترشيح الجزيئات المائية أو السائلة، وبعضهم الآخر يلين الرخام لصنع وسائد ووسائد الدبابيس، وآخرون يحجّرون حوافر حصان حيّ لحفظها من الالتهاب. وكان الفنان نفسه في ذلك الوقت مشغولًا بمشروعين كبيرين: الأول هو زراعة الأرض بقشر الحنطة، وقد أكد على احتوائه على الوظيفة البذرية، مؤيدًا ذلك بتجارب عديدة لم أملك قدرة كافية على استيعابها. والثاني هو استخدام مركب من الصمغ والمعادن والنباتات بشكل خارجي لمنع نمو الصوف على حملين صغيرين، وكان يأمل أن يستطيع زيادة نسل الخرفان العارية في المملكة كلها.

عبرنا نحو الجزء الآخر من الأكاديمية، حيث يقيم رواد العلم النظري، كما قلت سابقًا.

أول عالمٍ رأيته كان موجودًا في غرفة كبيرة، محاطًا بأربعين تلميذًا. بعد التحية، لاحظ أنني أنظر بفضول إلى لوحٍ يشغل معظم الغرفة طولًا وعرضًا، وقال إنني قد أعجب من رؤيته يعمل على مشروع لتطوير العلم النظري بطرقٍ عملية وآليّة، لكن لن يطول الوقت قبل أن يدرك العالم فائدتها، وقد أطرى على نفسه قائلًا إنه لم يخطر على بال بشر من قبل أنبل أو أسمى من هذه الفكرة. الجميع يعرف كم هي متعبةٌ الطريقة التقليدية في اكتساب العلوم والفنون، لكن اختراعه سيمكّن أجهل الناس، بكلفة معقولة وقليلٍ من الجهد الجسدي، من تأليف كتب في الفلسفة والشعر والسياسة والقانون والرياضيات واللاهوت، دون حاجة للاستعانة بالذكاء أو بالعلم. أرشدني إلى اللوح الذي كان وسط الغرفة، ويقف حوله كل طلابه في صفوف. مساحته عشرون قدمًا مربعة، وسطحه مكون من قطع خشبية عديدة حجمها يشبه أحجار النرد، لكن بعضها أكبر من الآخر، وتربط بينها أسلاك رقيقة. على سطح كل منها ألصقت ورقة، وعلى تلك الأوراق كتبت كل الكلمات في لغتهم بصيغها وأزمنتها وتصاريفها المختلفة، دون أي ترتيب معين. طلب مني العالم عندها أن أنتبه، لأنه سوف يبدأ بتشغيل آلته. أمسك كل طالب عند إشارته أحد المقابض الحديدية الأربعين المثبتة على جوانب اللوح، ودوروها بشكل مفاجئ فتغير

ترتيب الكلمات تمامًا. ثم طلب من ستة وثلاثين من الشبان أن يقرؤوا بهدوء الأسطر الظاهرة على اللوح، وكلما وجدوا ثلاث أو أربع كلمات قد تشكل جزءًا من جملة، أملوها على الصبية الأربعة الباقين الذين يتولون مهمة الكتابة. كرروا هذا العمل ثلاث مرات أو أربع، وعند كل دورة كانت الكلمات في ذلك اللوح متقن الصنع تتحرك إلى أماكن جديدة، بينما تتنقل القطع الخشبية في كل الاتجاهات.

ينشغل الطلاب بهذا العمل ست ساعات في اليوم، وأراني البروفيسور عدة مجلدات من الورق الكبير جمعت بالفعل من جمل مكسرة، ينوي وصلها معًا ليقدم إلى العالم من هذه المواد الثرية مرجعًا شاملًا لكل الفنون والعلوم. لكن بإمكان ذلك أن يصبح أسرع وأكثر تطورًا، إذا جمع الناس مالًا لصنع وتشغيل خمسمئة لوح مشابه في لاغادو، وفرضوا على مشغليها مشاركة مجموعاتهم فيما بينهم.

لقد أكد لي أن هذا الاختراع شغل كل تفكيره منذ شبابه، وأنه وضع كل الكلمات على اللوح، وحسب بدقة شديدة التناسب الموجود في الكتب بين عدد الأحرف والأسماء والأفعال، وأقسام أخرى من اللغة.

عبرت عن امتناني العميق لذلك الشخص اللامع على شرحه المستفيض، ووعدته أنني إن حظيت بالعودة إلى بلدي، سأوفيه حقه بوصفه المخترع الوحيد لهذه الآلة الرائعة، وطلبت منه إذنًا لأرسم شكلها وآلية عملها على ورقة كما في الرسم المرفق. أخبرته أن بالرغم من عادة المتعلمين في أوروبا بسرقة إنجازات بعضهم ([62])، حيث يستفيدون على الأقل من الجدل المثار حول المالك الحقيقي للاختراع، إلا أنني سأتوخى الحذر، كي يكون له المجد بكامله دون منافس.

ذهبنا بعد ذلك إلى مدرسة اللغات، حيث جلس ثلاثة علماء يناقشون طرقًا لتحسين لغة بلادهم. الطريقة الأولى كانت بتقصير الأحاديث من خلال اختصار الكلمات كثيرة المقاطع إلى مقطع واحد، والتخلي عن الأفعال والمشتقات، لأن كل الأشياء التي يمكن تخيلها ما هي في الحقيقة سوى أسماء.

الطريقة الثانية كانت مخططًا للقضاء على كل الكلمات تمامًا، وقد أكدوا على منفعته الكبيرة سواء من الناحية الصحية أو من حيث الإيجاز، لأن من الواضح أن كل كلمة ننطقها تشكّل إلى حد ما تقلصًا لرئاتنا بسبب التآكل ([63])، فتسهم بالتالي في تقصير حياتنا. لذلك، نظرًا إلى أن الكلمات هي مجرد أسماء للأشياء، سيكون الحل الأنسب هو أن يحمل كل الناس معهم الأشياء الضرورية للتعبير عن الموضوع الذي يتحدثون بشأنه. وكان تطبيق هذا الاختراع سيوفر الراحة والصحة للأفراد، لولا أن النساء والعوامّ والأميين هددوا بالقيام بثورة،

إذا لم تترك لهم حرية التكلم بألسنتهم على طريقة أسلافهم؛ هكذا هم العوامّ، عدو دائم للعلم. على أي حال، يلتزم كثير من كبار العلماء والحكماء بالطريقة الجديدة للتعبير عن أنفسهم باستخدام الأشياء، التي ترافقها مشكلة وحيدة، هي أن الشخص إذا أراد الحديث في موضوع واسع ومتنوع، يضطر إلى حمل مجموعة كبيرة من الأشياء على ظهره، إلا إذا كان قادرًا على تحمل كلفة توظيف خادم أو خادمين قويين لمرافقته. لقد رأيت مرارًا اثنين من أولئك الحكماء يكادان يختفيان تحت ثقل أحمالهما، مثل الباعة الجوالين لدينا، وحين يلتقيان في الطريق ينزلان حمليهما، يفتحان الكيسين ويبدآن بالحديث طوال ساعة، ثم يوضبان أدواتهما ويساعدان بعضهما في حمل الأشياء ويتودعان. من أجل الأحاديث القصيرة يمكن للشخص أن يحمل ما يكفيه من أدوات في جيبه أو تحت ذراعيه. أما في المنزل فلا يمكن أن ينقصه شيء، حيث تكون الغرفة التي يلتقي فيها الضيوف الذين يمارسون هذا الفن مليئة بالأشياء الموجودة في متناول اليد، جاهزة لتأمين مادة لذلك النوع من أحاديث صناعية.

الميزة الأخرى لهذا الاختراع، هي أنه سيكون لغة عالمية مفهومة لدى كل الشعوب المتحضرة، التي تتماثل بينها الأشياء والأدوات أو تتشابه، بحيث يُفهم استخدامها بسهولة. وبذلك يكون السفراء مؤهلين للتعامل مع ملوك أجانب أو رؤساء وزراء يجهلون لغتهم تمامًا.

زرت مدرسة الرياضيات، حيث يعلّم الأستاذ تلاميذه بطريقة يصعب علينا تخيلها في أوروبا. تكتب المسألة والبرهان على رقاقاتٍ باستخدام حبر مصنوع من دواء للرأس، فيبتلعها الطالب على معدة فارغة، ولا يأكل شيئًا في الأيام الثلاثة التالية سوى الخبز والماء. بينما يقوم الماء بالهضم ينتقل الدواء إلى الدماغ حاملًا معه المسألة. لكن نجاح تلك الطريقة لم يثبت بعد، جزء من ذلك يعود إلى خطأ في الكمية أو التركيب، والجزء الآخر إلى عناد الشباب الذين يجدون الجرعة مثيرةً للغثيان، فيتسللون إلى مكانٍ ما ويطرحونها من الأعلى قبل أن تعطي مفعولًا، ولم يقتنعوا بعد بالامتناع عن الطعام للمدة التي تحتاجها الوصفة.

الفصل السادس

تتمة وصف الأكايمية. يقترح المؤلف بعض التحسينات، تقبل منه بامتنان.

لم أجد في مدرسة المخترعين السياسيين ما يشدني، فقد بدا العلماء فاقدين لرشدهم تمامًا، وهو مشهد يشعرني بالحزن دائمًا. كان أولئك التعساء يقترحون سبلًا لإقناع الملوك باختيار المقربين منهم على أساس حكمتهم وقدراتهم وفضيلتهم؛ لتعليم الوزراء مراعاة المصلحة العامة؛ لمكافأة الجدارة والقدرات العالية والخدمات البارزة؛ لتعليم الأمراء معرفة مصلحتهم الحقيقية، بوضعها على أساس واحد مع مصالح رعاياهم؛ لاختيار موظفين مؤهلين لأداء تلك الوظائف؛ وكثير غيرها من الأوهام المستحيلة التي لم تخطر على بال بشر من قبل. وقد أكد ذلك انطباعي القديم، بأنه لا يوجد شيء متطرف أو لاعقلاني لم يدافع عنه بعض الفلاسفة كحقيقة.

على أي حال ينبغي أن أنصف هذا الجزء من الأكاديمية، وأقر بأن من فيها لم يكونوا حالمين مثل غيرهم. كان بينهم طبيب فذٌ بدا ضليعًا بطبيعة ونظام الحكم، وقد وظف أبحاثه بنجاحٍ في إيجاد أدويةٍ فعالةٍ لكل العلل وصنوف الفساد التي تتعرض لها مختلف الإدارات العامة بسبب رذائل أو أمراض الحكّام، إضافةً إلى استهتار أولئك الذين يطيعونهم. لأنه إذا كان الكتّاب والمفكرون متفقون على وجود تشابه كبير بين الجسم الطبيعي والسياسي، فهل يدل ذلك على شيء أكثر وضوحًا من ضرورة استخدام الوصفات نفسها للحفاظ على صحة كليهما وعلاج أمراضهما؟ من المعروف أن أعضاء مجلس الشيوخ وكبار المستشارين كثيرًا ما يعانون من سوائل جسم فائضةٍ وملتهبة وفاسدة، مع أمراضٍ عديدة في الرأس، وأخرى أكثر في القلب، واختلاجاتٍ شديدة وانقباضاتٍ مؤلمة في أعصاب وأوتار اليدين، خاصة في اليمنى ([64]) ؛ مع كآبة وغازات، ودوارٍ وهذيان؛ مع عقدٍ لمفاوية مليئة بمادة نتنة متقيحة، وتجشؤاتٍ عنيفة مزبدة، وفجعٍ وعسر هضم، وأشياء أخرى لا داعي لذكرها. لذلك اقترح الطبيب، أن يحضُرَ أطباءٌ معينون الأيامَ الثلاثة الأولى من جلسة اجتماع مجلس الشيوخ، ويجسوا نبض كل نائب عند نهاية النقاش كل يوم، وبعد أن يتأملوا بعمق ويناقشوا طبيعة الأمراض الموجودة وطرقَ العلاج، يعودون في اليوم الرابع إلى المجلس برفقة صيادلتهم حاملين الأدوية المناسبة. قبل أن يجلس الأعضاء، يعطون كلًا منهم مسكناتٍ، ملييناتٍ، مسهلاتٍ، كاوياتٍ، قابضاتٍ، مهدئاتٍ، مضاداتِ صداع، مضاداتِ يرقان، طارداتِ بلغم، أدويةً للصمم؛ بحسب متطلبات حالاتهم المختلفة. وبحسب تأثير تلك الأدوية، يكررون الجرعة أو يعدلونها أو يلغونها في الاجتماع التالي.

ليس للمشروع كلفة كبيرة على المجتمع، وقد يكون له، برأيي المتواضع، فائدة كبيرة في إنجاز الأعمال في البلاد التي يشارك فيها مجلس الشيوخ في السلطة التشريعية. حيث يضمن الاتفاق، ويقصر المناقشات، ويفتح بعض الأفواه المغلقة الآن، ويغلق أخرى كثيرة كانت مفتوحة، ويقوّم نزقَ الشباب، ويلطف عناد الكبار، وينبه الغبي، ويضبط الوقح.

بالإضافة إلى ذلك، بناءً على الشكوى المستمرة من معاناة المقربين من الملوك من ذاكرة قصيرة وضعيفة، اقترح الطبيب نفسه على أي شخصٍ، بعد أن يجتمعَ بالوزير الأول ويعرضَ مسألته باختصار شديد وكلمات واضحةٍ، أن يقرص الوزير المذكور قبل مغادرته قرصةً من أنفه، أو يركله في بطنه، أو يدوس مسمار قدمه، أو يجذبه ثلاث مرات من أذنيه، أو يخزه بدبوس في مؤخرته، أو يقرص ذراعه قرصة شديدة، من أجل تفادي النسيان. وتكرر العملية نفسها عند كل اجتماع، إلى أن ينجز الطلب أو يرفض رفضًا قطعيًا.

نصح كذلك بأن يُلزم كل نائبٍ في أكبر مجلس في الأمة، بعد أن يدلي برأيه ويقدم دفاعه عنه، بالتصويت على نقيض ما قاله، لأن ذلك بالتأكيد سيجعل النتيجة في صالح المجتمع.

لقد قدم طريقة رائعة لمصالحة أحزاب الدولة عندما يدب خلاف عنيف بينهم، هي كالتالي: تأخذ مئة قائدٍ من كل حزب، وترتبهم اثنينِ اثنينِ ممن تتقارب أحجام رؤوسهم، ثم تجعل جراحَين ماهرَين يقصان مؤخر رأسَي كل اثنين في الوقت ذاته، بحيث يُقسم الدماغ نصفين متساويين، ثم تبدَّل الأقذال المقطوعة، ويوضع كلٌ منها على رأس الرجل المقابل من الحزب الآخر. يبدو ذلك بالطبع عملًا يتطلب بعض الدقة، لكن الطبيب أكد لنا أنه إذا أنجز بمهارة، سيتم الشفاء لا محالة. وعلل ذلك بأن نصفَي الدماغين حين يُتركان ليناقشا المسألة بينهما ضمن مساحة الجمجمة الواحدة، سرعان ما سيتفاهمان، ويحققان اعتدالًا وانتظامًا في التفكير، وهو شيء مطلوب في فكر أولئك الذين يظنون أنهم جاؤوا إلى العالم لمجرد مشاهدة حركته والتحكم بها. أما بالنسبة إلى الاختلاف بين الأدمغة في الكم والنوع بين رؤساء النزاع الحزبي، أكد لنا الطبيب من معرفته الخاصة، أنه شيء لا يذكر.

سمعت نقاشًا محتدمًا بين مخترعَين عن الطرق الأكثر ملاءمة وفاعلية لجباية الأموال دون إنهاك الرعايا. أكد الأول أن الطريقة الأعدل هي فرض ضريبة على الرذائل والحماقات، ويقدر المبلغ المفروض على كل شخص بطريقة عادلة من قبل لجنة من جيرانه. وكان رأي الثاني مناقضًا تمامًا، وهو أن تفرض ضريبة على الصفات الجسدية والعقلية التي يقدّرها الناس في أنفسهم بشكل خاص، ويعتمد المبلغ على درجة تفوقهم فيها، التي يترك لهم قرار تقديرها بالكامل. تفرض الضريبة الأعلى على الرجال المفضلين لدى الجنس الآخر، حيث يستند

التقييم إلى عدد وطبيعة اللفتات التي تلقوها، ويسمح لهم أن يقدروا ذلك بأنفسهم. كذلك اقترح فرض ضريبة على الفطنة والشجاعة والتهذيب تجبى بالطريقة نفسها، بأن يشهد كل شخص على مقدار ما يملكه. أما بالنسبة إلى الشرف والعدالة والحكمة والعلم، فلا تفرض عليها أي ضريبة، لأنها صفات من نوع مميز لن يعترف أي شخص بوجودها عند جاره، أو يقدر وجودها في نفسه.

اقترح أن تفرض الضرائب على المرأة لجمالها وحسن ملبسها، ولها الحق مثل الرجل بتقدير ذلك بنفسها. لكن الإخلاص والعفة ورجاحة العقل ودماثة الأخلاق لا تفرض عليها أي ضريبة، لأنها لن تغطي تكلفة جبايتها.

من أجل ضمان عمل أعضاء مجلس الشيوخ بما يتفق مع مصالح القصر، اقترحوا إجراء قرعة على المناصب الشاغرة، حيث يؤدي كل عضو قَسمًا أولًا، ويتعهد بالتصويت لصالح القصر سواء فاز أم لم يفز. يسمح للخاسرين بدورهم إجراء قرعة على الشاغر التالي. بذلك يبقى الأمل والترقب حيًا، ولا يتذمر أحد من إخلاف وعود قُطعت له، بل يعزو خيبته كاملةً إلى الحظ الذي يملك أكتافًا أعرض وأقوى من أي وزارة.

أراني عالمٌ آخر ورقةً كبيرة فيها تعليمات لاكتشاف المؤامرات والخطط المعادية للحكومة، نصحَ فيها كبارَ رجال الدولة بمراقبة النظام الغذائي لكل المشتبه بهم، وأوقات طعامهم، وعلى أي جانب ينامون في السرير، وبأي يد يمسحون مؤخراتهم؛ وأن يفحصوا برازهم بدقة، ومن خلال اللون والرائحة والطعم والقوام والخشونة وتمام الهضم، يستطيعون تشكيل فكرة عن أفكارهم ونواياهم، لأن الإنسان لا يكون أبدًا جديًا ومنتبهًا ومصممًا كما يكون عندما يتغوط. وقد اكتشفَ ذلك بتجارب متكررة، فكان عندما يفكر أثناءَ ذلك الفعل -لمجرد التجربة- بأفضل طريقة لقتل الملك، يخرجُ برازه مائلًا إلى الأخضر، لكن ذلك اختلف عندما فكر بمجرد إشعال ثورةٍ أو إحراق العاصمة.

كان البحث كله مكتوبًا بذكاء بالغ، ويحوي ملاحظاتٍ عديدةً غريبة ومفيدة للسياسيين، لكنني وجدتها غير مكتملة. تجرأت على قول ذلك للمؤلف، وعرضت عليه أن أزوده ببعض الإضافات، إن رغب بذلك، فتلقى عرضي بتعاونٍ أكبر مما هو معتاد لدى الكتّاب، خاصة الذين هم من جماعة المخترعين، وأكد أنه سيسر بمعرفة أي معلومات إضافية.

أخبرته أن في مملكة تريبنيا ([65])، التي تسمى بلغة السكان «لانغدن» ([66])، حيث أقمتُ فترة طويلة، كان معظم الشعب مؤلفًا من شهود وواشين ومفترين ومدعين ومجدفين، بالإضافة إلى المغفلين من أتباعهم ومرؤوسيهم، كلهم تحت راية وأمر وتمويل الوزراء أو نوابهم. المؤامرات في تلك المملكة تكون عمومًا من صنع الأشخاص الراغبين بترسيخ صورتهم بوصفهم سياسيين

مخضرمين، وبتجديد قوة السلطة الفاسدة، وكبت أو تشتيت الاستياءات العامة، وملء الخزينة بالأملاك المصادرة ([67])، ورفع أو خفض التصنيف الائتماني كما يتفق مع مصالحهم الخاصة. أول ما يتم الاتفاق والإقرار عليه بينهم هو أي الأشخاص المشتبه بهم سوف يتهم بالتآمر، ثم تؤخذ الإجراءات اللازمة لمصادرة كل رسائلهم وأوراقهم الأخرى، وإلقاء القبض عليهم. تؤخذ هذه الأوراق إلى مجموعة مختصين في اكتشاف المعنى الخفي للكلمات والمقاطع الصوتية والأحرف. على سبيل المثال: يفسرون «كرسي المرحاض» على أنه مجلس ملكي خاص، «سرب إوز»: مجلس الشيوخ، «كلب أعرج»: عدو غازٍ، «الطاعون»: جيش، «صقر حوام» ([68]) : وزير، «داء النقرس»: رجل دين، «مشنقة»: وزير خارجية، «مبولة»: مجلس النبلاء، «غربال»: سيدة قصر، «مكنسة»: ثورة، «مصيدة فئران»: منصب، «هوة بلا قرار»: الخزينة، «مستنقع»: القصر، «قبعة وأجراس»: أحد المقربين، «عصا مكسورة»: محكمة العدل، «برميل فارغ»: جنرال، «عاهة دائمة»: الحكومة.

عندما تفشل هذه الطريقة، يملكون طريقتين فعالتين أخريين، بالأولى يمكنهم تأويل حروف أوائل الكلمات بمعانٍ سياسية، وعلى ذلك تمثل ن: مؤامرة، ب: كتيبة فرسان، ل: أسطول في البحر. بالطريقة الثانية يمكنهم اكتشاف أدق مخططات الأحزاب المعادية بتبديل مواقع الحروف في أي ورقة مشبوهة. على سبيل المثال: إذا كتبتُ لصديق في رسالة: «حمار الجار تذوق المؤونة»، يمكن لشخص متمرس في هذا المجال أن يكتشف أن حروف هذه الجملة نفسها يمكن أن تشكل الكلمات التالية: «قاوموا – نجحت المؤامرة - ذا تور». عبر لي البروفيسور عن امتنانه لتزويده بتلك المعلومات، ووعدني بأن يذكرني في بحثه.

لم أر في تلك البلاد شيئًا يدعوني لأطيل إقامتي، فبدأت أفكر بالعودة إلى إنكلترا.

الفصل السابع

يغادر المؤلف لاغادو، ويصل إلى مالدونادا. لا يجد سفينة جاهزة للإبحار، فيذهب في رحلة قصيرة إلى غلبْدبْدرِب. استقباله هناك من قبل المحافظ.

أعتقد أن القارة التي تقع فيها المملكةُ تمتد من جهة الشرق حتى تلك القارة الأمريكية المجهولة، غرب كاليفورنيا وشمال المحيط الهادي، الذي لا يبعد أكثر من مئة وخمسين ميلًا عن لاغادو، حيث يوجد ميناء جيد وتجارة نشطة مع جزيرة لغناغ، الواقعة إلى الشمال الغربي ([69]) على خط العرض ٢٩ شمالًا وخط الطول ١٤٠. تقع جزيرة لُغناغ هذه جنوب شرق اليابان وتبعد عنها حوالي مئة فرسخ، ويوجد حلف قوي بين ملكها والإمبراطور الياباني، مما يوفر فرصًا متكررة للإبحار من إحدى الجزيرتين إلى الأخرى. لهذا السبب قررت أن أتجه إلى هناك من أجل العودة إلى أوروبا، فاستأجرتُ بغلين، ومرشدًا ليدلني على الطريق ويحمل متاعي القليل، وودعتُ راعيّ النبيل الذي أظهر مودة كبيرة وقدم لي هبة سخية عند رحيلي.

خلتْ رحلتي من أي حدث أو مغامرة تستحق الذكر. عندما وصلتُ إلى ميناء مالدونادا (هذا هو اسمه) لم أجد سفينة متجهة إلى لُغناغ، ولم يبدُ أن أي سفينة ستبحر إليها في وقت قريب. كانت مساحة المدينة تقارب مساحة بورتسماوث، وسرعان ما التقيت فيها ببعض المعارف الذين استقبلوني بحفاوة. قال لي رجل مرموق، إذا كانت السفن المتجهة إلى لُغناغ لن تنطلق قبل شهر، قد يكون من الممتع أن أذهب في رحلة إلى جزيرة غلبْدبْدرِب الصغيرة التي تبعد خمسة فراسخ إلى الجنوب الغربي، وعرض عليّ أن يرافقني مع صديق له، وأن يؤمن مركبًا صغيرًا مناسبًا للرحلة.

تعني كلمة «غلبْدبْدرِب» بترجمة تقريبية جزيرةَ السحرة أو المشعوذين، تعدل مساحتها ثلث مساحة جزيرة وايت، وهي خصبة جدًا. يحكمها رئيس إحدى القبائل، وهم جميعًا من السحرة. لا يتزوج أهل هذه القبيلة إلا من بعضهم، وأكبرهم سنًا هو الأمير أو الحاكم، يمتلك قصرًا بهيًا وحديقة مساحتها ثلاثة آلاف فدان، محاطة بجدار من حجر منحوت طوله عشرون قدمًا، وفيها عدة أقسام صغيرة من أجل الماشية والحبوب والبستنة.

يرافق ويخدم الحاكمَ وعائلتَه خدمٌ من نوع غير اعتيادي، لأنه بفضل مهارته في استحضار الأرواح، يملك القدرة على استدعاء من يريد من الموتى، وتسخيرهم لخدمته أربعًا وعشرين ساعة، لكن ليس لوقت أطول، ولا يستطيع استدعاء الشخص نفسه مجددًا قبل مضيّ ثلاثة أشهر، إلا في ظروف استثنائية.

عندما وصلنا إلى الجزيرة، قرابة الحادية عشرة صباحًا، ذهب أحد الرجلين اللذين كانا بصحبتي إلى الحاكم، وطلب إذنًا بدخول شخص أجنبي أتى ليتشرف بزيارة جلالته. مُنح إذنًا بذلك على الفور، ودخل ثلاثتنا بوابة القصر بين صفين من حراس مسلحين يرتدون ثيابًا عجيبة، وشيءٌ ما في ملامحهم جعل جلدي يقشعرّ من رعبٍ لا أستطيع وصفه. مررنا عبر عدة حجرات بين خدم من النوع نفسه، مصطفين على الجانبين كمن قبلهم، حتى وصلنا إلى قاعة آلاستقبال، حيث سمح لنا، بعد ثلاث انحناءات عميقة وعدة أسئلة عامة، أن نجلس على مقاعد بقرب الدرجة الدنيا من عرش سموّه. كان يفهم لغة بالنيباربي رغم اختلافها عن لغة جزيرته، فطلب مني أن أحكي له القليل عن رحلاتي، ولكي يريني أنني سأعامل دون رسمياتٍ صرفَ كل حراسه بحركة من إصبعه جعلتهم يختفون على الفور، مثل رؤىً في حلم عندما نستيقظ فجأة. أدهشني ذلك كثيرًا، ولم أتمالك نفسي إلا بعد بعض الوقت، حين طمأنني الحاكم أنني لن أصاب بأذى. عندما رأيت صاحبيّ لا يبدو عليهما أي قلق، وقد تم استقبالهما من قبل بالطريقة نفسها، بدأت أستعيد شجاعتي، وحكيت لجلالته موجزًا عن مغامراتي العديدة، ولم يخلُ حديثي من بعض الترددِ والالتفاتِ خلفي مرارًا إلى المكان الذي رأيت فيه أولئك الخدم الأشباح. تشرفت بتناول العشاء مع الحاكم، حيث قدم اللحمَ مجموعةٌ جديدة من الأشباح، وقاموا على خدمة المائدة. لاحظت عندها أن رعبي قلّ عما كان في الصباح. بقيت هناك حتى الغروب، لكنني طلبت من جلالته بتواضع أن يعذرني في عدم قبول دعوته للإقامة في قصره، وأقمت مع صاحبيّ في منزل في مدينة مجاورة هي عاصمة تلك الجزيرة الصغيرة، وعدنا في اليوم التالي من أجل أداء واجب التحية للحاكم، كما أمرنا.

بقينا في الجزيرة على هذا المنوال عشرة أيام، نقضي معظمَ كل نهار مع الحاكم، والليلَ في مسكننا. سرعان ما اعتدتُ رؤية الأشباح، حتى أنهم بعد المرة الثالثة أو الرابعة لم يحركوا فيّ أي شعور على الإطلاق، أو ربما طغى فضولي على أي مخاوف بقيت لدي، فقد أمرني جلالة الحاكم أن أستدعي أي أشخاص أختارهم من بين كل الموتى منذ بداية العالم حتى الوقت الحاضر، ثم آمرَهم بإجابة أي سؤال يخطر ببالي، بشرط أن تكون أسئلتي مقتصرةً على الزمن الذي عاشوا فيه. والشيء الذي قد يطمئنني هو أنهم سيقولون الحقيقة حتمًا، فالقدرة على الكذب غير ذات نفعٍ في العالم السفلي.

عبرت لجلالته عن امتناني العميق لهذا الكرم العظيم. كنا في قاعة يمكن منها رؤية الحديقة، ولأن أولى رغباتي كانت أن أمتع ناظريّ بمشهد عظمةٍ وجلال، طلبت أن أرى الإسكندر الأكبر على رأس جيشه بعد معركة أربيلا ([70]) مباشرة، فظهر بإشارة من إصبع جلالته في حقل كبير تحت النافذة التي وقفنا عندها. استُدعِي الإسكندر إلى القاعة، لكنني لم أستطع فهم يونانيته إلا بصعوبة كبيرة،

وكنت أنا نفسي لا أعرف منها سوى القليل. وقد أكد لي مقسمًا بشرفه أنه لم يُسمم، بل مات من الحمى بسبب الإفراط في الشرب ([71]). بعد ذلك رأيت حنّبعل يعبر جبال الألب، وأخبرني أنه لم يملك قطرة واحدة من الخل في جيشه ([72]).

رأيت قيصر وبومبي على رأس جيشيهما متأهبين للقتال ([73])، ورأيت الأول في نصره الأخير العظيم ([74]). طلبت أن يظهر أمامي مجلس الشيوخ الروماني في غرفة كبيرة، ومعادلٌ معاصر له في غرفة أخرى مقابلة، فبدا لي الأولُ تجمعًا للأبطال وأنصافِ الآلهة، أما الآخر فكومةً من المخادعين والنشالين وقطاع الطرق والأشرار.

أشار الملك لقيصر وبروتس ([75]) بالتقدم نحونا بناءً على طلبي. شعرتُ بالمهابة عند رؤية بروتس، واستطعت بسهولة أن أرى فيه الفضيلة الكاملة والجسارة العظيمة ورجاحة العقل والحب الصادق لبلده، والإحسان العام للبشرية في كل قسَمةٍ من قسماته. سررت لرؤية هذين الشخصين متفقَين ومنسجمَين، واعترف لي قيصر بصراحة أن أعظم الأعمال التي قام بها في حياته لا تعدل، ولو من بعيد، مجد قضاء بروتس عليها. تشرفت بإجراء حديثٍ مطول مع بروتس، وأخبرني أنه هو وأجداده يونيوس ([76]) وسقراط ([77]) وإيبامينوداس ([78]) وكاتو الابن ([79]) والسير توماس مور ([80])، في صحبةٍ دائمة، سداسيّ لا يمكن لأي عصور العالم أن يضيف له سابعًا.

سيكون من المضجر للقارئ أن أحدثه عن العدد الكبير من الأشخاص اللامعين الذين تم استدعاؤهم لإشباع رغبتي النهمة برؤية العالم أمامي في كل فترة من العصور القديمة، حيث متعت عينيّ برؤية مدمري الطغاة والغاصبين، ومستردّي حرية الشعوب الجريحة والمقموعة، لكن من المستحيل أن أصف السرور الذي شعرت به بطريقة توصل المتعة نفسها إلى القارئ.

الفصل الثامن

وصف أكثر لـ غلبْدبْدرِب. تصحيح التاريخ القديم والحديث.

خصصتُ يومًا كاملًا لرؤية القدماء المشهورين بالذكاء والعلم، واقترحتُ أن يظهر هوميروس وأرسطو في مقدمة مفسريهم، لكن عددهم الكبير اضطر بضع مئات منهم للانتظار في بهو القصر وغرفه الخارجية. عرفتُ هذين البطلين من النظرة الأولى، واستطعت تمييزهما ليس فقط عن الحشد، وعن بعضهما. هوميروس كان الأطول والأوسم بينهما، يمشي منتصب القامة بالنسبة إلى شخص في سنه، وعيناه كانتا سريعتين وثاقبتين أكثر من أي عينين رأيتهما ([81]). أما أرسطو فكان منحني الظهر يتكئ على عكاز، وجهه نحيل، شعره مسترسل وخفيف، وصوته خاوٍ. سرعان ما اكتشفت أنهما يجهلان كل من في الحشد، ولم يريا أو يسمعا بأحد منهم من قبل. وقد أسرّ إليّ أحد الأشباح -لن أذكر اسمه- أن أولئك المفسرين يبقون دائمًا في أبعد مكان عن أساتذتهم في العالم السفلي، لإحساسهم بالخجل والذنب بسبب إساءتهم تفسير هذين المؤلفَين للأجيال التالية. عرّفت هوميروس إلى ديديموس ([82]) ويوستاثيوس ([83])، وأقنعته أن يعاملهما بأفضل مما قد يستحقان، لأنه سرعان ما اكتشف أنهما يفتقران إلى العبقرية اللازمة لفهم الشعراء. لكن أرسطو فقد صبره مما حكيت له عن سكوتس ([84]) وراموس ([85]) عندما قدمتهما إليه، وسألهما إن كان الآخرون في جماعتهما مغفلين كبارًا مثلهما.

ثم طلبت من الحاكم أن يستدعي ديكارت ([86]) وغاسندي ([87])، وحاولت معهما أن أشرح نظرياتهما لأرسطو. أقر ذلك الفيلسوف العظيم بأخطائه في الفلسفة الطبيعية، لاعتماده على الحدس في كثير من الأحيان، كما يفعل كل البشر. وقد وجد أن معتقدات أبيقور التي هذبها غاسندي قدر ما استطاع، ودوامات ديكارت، ثبت خطؤهما. وتنبأ بالمصير نفسه لقانون الجاذبية ([88]) الذي يدافع عنه العلماء المعاصرون بتعصب. قال إن النظريات الجديدة في الطبيعة ما هي إلا صيحاتٌ تختلف في كل عصر، حتى أولئك الذين يتظاهرون ببرهنتها رياضيًا، سوف يتألقون لمدة قصيرة فقط، ثم يخفت نجمهم عندما يثبت خطؤها.

أمضيت خمسة أيام أحاور كثرًا آخرين من العلماء القدامى، وقابلت معظم الأباطرة الرومان الأوائل، ثم أقنعت الحاكم باستدعاء طباخي الإمبراطور إيليوغابالوس ([89]) كي يطبخوا لنا العشاء، لكنهم لم يستطيعوا إظهار مهارتهم بسبب نقص المواد. حضر لنا أحد عبيد أجيسيلاوس ([90]) طبقًا من الحساء الإسبارطي ([91])، لكنني لم أستطع أن أزدرد أكثر من ملعقة واحدة منه.

كان السيدان اللذان رافقاني إلى الجزيرة بحاجة إلى العودة بسبب شؤون خاصة بعد ثلاثة أيام، شغلتها برؤية بعض أموات العصر الحديث الذين يعَدون من ألمع الشخصيات خلال مئتي أو ثلاثمئة سنة خلت، في بلدنا أو بلدان أوروبية أخرى. ولأنني طالما كنت معجبًا بالعائلات العريقة المرموقة، طلبت من الحاكم استدعاء عشرة أو عشرين ملكًا مع أسلافهم بالترتيب، لثمانية أو تسعة أجيال سابقة. لكن خيبة أملي كانت مؤلمة ومفاجئة، لأنني عوضًا عن رؤية صف طويل من الرؤوس المتوجة، رأيت في عائلة واحدة عازفَي كمان وثلاثة رجال متأنقين من الحاشية وأسقفًا إيطاليًا، وفي عائلة أخرى حلاقًا ورئيس دير وكاردينالين. لدي احترام للرؤوس المتوجة يمنعني من الإطالة في هذا الحديث الحساس، أما بالنسبة إلى من يحملون لقب كونت أو ماركيز أو دوق أو إيرل وما شابه، فلم أدقق بالقدر نفسه. أعترف أنه لم يخلُ من المتعة أن أجد نفسي قادرًا على تتبع الصفات المعينة التي تميز بعض العائلات حتى الأصول، حيث عرفت بسهولة من أين أتت إحدى العائلات بالذقن الطويلة، ولمَ تزخر أخرى بالأوغاد لجيلين، والحمقى لجيلين آخرين، ولمَ تتسم ثالثة بالخبل، وتتألف رابعة من المحتالين، وينطبق عليها قول بوليدور فيرجيل عن إحدى العائلات الكبيرة: «لم يكن فيها رجلٌ شجاع ولا امرأةٌ شريفة» ([92]) ؛ عرفتُ كيف أصبحت القسوة والافتراء والجبن صفاتٍ تتميز بها العائلات كما تتميز بشعار نبالتها؛ عرفت من أتى لأول مرة بداء الزهري إلى عائلة نبيلة، فانتقل بشكل أورام خبيثة إلى ذريتهم. ولم يعد كل ذلك يدهشني حين رأيت الأنساب تختلط بدم غلمان وخدم وخياطين وحوذيين ومقامرين وموسيقيين عابثين وممثلين وضباط.

أكثر ما أصابني بالقرف كان التاريخ الحديث، لأنني بعد أن استجوبت بدقة كل الأشخاص ذوي ألمع الأسماء في قصور الملوك منذ مئة سنة خلت، اكتشفت كيف خدع العالمَ كتابٌ فاسدون، نسبوا أعظمَ المآثرِ الحربية إلى الجبناء، وأحكمَ النصائح إلى المغفلين، والصدقَ إلى المداهنين، والفضيلةَ إلى من خان بلاده، والتقوى إلى الملحدين، والعفةَ إلى اللّواطيين، والإخلاصَ إلى الواشين. رأيت كم حُكم على أشخاص أبرياء ولامعين بالموت أو النفي بسبب استغلال الوزراء لفساد القضاة وعداوة الأحزاب؛ وكم رُفع من الأشرار إلى أعلى مراتب الثقة والسلطة والجاه والغنى؛ وكم أثر قوادون ومومسات وطفيليون ومهرجون على جزء كبير من الأحداث والقرارات في المحاكم ومجلس الأمة ومجلس الشيوخ. وشعرت بالاحتقار للحكمة والكرامة البشرية عندما علمت أسباب ودوافع أحداثٍ وثوراتٍ عظيمة في العالم، والحوادث المقيتة التي تدين لها بنجاحها.

هنا اكتشفت خبثَ وجهل أولئك الذين يدّعون كتابة التاريخ السري، الذين يرسلون ملوكًا إلى القبر بكأسٍ من السم، ويعيدون سردَ حديثٍ دار بين أمير ووزير أول لم يكن هنالك من شاهدٍ عليه، ويقتحمون أفكارَ سفراء ووزراء

خارجية وغرفَهم السرية، ويصدف دومًا، لسوء الحظ أنه مخطئون. اكتشفتُ الأسباب الحقيقية لكثير من الأحداث العظيمة التي أذهلت العالم، حيث يمكن أن تملك مومسٌ نفوذًا خفيًا تحكم به مجلس الأمة سرًا، ومجلس الأمة يحكم بدوره مجلسَ الشيوخ. اعترف أحدُ القادة في حضوري أنه انتصر بفضل الجبن وسوء التدبير؛ وأحدُ أمراء البحر أنه بسبب نقص في الاستخبارات هزمَ العدو الذي كان ينوي أن يخون الأسطول لصالحه. واشتكى لي ثلاثة ملوك أنهم خلال حكمهم كله لم يعطوا أفضلية لشخص عن جدارة، إلا بالخطأ أو بسبب خيانة وزير وثقوا به، وأنهم لن يفعلوا ذلك مجددًا لو عاشوا مرة أخرى، وقد برهنوا بقوة المنطق على أن العرش الملكي لا يمكن أن يقوم دون فساد، لأن ذلك الطبع الثابت المندفع الواثق الذي تبثه الفضيلة في الإنسان، هو عائق دائم للشؤون العامة.

انتابني فضول للسؤال بالتفصيل عن الطريقة التي يكتسب فيها الكثيرون ألقابًا تشريفية رفيعة وأملاكًا ضخمة، وقصرت سؤالي على فترة حديثة دون التنويه إلى الزمن الحالي، لأنني أحرص على عدم توجيه أي إهانة، حتى للأجانب (وأتمنى أن القارئ ليس بحاجة إلى أن أقول له أنني لا أقصد بلدي على الإطلاق فيما أقوله بخصوص هذا الموضوع) استدعي عدد كبير من الأشخاص المعنيين، وبعد تحقيق بسيط كشفوا عن مشهد مشين لا أستطيع أن أصفه دون بعض الجدية؛ كانت شهادةُ الزور، والظلم، والتحريض على الفساد، والاحتيال، والقوادة، وعللٌ مثلها من أكثر الأساليب المقبولة التي أتوا على ذكرها، واستطعت أن أعذرها؛ أما عندما اعترف بعضهم أنهم يدينون بعظمتهم وثروتهم إلى اللواط أو الزنى، وآخرون إلى تعهير زوجاتهم وبناتهم، وآخرون إلى خيانة بلدهم أو ملِكهم؛ بعضُهم إلى دس السم، وآخرون أكثر منهم إلى التلاعب بالعدالة من أجل تدمير البريء؛ فأرجو المعذرة إن قللت هذه الاكتشافاتُ من الاحترام العميق الذي أكنه بطبيعتي للأشخاص ذوي المنزلة الرفيعة، الذين تجب معاملتهم بأقصى احترام نظرًا لرفعة مكانتهم، من قبلنا نحن، الأدنى منهم.

كنت قد قرأت كثيرًا عن خدمات جليلة قدمت إلى الملوك والبلاد، ورغبت برؤية الأشخاص الذين أدوها. عند السؤال عنهم علمت أن أسماءهم غير موجودة في أي سجل، عدا بعضهم ممن ذكرهم التاريخ بوصفهم أشنع الفاسدين والخونة، أما البقية فلم أكن قد سمعت عنهم شيئًا من قبل. لقد ظهروا جميعًا بنظراتٍ مغتمّة وثياب رثة، أخبرني معظمهم أنهم ماتوا في فقر وخزي، وبقيتهم على مقصلة أو مشنقة.

كان بين الجمع شخصٌ بدت حالته مميزة قليلًا، يقف بجانبه شابٌ يبلغ حوالي ثمانية عشر عامًا. أخبرني أنه كان قبطان سفينة لسنوات عديدة، وقد تمكن

في معركة أكتيوم ([93]) من اختراق صفوف العدو، وإغراق ثلاثة من سفنهم الرئيسية، والاستيلاء على رابعة، مما كان السبب الوحيد لهروب أنطونيو ([94]) والنصرِ الذي تلا ذلك. قال إن الشاب الواقف بجانبه هو ابنه الوحيد، وقد قُتل في المعركة. أضاف أنه لثقته بإنجازاته، ذهب إلى روما عندما شارفت الحرب على الانتهاء، والتمس في قصر أغسطس أن يتم تعيينه قائدًا لسفينة أكبر قُتل قبطانها. لكن دون أي اعتبار لحججه، أعطيت السفينة لصبي لم ير البحر في حياته، كانت أمه خادمة إحدى جواري الإمبراطور. بعد أن عاد الرجل إلى سفينته اتهم بإهمال الواجب، وسُلمت السفينة إلى غلامٍ مفضل لدى ببليكولا ([95])، نائب أمير البحرية، فانتقل على إثر ذلك إلى مزرعة فقيرة بعيدًا عن روما، وأنهى حياته فيها. كان لديّ فضول شديد لمعرفة حقيقة تلك القصة، فطلبت رؤية أغريبا ([96])، الذي كان أمير البحرية في تلك المعركة. عندما ظهر أكد الحكاية كلها، لكن ظهرت أفضالٌ أكبر للقبطان، الذي أدى تواضعُه إلى إضعافِ أو إخفاء جزء كبير منها.

فوجئت عندما رأيت إلى أي درجة استشرى الفساد بسرعة في تلك الإمبراطورية بسبب الترف الطارئ، مما جعل دهشتي أقل أمام حالات كثيرة مشابهة في بلاد أخرى، حيث حكمت شرورٌ من كل الأنواع لمدة أطول بكثير، واستولى القائد الأعلى على كل المديح والأموال المنهوبة، وهو في الغالب الأقل استحقاقًا لأي منهما.

كان كل شخص يظهر بالهيئة والحجم نفسه الذي كان يملكه في حياته، فأحزنتني رؤية مقدار تدهور الجنس البشري في السنوات المئة الماضية، وكيف حول الزهري بكل عقابيله وتسمياته كل قسمة في الوجه الإنكليزي، فقصر طول الأجساد، وأوهن الأعصاب، وأرخى الأوتار والعضلات، وجعل البشرة شاحبةً والجلدَ مترهلًا ونتنًا.

نزلت بالمستوى كثيرًا وطلبتُ استدعاء بعض الفلاحين الإنكليز القدماء، الذين اشتهروا ببساطة سلوكهم وطعامهم وملبسهم، والأمانة في تعاملهم، وروحِ الحرية الحقّة فيهم، وشجاعتهم وحبهم لبلادهم. ولم أستطع إلا أن أتأثر بعد أن قارنت الأحياء بالأموات منهم، ورأيت كيف بدل أحفادهم كل تلك الصفات الأصيلة الحميدة ببعض المال، واكتسبوا ببيع أصواتهم والتلاعب بالانتخابات كل رذيلة ومفسدة يمكن تعلمها في القصر.

الفصل التاسع

يعود المؤلف إلى مالدونادا. يبحر إلى مملكة لُغناغ. يحتجز هناك ثم يستدعى إلى القصر. طريقة استقباله. عظم تسامح الملك مع رعاياه.

عندما جاء يوم رحيلنا ودعت جلالة حاكم غلبْدبْدرِب وعدت مع رفيقيّ إلى مالدونادا، وبعد انتظار أسبوعين كانت إحدى السفن جاهزةً للإبحار إلى لُغناغ، فتكرم السيدان وغيرهما بتزويدي بالمؤن وإيصالي إلى السفينة. أمضيت شهرًا في تلك الرحلة، واجهتنا أثناءها عاصفة عاتية، واضطررنا إلى الاتجاه غربًا حتى وصلنا إلى منطقة الرياح التجارية التي تمتد مسافة أكثر من ستين فرسخًا. في الحادي والعشرين من أبريل عام ١٧٠٨ أبحرنا في نهر كلومغْنِغ، وهو اسم المدينة الساحلية جنوب شرق لُغناغ. ألقينا المرساة على بعد فرسخ من المدينة وأطلقنا إشارة لطلب مرشدٍ بحري. أتى مرشدان بعد أقل من نصف ساعة، أرشدانا إلى طريق بين المياه الضحلة والصخور كان عبوره خطرًا، ويفضي إلى حوض كبير حيث يمكن لأسطول أن يتحرك بأمان ضمن مسافة مئتي ياردة من سور المدينة.

أخبر بعض بحارتنا الدليلَين أنني رحالة أجنبي، إما سهوًا أو بدافع الخيانة، مما جعلهما ينبهان ضابط جمارك، فحقق معي عند وصولي بلغة بالنيباربي، وهي مفهومة في تلك المدينة بفضل التجارة النشطة، بخاصة بين البحارة وموظفي الجمارك. حدثته بإيجاز عن بعض التفاصيل، وجعلت قصتي تبدو معقولة ومتماسكة قدر الإمكان، لكنني وجدت من الضروري أن أخفي بلدي الحقيقي وأقول إنني هولندي، لأنني أردت التوجه إلى اليابان، وكنت أعلم أن الهولنديين هم الأوروبيون الوحيدون الذين يسمح لهم بدخول تلك المملكة ([97])، لذلك أخبرت الموظف أن سفينتي تحطمت على شاطئ بالنيباربي ورسوت على صخرة، فاستقبلوني في لابوتا أو الجزيرة الطائرة (وقد سمع بها كثيرًا)، وأحاول الآن أن أصل إلى اليابان حيث يمكن أن أجد فرصة للعودة إلى بلدي. أخبرني الموظف أنه لا بد من احتجازي حتى يتلقى أوامر من القصر، وأنه سيكتب في طلبها على الفور، ويتمنى أن يصله جواب خلال أسبوعين. أخِذت إلى مسكن مريح، وقف حارس على بابه، لكنني كنت حر التجول في حديقة كبيرة. عوملت بإنسانية، فقد كنت طوال ذلك الوقت على نفقة الملك، وجاء لزيارتي أشخاص عدة بدافع الفضول، بعد أن ذاع أنني أتيت من بلاد بعيدة جدًا لم يسمعوا بها من قبل.

وظفتُ شابًا جاء معي على السفينة نفسها ليكون مترجمًا، كان من أهل لُغناغ، لكنه عاش بضعة أعوام في مالدونادا، ويتحدث اللغتين بطلاقة. استطعت

بمساعدته أن أجري أحاديث مع زواري، اقتصرت على أسئلتهم وإجاباتي.

وصلت برقية من القصر في الوقت المتوقع، تحوي أمرًا بنقلي أنا وحاشيتي إلى ترالدراغْدَب أو تريلدروغْدرِب (فهي تلفظ بالطريقتين على ما أذكر)، برفقة عشرة فرسان. لكن كل حاشيتي كانت ذلك الشاب المترجم المسكين، الذي أقنعته بالعمل لديّ، فاستأجرنا بغلًا لكل منا للركوب، وسبقَنا مبعوثٌ مسيرة نصف يوم ليخبر الملك بمجيئي، ويطلب من جلالته أن يحدد يومًا وساعة يمنحني فيها شرف لعق الغبار أمام كرسي قدميه. هذا هو التعبير المستخدم في القصر، وقد وجدته أكثر من مجرد تعبير شكليّ، لأنني عند دخولي عليه بعد يومين من وصولي أمِرتُ أن أزحف على بطني وألعق الأرض أثناء حركتي، إلا أنهم حرصوا على تنظيف الأرض لأنني أجنبي، فلم يكن الغبار مزعجًا. لكن ذلك، على أي حال، شرفٌ خاص لا يمنح لأي كان، إلا للأشخاص الأرفع رتبة عندما يطلبون زيارة الملك، لا بل ينثر التراب على الأرض عن قصد أحيانًا عندما يكون للشخص القادم أعداء متنفذون في القصر. وقد رأيت مرة لوردًا عظيمًا امتلأ فمه بالتراب لدرجة أنه عندما زحف حتى مسافة مناسبة من العرش لم يتمكن من قول كلمة واحدة. ولم يكن ثمة حل لذلك، لأنها تعد جريمة كبيرة من أولئك الذين يحظون بإذن بالزيارة أن يبصقوا أو يمسحوا أفواههم في حضور جلالته. هنالك أيضًا تقليد آخر لا أستطيع الموافقة عليه كليًا، هو أن الملك عندما يرغب بإعدام أي من نبلائه بطريقة رحيمة ومرفهة، يأمر بأن يُنثر على الأرض مسحوقٌ بني ذو تأثير قاتل، إذا لعقه أحدهم يموت خلال أربع وعشرين ساعة. لكن لإنصاف سماحةِ الملك وتقديرِه لحياة رعاياه (وفي ذلك ليت ملوك أوروبا يقلدونه)، لا بد من القول إن أوامر صارمة تعطى من أجل غسل الأجزاء الملوثة من الأرض بشكل جيد بعد كل إعدام، وإن أهمل الخدم ذلك يخاطرون بأن يجلبوا على أنفسهم استياء جلالته. وقد سمعته بنفسي يأمر بجلد أحد الخدم الذي كان دوره إعطاء أمرٍ بغسل الأرض بعد أحد الإعدامات، لكنه أغفله بخبث، وبسبب إهماله هذا سمم لورد شاب طموح، لسوء الحظ، بعد أن أتى للقاء الملك، رغم أن الملك في ذلك الوقت لم يكن لديه نية بإنهاء حياته. لكن كرم ذلك الملك الطيب جعله يعفي الخادم من الجلد، مقابل وعد بألا يكرر فعلته دون أوامر خاصة.

بالعودة من هذا الاستطراد؛ عندما زحفتُ وصرت على بُعد أربع ياردات من العرش، نهضتُ ببطء على ركبتي، ثم ضربت جبهتي بالأرض سبع مرات، وقلت الكلمات التالية كما علموني في الليلة السابقة: «إكبلنغ غلوفثروب سكوتسيروم بلهيوب ملا شنالت زوين تنود بالكغف سلهيوبهاد غردلب آشت»، هذه هي التحية المعتمدة في قانون البلاد لكل الأشخاص الذين يدخلون لزيارة الملك، يمكن ترجمتها إلى لغتنا كالتالي: «فليعش جلالة الملك المعظم أكثر من الشمس بأحد عشر قمرًا ونصف». رد الملك على ذلك جوابًا لم أفهمه، إلا أنني

رددتُ كما أشير عليّ: «فلفت درين ياليريك دولدم براستراد ميربلش»، والتي تعني: «لساني في فم صديقي»، ذلك التعبير يعني أنني أطلب إذنًا بإحضار مترجمي، وبناءً على ذلك استدعي الشاب المذكور قبل قليل، وأجبت بواسطته على كل أسئلة جلالته طوال أكثر من ساعة. تحدثت باللغة البالنيباربية ونقل مترجمي ما أقول بلغة لُغناغ.

استمتع الملك بصحبتي، وأمر الـ بليفماركلَب، أي الحاجب، أن يخصص جناحًا في القصر لي ولمترجمي، مع حصة يومية من الطعام، وكيس كبير من الذهب من أجل نفقاتي.

بقيت في ذلك البلد ثلاثة أشهر طاعة لجلالة الملك، الذي أكرمني بتقديم عروض سخية، لكنني رأيت من الحكمة والعدل أن أقضي بقية أيامي مع زوجتي وعائلتي.

الفصل العاشر

مديح أهل لُغناغ. وصفٌ دقيق للسترلدبرغ، مع عدة أحاديث دارت بين المؤلف وبعض الأشخاص البارزين بخصوصهم.

أهل لُغناغ مهذبون وكرماء، ورغم أنهم لا يخلون من ذلك الإباء المميز لكل بلاد الشرق، فهم يُبدون المودة للأجانب، خاصة المؤيدين من قبل القصر. تعرفت إلى أشخاص من أرفع منزلة، ولأنني كنت دومًا بصحبة مترجمي، لم أجد مشقة كبيرة في الحديث معهم.

في أحد الأيام، بينما كنت في صحبة لطيفة سألني شخص مرموق إن كنت قد رأيت أيًا من السترلدْبرغ، أو الخالدين منهم. قلت إنني لم أرهم، وطلبت منه أن يشرح لي معنى تلك التسمية عندما تطلق على مخلوق ما. أخبرني أنه في بعض الحالات النادرة، يحدث أن يولد لعائلةٍ ما طفلٌ يملك بقعة دائرية حمراء على جبهته فوق الحاجب الأيسر مباشرة، وتكون تلك علامة دامغة على أنه لن يموت أبدًا. حجم البقعة، حسب وصفه، مثل قطعة فضية من فئة ثلاث بنسات، لكنها تكبر مع الوقت ويتغير لونها. في سن الثانية عشرة تصير خضراء، وتستمر كذلك حتى الخامسة والعشرين، ثم تتحول إلى الأزرق الداكن، وفي الخامسة والأربعين تصبح سوداء فاحمة بحجم شلنغ إنكليزي، ولا يطرأ عليها بعد ذلك أي تغيير. قال إن تلك الولادات شديدة الندرة، حتى أنه لا يعتقد بوجود أكثر من ألف ومئة سترلدبرغ من الجنسين في المملكة كلها، منهم حوالي خمسين في العاصمة، وبين الباقين طفلة ولدت منذ ثلاث سنوات. قال إن تلك الولادات ليست محصورة في عائلة معينة، بل تحدث نتيجة صدفة محضة، وإن أطفال السترلدبرغ أنفسهم فانون مثل بقية الناس.

أعترف بصراحة أنني شعرت ببهجةٍ لا توصف عند سماع ذلك، ولأن محدثي كان يفهم لغة بالنيباربي التي أتكلمها جيدًا، لم أقاوم الاندفاع بتعابير قد أكون مبالغًا بها، حيث هتفت بطرب: «يا لها من أمة سعيدة تلك التي يملك كل مولودٍ فيها فرصةً للخلود، وما أسعد ناسها الذين يتمتعون بكثير من الأمثلة الحية للفضائل القديمة، ولديهم أساتذة مهيؤون لتعليمهم حكمة كل العصور السابقة!، لكن الأسعد على الإطلاق هم أولئك السترلدبرغ الباهرون، الذين ولدوا مستثنين من تلك الكارثة الكبرى للطبيعة البشرية، مما يجعل عقولهم حرة ومنعتقة من ثقل وكآبة الأرواح الناتجَين عن الخوف الدائم من الموت». عبرت عن دهشتي لعدم رؤيتي أيًا من أولئك الأشخاص الأفذاذ في القصر، فالبقعة السوداء علامة شديدة الوضوح لا يمكن أن أغفلها بسهولة، ومن المستحيل ألا يحيط جلالة الملك الحكيم نفسَه بعدد جيد من المستشارين الحكماء والمتمكنين. لكن

فضيلة أولئك الحكماء الوقورين قد تكون أكثر صرامة مما يناسب الأساليب الفاسدة والمنحلّة في القصر، وقد وجدنا مرارًا بالتجربة، أن الشباب أكثر طيشًا وتمسكًا بآرائهم من أن ترشدهم القواعد الرصينة للأكبر منهم. لكن بما أن الملك منحني القدرة على الوصول لجلالته، صممت على أن أعبر له بصراحة عن رأيي في تلك المسألة عند أول فرصة بمساعدة مترجمي، وسواء قرر الأخذ بنصيحتي أم لا، كنت مصممًا على شيء واحد، طالما عرض عليّ مرارًا إقامة دائمة في بلده، فسأقبل عرضه بامتنان عميق، وأقضي حياتي هنا أحادث تلك الكائنات الراقية المدعوة السترلدبرغ، إن وافقوا على لقائي.

كان الشخص الذي وجهت حديثي إليه يتحدث لغة بالنيباربي (كما أسلفت)، فقال بابتسامةٍ من النوع الذي يصدر عادةً من الشفقة على شخص جاهل، إنه سيسعد بأي ظرف يبقيني بينهم، واستأذنني ليشرح للحضور ما قلته. هكذا فعل، وتحدثوا بينهم بعض الوقت بلغتهم التي لا أفهم منها حرفًا، ولم أستطع أن أعرف من وجوههم أي انطباع تركه حديثي عندهم. بعد صمت وجيز أخبرني الشخص نفسه أن أصدقاءه وأصدقائي (على حد تعبيره)، سرّوا بالملاحظات الحكيمة التي ألقيتها عن سعادة وميزات الحياة الخالدة، ويرغبون في معرفة نوع الحياة التي كنت سأرسمها لنفسي لو قدّر لي أن أولد سترلدبرغ.

أجبت أنه من السهل أن أجزل الحديث في هذا الموضوع الغني والمبهج، خاصة بالنسبة إليّ، فقد كنت كثيرًا ما أتسلى بتخيل ما يمكن أن أفعله لو كنت ملكًا، أو جنرالًا، أو لوردًا عظيمًا، أما في هذه الحالة بالذات، كثيرًا ما فكرت بتفصيلٍ كبير بم سأشغل نفسي وأمضي وقتي لو ضمنت أن أعيش إلى الأبد.

قلت إنني لو حظيت بالقدوم إلى العالم كسترلدبرغ، فور أن أكتشف سعادتي بعد فهم الفرق بين الحياة والموت، سأحرص أولًا على تكوين ثروة لنفسي بكل الطرق والوسائل اللازمة، وبسعيي إلى ذلك بالتوفير والتدبير أتوقع أن أصبح خلال مئتي عام أغنى رجل في المملكة. ثانيًا، سأشغل نفسي منذ شبابي المبكر بدراسة العلوم والفنون، وبذلك سأتفوق مع الوقت على الجميع بالعلم. أخيرًا، سأسجل بدقة كل حدث ذي أهمية في المجتمع، وأصف بإنصافٍ الملوك وكبار الوزراء المتعاقبين على الحكم، مع ذكر ملاحظاتي على كل مسألة. سأدون بالتفصيل كل تغيير في التقاليد واللغات واللباس والعادات والطعام وأساليب اللهو، وبكل ذلك سأكون خزينة حية من الحكمة والمعرفة، وسأصير بلا شك عراف الأمة.

لن أتزوج أبدًا بعد سن الستين، وسوف أعيش في رخاء، لكن أقرب إلى الحرص. سأشغل نفسي بتشكيل وتوجيه عقول الشباب الطموح، بإقناعهم بفائدة الفضيلة في الحياة العامة والخاصة، مستخدمًا ذاكرتي وخبرتي وأفكاري ومؤيدًا ذلك بأمثلة عديدة. لكن رفاقي الدائمين سيكونون من إخواني الخالدين،

أختار منهم مجموعةً فيها من أقدمهم حتى معاصريّ. حين يحتاج أي منهم إلى المال سأزودهم بمساكن مناسبة حول منزلي وأبقي بعضهم كي يشاركني طعامي، بالإضافة إلى البعض من الأرفع منزلة بينكم أنتم الفانون، الذين سيقويني مرور الزمن على فقدكم دون كثير من الأسى، وأعامل ذريتكم بالطريقة ذاتها، كما يتسلى المرء بالتعاقب السنوي لنمو القرنفل والتوليب في حديقته دون أسف على فقدان تلك التي ذبلت في السنة الماضية.

سأتبادل مع السترلدبرغ تأملاتنا وذكريتنا مع مرور الزمن، ونلاحظ المراحل العديدة التي يتسلل بها الفساد إلى العالم، فنقاومه عند كل خطوة بإعطاء تحذير دائم وتعليمات إلى البشر، مما سيعضد تأثير وجودنا كمثالٍ حي في منع التدهور المستمر للطبيعة البشرية، الذي يشتكى منه في كل العصور، على نحو مبرر. أضف إلى كل ذلك متعة رؤية التقلبات في الدول والإمبراطوريات، والتغيرات في السماء والأرض؛ حيث تدمر مدن قديمة، وتصبح قرى مغمورةٌ معقل الملوك، تتناقص أنهار شهيرة إلى جداول ضحلة، ويترك المحيط شاطئًا ليجف ويغمر آخر، تكتشَف بلاد كثيرة كانت مجهولة، تطغى الهمجية على أرقى الأمم، وتصبح الأمم الأكثر همجية متحضرة. سأرى عندئذٍ اكتشاف حساب خطوط الطول، والحركة الأبدية، وإكسير الحياة، واختراعاتٍ عظيمة أخرى. كذلك الاكتشافات الرائعة التي قد نصنعها في علم الفلك، برؤية وتأكيد تنبؤاتنا، ورصد مسار وعودة المذنبات، وتغيرات حركة الشمس والقمر والنجوم.

أسهبتُ في نقاط كثيرة أخرى، أوحتْ إلي بها الرغبةُ الطبيعية بحياة أبدية وسعادة مطلقة. بعد أن فرغت، وتُرجم حديثي إلى الحاضرين، تردد كلام كثير فيما بينهم بلغة أهل البلد، لم يخلُ من بعض الضحك عليّ. أخيرًا، قال السيد الذي قام بدور مترجمي، إن الحاضرين يرغبون بتصحيح بعض الأخطاء التي وقعت فيها بسبب الحماقة المعتادة للطبيعة البشرية، ولهذا السبب لا يؤاخذونني عليها. قالوا إن وجود هذا النوع من الناس خاص ببلادهم، ولا يوجد مثلهم سواء في بالنيباربي أو اليابان؛ فقد كان له الشرف أن يكون سفيرًا لجلالته هناك، ووجد أن أهل هاتين المملكتين لا يستطيعون تصديق إمكانية أن يكون ذلك حقيقة؛ كذلك بدا من دهشتي حين ذكر الموضوع أمامي أول مرة أن ذلك شيء جديد عليّ تمامًا وصعب التصديق. قال إنه خلال إقامته وحديثه مع كثير من السكان في المملكتين سابقتي الذكر، لاحظ أن الحياة الطويلة رغبة وأمنية مشتركة بين كل البشر، وأن كل من له قدمٌ في القبر يحرص على أن يسحب الأخرى بكل قوته، وأن الأكبر سنًا يملك أملًا دائمًا بالعيش يومًا إضافيًا، وينظر إلى الموت على أنه الشر الأكبر الذي تجبره الطبيعة على تجنبه دومًا. أما في جزيرة لُغناغ، فإن هذه الرغبة في الحياة ليست متقدة، بسبب وجود السترلدبرغ الدائم أمامهم كمثال.

قالوا إن نمط الحياة الذي تخيلته غير منطقي وغير عادل، لأنه يفترض دوام الشباب والصحة والقوة، ولا يوجد أي شخص بالحماقة الكافية ليتمنى ذلك مهما كان مفرطًا في أمانيه. وعلى ذلك فالسؤال ليس ما إذا كان الإنسان قد يختار أن يكون دومًا في أوج الشباب، متمتعًا كذلك بالرخاء والصحة، بل هل سيقبل بعيش حياة أبدية تحت وطأة كل المصاعب المعتادة التي تجلبها الشيخوخة. وبالرغم من أن قلة من البشر قد يقرون برغبتهم بالخلود في ظروف بتلك الصعوبة، فقد لاحظ في المملكتين سابقتي الذكر، بالنيباربي واليابان، أن كل إنسان يرغب بتأجيل الموت لبعض الوقت، وتأخير قدومه قدر الإمكان، ونادرًا ما سمع عن أي إنسان مات راغبًا، إلا حين يدفعه لذلك أقصى الحزن أو الألم. وسألني ما إذا كنت قد وجدت الشيء نفسه في بلادي أو البلاد التي سافرت إليها.

بعد هذه المقدمة حكى لي بتفصيل عن السترلدبرغ في بلادهم؛ قال إنهم يتصرفون مثل الفانين بشكل عام حتى يبلغوا الثلاثين، بعد ذلك يصبحون حزناء ومغتمين، ويتزايد ذلك حتى يبلغوا الثمانين. عرف ذلك من اعترافاتهم، لأن ولادة اثنين أو ثلاثة منهم في العصر الواحد، تجعل من الصعب لقلّتهم تكوين فكرة عامة عنهم. عندما يصلون إلى سن الثمانين، وهو السن الأكبر في هذه البلاد، لا تصيبهم فقط كل الأمراض والعلل التي تصيب العجائز الآخرين، بل المزيد مما ينتجُ عن الإدراكِ المروع باستحالة الموت. إنهم ليسوا فقط متعنتين ونكدين وطماعين ومتجهمين وسخفاء وثرثارين، بل أيضًا عاجزين عن تكوين صداقات، ومجردين من أي عاطفة طبيعية، وهي لا تتجاوز أحفادهم أبدًا. الحسد والرغبات الجامحة هي شغفهم الطاغي، لكن الأمور التي تبدو موضع حسدهم هي طيش الشباب وموت العجائز، ذلك لأنهم يجدون أنفسهم عاجزين عن اختبار أي متعة، وكلما رأوا جنازة يشتكون ويندبون أن آخرين ذهبوا إلى مرفأ السكينة الذي لا يستطيعون هم أن يحلموا بالوصول إليه. لا يتذكرون أي شيء غير ما تعلموه ورأوه في شبابهم وكهولتهم، حتى ذلك يكون مشوشًا، أما بالنسبة إلى حقيقة أو تفاصيل أي معلومة، فمن الأفضل الاعتماد على التقاليد المتعارف عليها من الاعتماد على أفضل ذكرياتهم. الأقل بؤسًا بينهم هم الذين يصابون بالخرف ويفقدون ذاكرتهم تمامًا، أولئك يتلقون شفقة ومساعدة أكبر، لأنهم يفتقرون إلى الكثير من الصفات السيئة التي يزخر بها الآخرون.

إذا حدث وتزوج سترلدبرغ من نوعه نفسه، يَبطل الزواج بموجب قانون المملكة حالما يبلغ أصغرهما ثمانين عامًا، لأن القانون يرى أن من الرحمة بأولئك الذين حكم عليهم -دون خطأ ارتكبوه- بوجود دائم في العالم، ألا تضاعف مأساتهم بعبء العيش مع زوجة.

ء ء

بمجرد إتمامهم الثمانين عامًا يصبحون أمواتًا بنظر القانون، وتنتقل أملاكهم إلى ورثتهم مباشرة، ويخصص منها مبلغٌ زهيد فقط لإعالتهم. أما الفقراء منهم فيعيشون على نفقة المجتمع. بعد ذلك السن يعتبرون عاجزين عن أن يكونوا موضع ثقة أو فائدة، ولا يمكنهم شراء أو استئجار أراضٍ، ولا يسمح لهم بالشهادة على أي قضية، مدنية أو جنائية، ولا حتى من أجل رسم الحدود.

في التسعين يفقدون أسنانهم وشعرهم، ويفقدون قدرتهم على تمييز الطعوم، فيأكلون ويشربون ما يحصلون عليه دون لذة أو شهية. تستمر بعد ذلك الأمراض التي تصيبهم دون تفاقم أو نقصان. في الكلام ينسون أسماء الأشياء والأشخاص، حتى من هم أقرب أصدقائهم وأقربائهم. لذلك السبب لا يستطيعون تسلية أنفسهم بالقراءة، لأن ذاكرتهم لا تستمر من أول الجملة حتى آخرها، وبذلك العجز يحرمون من التسلية الوحيدة التي كان بوسعهم ممارستها.

بما أن لغة ذلك البلد في حالة تغير دائم، لا يفهم السترلدبرغ من عمر معين أولئك الذين من عمر آخر، ولا يستطيعون بعد سن مئتي سنة إجراء أي حديث (أكثر من الكلمات المعتادة) مع جيرانهم الفانين، وبذلك يقاسون العيش كالأجانب في بلادهم.

هذا هو مجمل الوصف الذي قيل لي عن السترلدبرغ، بقدر ما أذكر. رأيت بعد ذلك خمسة أو ستة منهم من أعمار مختلفة، لا يتجاوز عمر أصغرهم مئتي سنة، أحضرهم إلي بعض رفاقي مرات عديدة. رغم ما قيل لهم من أنني رحالة عظيم ورأيت العالم كله، لم يملكوا فضولًا لطرح أي سؤال، وطلبوا مني فقط أن أعطيهم سلَمزْكوداسْك، أي رمزًا للذكرى، وهي طريقة خجولة للتسول، تجنبًا للقانون الذي يحظره بصرامة، لأنهم يمولون من قبل المجتمع، ولو أنه مبلغ زهيد للغاية.

يكرههم وينبذهم جميع الناس، وعندما يولد أحدهم يعتبر نذير شؤم. تسجل ولادتهم بدقة كي تعرف أعمارهم بالرجوع إلى السجلات، التي لم تبدأ إلا قبل ألف سنة، أو على الأقل دمرت من قبلُ بسبب مرور الزمن أو الاضطرابات العامة. لكن الطريقة المعتادة في معرفة أعمارهم هي سؤالهم عن الملوك أو أبرز الأشخاص الذين يذكرونهم، ثم الرجوع إلى التاريخ، لأن من المؤكد أن آخر ملك يذكرونه بدأ حكمه قبل بلوغهم الثمانين من العمر.

كان منظرهم أكثر منظر مرعبٍ رأيته في حياتي، والنساء أفظع من الرجال. بالإضافة إلى القباحات المعتادة للشيخوخة، يكتسبون فظاعة إضافية لا توصف، تتناسب طردًا مع سنين عمرهم. واستطعت تمييز الأكبر سنًا بين ستة منهم رغم أن الفرق بينهم لم يكن أكثر من قرن أو قرنين.

سيصدق القارئ بسهولة أنني بعد ما سمعته ورأيته، وجدتُ رغبتي المتقدة بحياة أبدية قد خفتت، وشعرتُ بالخجل الشديد من الرؤى المبهجة التي كونُتها، وفكرتُ أن ما من طاغيةٍ سيخترع موتًا أرفضُ الهرب إليه بسرورٍ من حياة كهذه. سمع الملك بكل ما دار بيني وبين أصدقائي عن ذلك الموضوع، فضحك مني بجذل، وتمنى لو أرسلُ اثنين من السترلدبرغ إلى بلدي كي أسلّح الناس ضد الخوف من الموت، لكن يبدو أن ذلك محظور في قوانين المملكة، وإلا لتحملتُ بسرور تكاليف ومشقة نقلهم.

لم أستطع إلا أن أوافق على أن قوانين المملكة المتعلقة بالسترلدبرغ تستند إلى أسباب قوية، ويمكن أن يضطر أي بلد آخر إلى سنها في حالات مشابهة. ولولاها، على اعتبار أن الجشع نتيجة حتمية للشيخوخة، لأصبح أولئك الخالدون مع الوقت مالكي الأمة كلها، واستولوا على السلطة، وبسبب نقص قدرتهم على التصرف بها سينتهي ذلك بدمار المجتمع.

الفصل الحادي عشر

يغادر المؤلف لُغناغ ويبحر إلى اليابان. يعود من هناك
في سفينة هولندية إلى أمستردام، ومنها إلى إنكلترا.

ظننت أن هذا الحديث عن السترلدبرغ قد يكون ممتعًا للقارئ، لأنه خارج عن المألوف نوعًا ما، أو على الأقل، لا أتذكر أنني مررت على مثله في أي من كتب الرحلات التي وصلت إليها يداي. وإن كنت مخطئًا، فعذري في ذلك أن من الضروري لكل الرحالة الذين يصفون البلد نفسها، أن يتفقوا في وصف التفاصيل نفسها، دون أن يتهموا باستعارتها أو نسخها من أولئك الذين سبقوهم.

هنالك بالطبع تجارة دائمة بين هذه المملكة وإمبراطورية اليابان، ومن المحتمل أن الكتاب اليابانيين قد أتوا على وصف السترلدبرغ، لكن قصر إقامتي في اليابان وجهلي المطلق باللغة لم يؤهلني للتحقيق في الأمر، إلا أنني أتمنى أن يملك الهولنديون بعد هذه الملاحظة الفضول والقدرة على تصحيح أخطائي.

بعد أن أصر جلالته عليّ مرارًا قبول عملٍ ما في قصره ووجدني مصممًا على العودة إلى بلدي، قرر أن يأذن لي بالمغادرة، وتكرم بإعطائي رسالة توصية منه إلى إمبراطور اليابان، ومنحني كذلك أربعمئة وأربع وأربعين قطعة ذهبية كبيرة (هذا الشعب يحب الأعداد الزوجية)، وجوهرة حمراء بعتها في إنكلترا مقابل ألف ومئة باوند.

في السادس من مايو عام ١٧٠٩، ودعت جلالته وأصدقائي، وتكرم الملك بإرسال حارسٍ معي لإرشادي إلى ميناء غلانغوينستاد الذي يقع جنوب غرب الجزيرة. بعد ستة أيام وجدت سفينة جاهزة لأخذي إلى اليابان، وقضيت خمسة عشر يومًا في الرحلة. رسونا في ميناء يدعى شيموسا في الجزء الجنوبي الشرقي من اليابان، وتقع المدينة في القسم الغربي، حيث يوجد مضيق صغير يقود شمالًا إلى خليج طويل، تقع في الجزء الشمالي الغربي منه العاصمة «ييدو» ([98]). لدى وصولي أريت موظفي الجمارك رسالتي من ملك لُغناغ إلى جلالة الإمبراطور، فعرفوا الختم على الفور، الذي كان بعرض راحة يدي. كُتب في الرسالة: «الملك يرفع متسولًا أعرج عن الأرض». عندما سمع قضاة المدينة برسالتي استقبلوني مثل وزير، وزودوني بعربات وخدم، وتكفلوا بذهابي إلى ييدو، حيث أذِن لي بلقاء الملك، وسلمت رسالتي. فُتحت الرسالة باحتفاء كبير، وتُرجمت للإمبراطور من قبل مترجمٍ أخبرني بأمر جلالته أنني أستطيع أن أطلب ما أريد، وسيمنحه لي إكرامًا لأخيه ملك لغناغ. كان المترجم موظفًا لإتمام أعمالٍ مع الهولنديين، وقد لاحظ مباشرة من وجهي أنني

أوروبي، فأعاد عليّ أوامر جلالته بالهولندية التي يتكلمها بطلاقة. أجبت بأنني تاجر هولندي (كما نويت من قبل)، وأن سفينتي تحطمت في بلد بعيد سافرت منه برًا وبحرًا إلى لُغناغ، ثم ركبت سفينة إلى اليابان؛ أنني أعرف أن أبناء بلدي يتاجرون فيها كثيرًا، وآمل أن أجد فرصة للعودة مع بعضهم إلى أوروبا، ولذلك أناشد عطفه الملكي بأن يأمر بإيصالي بأمان إلى ناغازاكي. أضفت إلى ذلك طلبًا آخر، إكرامًا لسيدي ملك لغناغ، بأن يتكرم جلالته ويعذرني عن أداء التقليد الذي يُفرض عادة على أبناء بلدي وهو الدوس على الصليب ([99])، لأنني أتيت إلى هذه المملكة بسبب مصاعب واجهتني، ودون أي نية للتجارة. عندما تُرجم ذلك الطلب الأخير للملك بدا مندهشًا قليلًا، وقال إنه يظنني أول من يظهر أي تردد في ذلك الأمر بين أبناء بلدي، وإنه بدأ يشك إن كنت هولنديًا حقيقيًا، وظن أنني لا بد أن أكون مسيحيًا. على أي حال، للأسباب التي قدمتها، لكن بشكل رئيسي إكرامًا لملك لُغناغ، وبلفتة كرمٍ غير مسبوقة منه، سيساير غرابة طبعي، لكن يجب التعامل مع المسألة بحذر، وسيؤمر موظفوه بأن يتركوني أمر كما لو كان سهوًا، وقد أكد لي أن ذلك السر إذا انكشف لأبناء بلدي الهولنيين فسيذبحونني في الرحلة. عبرت عن شكري عن طريق المترجم لهذه اللفتة النادرة. وكانت هنالك كتائب في ذلك الوقت في مسيرة نحو ناغازاكي، فأمِر الضابط المسؤول بنقلي سالمًا إلى هناك، مع تعليمات معينة بخصوص موضوع الصليب.

وصلت إلى ناغازاكي في التاسع من يونيو عام ١٧٠٩ بعد رحلة طويلة ومتعبة. سرعان ما صرت بصحبة بعض البحارة الهولنديين من سفينة أمبوينا من أمستردام، وهي سفينة كبيرة سعتها ٤٥٠ طنًا. لقد عشت طويلًا في هولندا حين درست في ليدن، وكنت أتكلم الهولندية جيدًا. سرعان ما عرف البحارة آخر بلد أتيت منه، وكانوا في فضول للسؤال عن رحلاتي وحياتي. اختلقتُ قصة قصيرة معقولة قدر الإمكان، لكنني أخفيت الجزء الأكبر منها. كنت أعرف أشخاصًا عديدين في هولندا، فاستطعت اختراع أسماء لوالديّ، وقلت إنهما شخصان مغموران في مقاطعة غويلدرلاند. كنت على استعداد لإعطاء القبطان قدر ما يريد مقابل رحلتي إلى هولندا (كان اسمه من قبيل ثيودورس فانغرلت)، لكنه بعد أن عرف أنني جراح رضي بأخذ نصف الأجرة المعتادة، شرط أن أخدمه في حدود مهنتي. قبل أن نبحر سألني بعض البحارة مرارًا إن أديت الطقوس المذكورة سابقًا، فتهربت من السؤال بإجابات عامة من قبيل أنني أرضيت الإمبراطور والقصر في كل تفصيل، لكن بحارًا ماكرًا ونذلًا ذهب إلى ضابطٍ وأشار إليّ قائلًا إنني لم أدس على الصليب بعد، لكن الضابط، الذي تلقى أوامر بتركي أعبر، أعطى ذلك الوغد عشرين ضربة على كتفيه بساق بامبو، ولم يزعجني أحد بعدها بأسئلة كهذه.

لم يحدث في تلك الرحلة ما يستحق الذكر. أبحرنا برياح مواتية إلى رأس الرجاء الصالح، حيث رسونا لتأمين المياه العذبة فقط. وصلنا إلى أمستردام في السادس عشر من أبريل، وقد خسرنا ثلاثة رجال فقط بسبب المرض ورابعًا سقط عن الصاري الأمامي إلى البحر، غيرَ بعيدٍ عن شاطئ غينيا. سرعان ما أبحرتُ من أمستردام إلى إنكلترا في سفينة صغيرة تنتمي إلى تلك المدينة.

وصلنا إلى ميناء داونز في العاشر من أبريل عام ١٧١٠. نزلت في الصباح التالي ورأيت بلدي مرة أخرى بعد غياب خمس سنوات وستة أشهر كاملة. توجهت مباشرة إلى ريدريف، ووصلت إليها في اليوم نفسه في الثانية ظهرًا، ووجدت زوجتي وعائلتي يتمتعون بصحة جيدة.

نهاية القسم الثالث

القسم الرابع

رحلةٌ إلى بلاد الهوينهم

الفصل الأول

يبحر المؤلف قبطانًا لسفينة. يتآمر رجاله ضده، يحبسونه طويلًا في قمرته، ثم يتركونه على شاطئ أرض مجهولة. يتوغل في البلد. يصف نوعًا غريبًا من الحيوانات يسمى الياهو ([100]). يقابل اثنين من بني الهوينهم ([101]).

أمضيت مع زوجتي وأولادي في الديار خمسة أشهر ملؤها سعادة، لكنني لم أتعلم أن أدرك متى أكون في خير حال، فقد تركت زوجتي المسكينة حاملًا وموشكة على الولادة، وقبلت عرضًا مغريًا بتعييني قبطانًا لسفينة تجارية ضخمة اسمها «أدفنشر»، سعتها ٣٥٠ طنًا. كنت ملمًا بشؤون الملاحة، ومللتُ مهنة الجراحة في البحر، التي أستطيع ممارستها عند الحاجة على أي حال، فوظفت معي في السفينة جراحًا شابًا ماهرًا اسمه روبرت بيورفوي، وأبحرنا من بورتسماوث في السابع من سبتمبر عام ١٧١٠. في الرابع عشر من الشهر نفسه قابلنا القبطان بوكوك من بريستول في جزيرة تنريفي ([102])، الذي كان متجهًا إلى خليج كامبيتشي لقطع أخشاب شجر الدم ([103])، ثم افترق عنا بسبب عاصفة في السادس عشر من سبتمبر، وقد سمعت عند عودتي أن تلك السفينة غرقت ولم ينج منها سوى أحد البحارة. كان ذلك القبطان رجلًا صالحًا وبحارًا جيدًا، لكنه شديد التمسك بآرائه، مما أدى إلى هلاكه وهلاك كثيرين غيره. ولو تبع نصيحتي لكان الآن سالمًا في بيته مع عائلته ومعي.

مات عدة بحارة في سفينتي بسبب الحمى المدارية، فاضطررت إلى توظيف رجال من جزيرة بربادوس ([104]) وجزر ليوارد، التي ذهبت إليها بتوجيه من التجار الذين وظفوني، لكنني ندمت على ذلك لاحقًا عندما اكتشفت أن معظمهم من القراصنة. كان لدي خمسون رجلًا على متن السفينة، وقد كُلفت بالتجارة مع الهنود في البحر الجنوبي ورؤية ما يمكنني اكتشافه، لكن الأوغاد الذين وظفتهم أغووا رجالي الآخرين وتآمروا معًا لحبسي والسيطرة على السفينة، فاقتحموا قمرتي ذات صباح، وقيدوا يديّ ورجليّ، مهددين بأن يرموني إلى البحر إن آتيت بأي حركة. قلت إنني سجينهم، وإنني أستسلم. جعلوني أقسم على ذلك، ثم حلوا وثاقي واكتفوا بربط إحدى رجليّ بسلسلة قرب سريري، وعينوا على بابي حارسًا معه سلاح ملقم، أُمِر بأن يرديني قتيلًا إن حاولت الهرب. أرسلوا إليّ طعامًا وشرابًا، واستلموا قيادة السفينة. كانوا يخططون للتحول إلى قراصنة ونهب الإسبان، لكنهم كانوا قبل ذلك بحاجة إلى توظيف مزيد من الرجال. قرروا بيع البضائع التي في السفينة أولًا، ثم الذهاب إلى مدغشقر ([105]) لتوظيف بحارة، بعد أن مات عدد منهم منذ حبسي. أبحروا

طوال أسابيع وتاجروا مع الهنود، لكنني لم أعرف أي اتجاه سلكوا وأنا مسجون في قمرتي، لا أتوقع أقل من أن أقتَل كما هددوني مرارًا.

في التاسع من مايو عام ١٧١١، جاء إلى قمرتي شخص اسمه جيمس ويلش قائلًا إن معه أوامر من القبطان بتركي على الشاطئ. حاولت الاحتجاج دون جدوى، ولم يخبرني حتى من هو قبطانهم الجديد. أجبروني على النزول إلى القارب بعد أن سمحوا لي بارتداء أفضل ثياب لدي، دون أي سلاح سوى سيفي، وامتلكوا من التهذيب ما جعلهم لا يفتشون جيوبي، التي وضعت فيها ما أملك من المال مع حاجياتٍ صغيرة أخرى. جدفوا قرابة فرسخ، ثم أنزلوني على أحد الشواطئ. طلبت منهم أن يخبروني أي بلد هو، فأقسموا جميعًا على أنهم لا يعرفون أكثر مما أعرف، وقالوا إن القبطان (على حد تعبيرهم) صمم على التخلص مني عند أول يابسة يرونها بعد بيع البضاعة. نصحوني بالإسراع خوفًا من أن يأخذني المد على حين غرة، وتمنوا لي السلامة ثم انطلقوا على الفور.

مشيت في الوضع البائس ذاك حتى وصلت إلى أرض صلبة، حيث جلست على صخرة كي أستريح، وأفكر بأفضل ما يمكنني فعله. حالما استعدت قواي توغلت في البلاد، مصممًا على تسليم نفسي لأول متوحشين أقابلهم، ثم شراء حياتي منهم مقابل بعض الأساور والخواتم الزجاجية، وحليّ أخرى يحملها البحارة عادة في تلك الرحلات، كان بحوزتي بعض منها. وجدتُ الأرض مقسمة بصفوف طويلة من الأشجار، ليست مزروعة بانتظام بل نامية بشكل طبيعي، وفيها عشب وفيرٌ وعدة حقول شوفان. مشيت بحذر شديد خوفًا من أن أفاجأ أو أصاب بسهم من الخلف أو الجانبين، حتى عثرتُ على طريق ممهد وجدت فيه عدة آثارٍ لأقدام بشر وبعض الأبقار، لكن معظمها للأحصنة. أخيرًا رأيت عددًا من الحيوانات في حقل، وواحدًا أو اثنين من مثل نوعهم جالسين فوق الشجر. كان شكلهم غريبًا وبشعًا، فارتبكت قليلًا، واختبأت خلف أجمة كي أراهم بشكل أفضل. اقترب بعضهم من المكان الذي كنت فيه، مما أعطاني فرصة لتمييز شكلهم بدقة. كانت رؤوسهم وصدورهم مغطاة بشعر كثيف، بعضه مجعد وبعضه مسترسل، ولهم لحىً كالماعز، وعرفٌ طويل من الشعر على ظهورهم والأجزاء الأمامية من أرجلهم وأقدامهم، لكن ما بقي من أجسادهم كان عاريًا، فاستطعت رؤية جلودهم التي كانت بلون بني مصفر. لم يكن لهم ذيول، أو أي شعر على مؤخراتهم إلا حول فتحة الشرج، وأفترض أن الطبيعة وضعته هناك لحمايتهم عند جلوسهم على الأرض، فقد كانوا يتخذون تلك الوضعية بالإضافة إلى الاستلقاء، وأحيانًا يقفون على أرجلهم الخلفية. يتسلقون الأشجار العالية بسرعة سنجاب، لأن لهم مخالب قاسية وطويلة في أقدامهم الأمامية والخلفية، تنتهي بأطراف حادة ومعقوفة، وكثيرًا ما يقفزون ويثبون بخفة كبيرة. إناثهم أقل ضخامة من الذكور، ولهن شعر طويل مسترسل

على رؤوسهن، ومجرد زغب على بقية أجسادهن، عدا حول الشرج والعانة. أثداؤهن كانت تتدلى بين أقدامهن الأمامية، وتكاد أحيانًا تلمس الأرض أثناء مشيهن. شعرهم عند الجنسين له ألوان مختلفة هي البني والأحمر والأسود والأصفر. بشكل عام، لم أرَ في كل أسفاري حيوانًا أكثر بشاعة، أو حيوانًا أحسست تجاهه بشكل طبيعي بهذا القدر من النفور.

عندما شعرت بأنني رأيت ما يكفي، نهضت مشبعًا بالازدراء والمقت، وسلكت الطريق الممهد آملًا أن يقودني إلى كوخ أحد السكان الأصليين. لم أكن قد ابتعدت كثيرًا عندما وجدت أحد تلك المخلوقات في طريقي، يقترب باتجاهي مباشرة. عندما رآني ذلك الوحش القبيح لوى كل قسَمة في وجهه في عدة اتجاهات، وحدق بي كمن يرى شيئًا لأول مرة في حياته، ثم اقترب رافعًا يده. لم أعرف إن كان دافعه الفضول أو الأذى، لكنني سحبت سيفي وضربته بجانبه المسطح بقوة، إذ لم أجرؤ على ضربه بحرفه الحاد، خوفًا من أن أجلب على نفسي نقمة السكان إن عرفوا أنني قتلت أو شوهت واحدًا من قطيعهم. عندما شعر الوحش بألم الضربة تراجع، وزأر بصوت عالٍ جعل أربعين من القطيع على الأقل يأتون من الحقل المجاور ويحتشدون حولي، وهم يعوون ويصنعون وجوهًا قبيحة. فركضت نحو جذع شجرة وأسندت ظهري إليه، ولوحت بسيفي كي أبعدهم عني. لكن عددًا من أولئك الملاعين تسلقوا الأغصان من خلفي وقفزوا إلى الشجرة، ومن هناك أخذوا يطرحون برازهم فوق رأسي. على أي حال، استطعت تجنبه بشكل جيد بعد أن التصقت بجذع الشجرة، لكنني كدت أختنق من القذارة التي تساقطت حولي من كل جانب.

في خضم ذلك المأزق ما لبث أن رأيتهم يهربون مسرعين فجأة، فقررت أن أترك الشجرة وأسلك الطريق متسائلًا عما أصابهم بهذا الرعب، لكنني عندما نظرت إلى شمالي رأيت حصانًا يمشي ببطء في الحقل، قد رآه مطارديّ قبلي وكان سبب هروبهم. جفل الحصان حين اقترب مني، لكنه سرعان ما تمالك نفسه، وحدق في وجهي بطريقة تدل على الدهشة، ثم نظر إلى يديّ وقدميّ ودار حولي عدة مرات. كنت سأكمل مسيري لو لم يقف في الطريق، لكنه كان ينظر بتعبيرٍ لطيف، ولم يبدِ أي نية للعنف. وقفنا نحدق ببعضنا مُدة، حتى تجرأتُ أخيرًا على رفع يدي باتجاه رقبته قاصدًا تمسيدها، مستخدمًا صفير الفرسان وطريقتهم المعتادة عند التعامل مع حصان غريب. لكن بدا أن ذلك الحيوان تقبل ملاطفتي بازدراء، حيث هز رأسه وقوس حاجبيه، ورفع قائمته الأمامية بهدوء ليزيح يدي، ثم صهل ثلاث مرات أو أربع، لكن بإيقاع مختلف تمامًا، حتى ظننت أنه يكلم نفسه بلغة خاصة به.

بينما كنا على تلك الحال ظهر حصان آخر، خاطب الأول بأسلوب رسمي، ثم طرقا حافريهما الأيمنين بلطف وصهلا مرات عدة بالتناوب بنبرة متفاوتة، تكاد

تكون مفهومة. ابتعدا بضع خطوات كأنما ليتشاورا، وتمشيا جنبًا إلى جنب ذهابًا وإيابًا، كشخصين يتدارسان مسألة مهمة، لكنهما كانا يحولان ناظريهما نحوي مرارًا، كأنما ليراقبانني كي لا أهرب. دهشت لرؤية هذه الأفعال وهذا السلوك صادرًا عن حيوانات برية، وقلت لنفسي إن كان سكان هذا البلد موهوبين بدرجة متناسبة من الذكاء، لا بد أن يكونوا أحكم الناس على وجه الأرض. أشعرتني تلك الفكرة براحة كبيرة، حتى أنني قررت مواصلة المسير إلى أن أجد بيتًا أو قرية أو أقابل أيًا من السكان، تاركًا الحصانين ليتحدثا معًا كما يشاءان. لكن الأول، وهو أشهب مبقّع، عندما لاحظ أنني أتسلل مبتعدًا صهل عليّ من خلفي بنبرة معبرة للغاية، حتى توهمت أنني فهمت ما يعنيه، عندئذ استدرت واقتربت منه كي أتلقى أوامره الإضافية، مواريًا خشيتي ما استطعت، فقد بدأت أخاف نهاية تلك المغامرة، ويمكن أن يتخيل القارئ بسهولة أنني لم أحب وضعي في ذلك الوقت.

اقترب الحصانان مني وهما يدققان النظر إلى وجهي ويدي. مرر الجواد الأشهب حافره الأيمن حول قبعتي من كل جانب، وأزاحها كثيرًا حتى اضطررت لإصلاحها بنزعها وارتدائها من جديد، فبدا هو ورفيقه -الذي كان بنيًا كستنائيًا- متعجبين من ذلك. تلمس الآخرُ طية معطفي، وعندما وجدها حرة غير ملتصقة بي نظرا إليّ مجددًا بكثير من الدهشة. تلمس يدي اليمنى، وبدا معجبًا بطراوتها ولونها، لكنه عصرها بشدة بين حافره ورسغه مما اضطرني للصراخ، فجعلا بعد ذلك يلمسانني بما استطاعا من الرقة. كانا في حيرة كبيرة إزاء حذائي وجواربي، وتلمساها مرات عدة وهما يصهلان لبعضهما، ويقومان بإيماءات لا تختلف عن إيماءات فيلسوف يحاول أن يحل ظاهرة جديدة مستعصية.

بشكل عام، كان سلوك هذين الحيوانين منظمًا وعقلانيًا، ذكيًا وحكيمًا، حتى استنتجت أخيرًا أنهما ساحران حولا مظهريهما بهذا الشكل لغرض ما، وعندما صادفا غريبًا في طريقهما قررا أن يسليا نفسيهما به، أو لعلهما دهشًا حقًا لرؤية رجل بلباس وملامح وبشرة تختلف تمامًا عن أولئك الذين قد يعيشون في ذلك الإقليم القصيّ. تحت سطوة تلك الفكرة تجرأت على أن أقول لهما: «أيها السادة، إن كنتما ساحرين -وهذا ما أظنه- فأنتما تستطيعان فهم أي لغة، لذلك أريد أن أعلمكما أنني رجل إنكليزي مسكين واقع في مأزق، ساقته متاعبه إلى شاطئكم، وأطلب من أحدكما أن يدعني أركب فوق ظهره كما لو كان حصانًا حقيقيًا، كي أذهب إلى بيت أو قرية ما حيث يمكن إنقاذي. مقابل تلك الخدمة سأقدم لكما هدية هي هذه السكين والسوار» (وأخرجتهما من جيبي) وقف الكائنان صامتين وأنا أتكلم، يبدو عليهما الإنصات بانتباه، وعندما انتهيت صهلا عدة مرات لبعضهما كما لو أنهما منهمكان في حديث جديّ. لاحظت أن لغتهما تعبر عن المشاعر بوضوح، ويمكن لكلماتهما بقليل من الجهد أن تحول إلى أبجدية، بشكل أسهل من الصينية. استطعت أن أميز كلمة «ياهو» كررها

كل منهما عدة مرات، ورغم أنه كان من المستحيل أن أتوقع معناها، حاولت أن أتمرن على لفظها بينما كان الحصانان مشغولين بالحديث، وحالما صمتا، لفظتُ بجرأة كلمة «ياهو» بصوت عالٍ، مقلدًا في الوقت نفسه، وبأكبر دقة ممكنة، صهيلَ الحصان. ظهر على كليهما المفاجأة لذلك، وكرر الأشهب الكلمة نفسها مرتين كما لو أنه يعلمني اللهجة الصحيحة، فأعدتها بعده بما استطعت من الدقة، ووجدت نفسي أتحسن بشكل ملحوظ كل مرة، لكنني مع ذلك ظللت بعيدًا عن أي درجة من الإتقان. ثم حاول البنيّ تعليمي كلمة أخرى، لفظها أصعب بكثير، لكنها يمكن أن تكتب هكذا بحروف لغتنا: «هوينهم». لم أنجح في لفظ هذه بقدر الأولى، لكن الحظ حالفني بعد محاولتين أو ثلاث، فبدا على كليهما الدهشة من قدراتي.

بعد حديث إضافي خمنت أنه يتعلق بي، ودع الصديقان بعضهما بذات الأسلوب بطرق حافريهما معًا، وأشار إليّ الأشهب أن أمشي أمامه، فرأيت من الأفضل أن أستجيب إلى أن أجد مرشدًا أفضل. عندما كنت أبطئ خطوي كان يصيح «هيهون، هيهون»، وعرفت ما يقصد، فبذلت كل جهدي لأشرح له أنني متعب ولا أقدر على الإسراع أكثر، بعد ذلك صار يتوقف قليلًا كي يدعني أستريح.

الفصل الثاني

يصطحب أحد بني الهوينهم المؤلفَ إلى منزله. وصفُ المنزل. استقباله هناك. وصف طعام الهوينهم. يواجه المؤلف صعوبة بسبب عدم وجود اللحم، يجد بديلًا في النهاية. وصف طعامه في ذلك البلد.

بعد أن قطعنا حوالي ثلاثة أميال، وصلنا إلى بناء عريض، مصنوع من قضبان خشبية مغروسة في الأرض ومضفورة مع أغصان مستعرضة، وسقفه منخفض ومغطى بالقش. بدأت عندها أشعر بقليل من الراحة، وأخرجت بعض الحليّ التي يحملها الرحالة عادة هدايا إلى السكان الأصليين في أميركا وبلدان أخرى، آملًا أن يشجع ذلك أهل البيت على معاملتي بلطف. أشار إليّ الحصان أن أدخل أولًا، فوجدت غرفة كبيرة أرضها طينية ملساء، يمتد على طول أحد أطرافها معلَف. كان فيها ثلاثة جياد مسنّة وفرَسان، لا يأكلون، بل كان بعضهم جالسًا على وركيه بشكل أدهشني، ودهشت أكثر لرؤية بقيتهم مشغولين بأعمال منزلية، وبدوا لي خيولًا من سلالة عادية. أكد ذلك انطباعي الأول، وهو أن شعبًا قادرًا على تهذيب هذه الحيوانات البرية، لا بد أن يتفوق بحكمته على كل شعوب العالم. دخل الأشهب من بعدي، مما منع أي سوء معاملة قد تصدر عنهم، فصهل لهم عدة مرات بأسلوب سلطوي، وتلقى منهم إجابات.

بعد تلك الغرفة كان هنالك ثلاث غيرها على طول المنزل، تفضي إحداها إلى الأخرى عبر ثلاثة أبواب متتالية. دخلنا إلى الغرفة الثانية متجهين إلى الثالثة، لكن الرمادي دخلها أولًا، مشيرًا إليّ أن أنتظر. انتظرت في الغرفة الثانية، وجهزت هداياي من أجل سيد وسيدة المنزل، التي كانت عبارة عن سكينين وثلاثة أساور من لؤلؤ مزيف، ومرآة صغيرة وعقدٍ من الخرز. صهل الحصان ثلاث مرات أو أربع، وتوقعت أن أسمع إجابة بصوت بشري، لكنني لم أسمع سوى إجابات باللهجة نفسها، واحدة أو اثنتان منها أعلى من صوته. بدأت أظن أن مالك هذا المنزل شخص ذو أهمية بينهم، فقد بدا أن هنالك الكثير من الرسميات قبل أن أحظى بلقائه؛ أما أن يكون خدمُ شخص مرموقٍ جميعهم من الأحصنة، فذلك ما لم أستوعبه. خفت أن يكون عقلي قد اضطرب بسبب متاعبي ومعاناتي، فنظرت حولي في الغرفة حيث تُركت وحدي، ووجدتها مفروشة كالأولى، لكن بطريقة أكثر أناقة. فركت عينيّ مرارًا، لكن الأشياء نفسها ظلت تظهر أمامي. قرصت ذراعيّ وخواصري كي أوقظ نفسي، آملًا أن أكون في حلم. ثم تأكدت بلا شك، أن هذا المشهد كله ليس سوى سحر وشعوذة. لكنني لم أملك الوقت للاستمرار بتلك الأفكار، لأن الحصان الأشهب جاء إلى الباب، وأشار إليّ أن أتبعه إلى الغرفة الثالثة، حيث رأيت فرسًا جميلة

ومهرًا ومهرة جالسين على أوراكهم فوق بسط من القش، لم تكن سيئة الصنع، وكانت مرتبة ونظيفة تمامًا.

بعد دخولي بوقت قصير نهضت الفرس عن حصيرتها واقتربت مني. أمعنَت النظر إلى يديّ ووجهي، ووجهت إليّ نظرة ملؤها الازدراء، ثم التفتتْ إلى الحصان، وسمعتُ كلمة «ياهو» تتردد بينهما مرارًا. لم أكن أفهم معناها رغم أنها أول ما تعلمتُ لفظه، لكنني سرعان ما فهمت، وشعرت بإهانة لانهائية، فقد أشار إليّ الحصان برأسه وكرر كلمة «هُن هُن» كما فعل في الطريق، وفهمت أن ذلك لكي أتبعه. قادني إلى مكان يشبه الحقل فيه بناء آخر قريب من المنزل، عندما دخلت إليه رأيت ثلاثًا من تلك المخلوقات المقيتة التي رأيتها أول وصولي يأكلون الجذور ولحوم حيوانات، علمت لاحقًا أنها لحوم حمير وكلاب، وأحيانًا تكون لحم بقرة ماتت بحادث أو مرض. كانوا مطوقين من رقابهم بأغصان لينة متينة مربوطة بعمود، ويمسكون طعامهم بمخالب أقدامهم الأمامية، ويمزقونها بأسنانهم.

أمر السيد حصانًا من خدمه ذا لون بني محمرّ، أن يفك وثاق أكبر تلك الحيوانات ويأخذه إلى الساحة. وضعنا أنا والوحش متقاربين، وأخذ السيد والخادم يقارنان بين وجهَينا بدقة مكررَين كلمة «ياهو» مرارًا. لا أستطيع وصف رعبي وصدمتي عندما لاحظت في ذلك الحيوان الكريه هيئة إنسان كامل، وجهه مسطح وعريض، وأنفه أفطس، وشفاهه كبيرة، وفمه واسع. لكن تلك الاختلافات مشتركة بين كل أبناء الشعوب البدائية، الذين تتشوه قسمات وجوههم لأنهم يسمحون لأطفالهم بالزحف على الأرض، أو يحملونهم على ظهورهم، فيمرغون أنوفهم في أكتاف أمهاتهم. لم تكن أقدام الياهو الأمامية تختلف عن يديّ إلا بطول الأظافر، وخشونة وسمرة باطن اليد، وشعرانية ظاهرها، وعرفت أن مثل ذلك التشابه والاختلاف موجودٌ بين أقدامنا، إلا أن الحصان لم يدركه بسبب وجود حذائي وجواربي. وكنا متماثلين في كل جزء من جسمينا، فيما عدا الشعرانية واللون اللذين وصفتهما سابقًا. لكن ما استعصى فهمه على الحصانين هو رؤية جسدي مختلفًا تمامًا عن جسد الياهو، وذلك بسبب ثيابي التي لم يكن لديهم أي تصور عما تكون ([106]).

قدم إليّ الحصان الأحمر جذرًا أمسكه بين حافره ورسغه (حسب طريقتهم، التي سأصفها في الوقت المناسب) أخذته بيدي، وشممته، ثم أعدته إليه بما استطعت من تهذيب، فأخرج من وجار الياهو قطعة من لحم حمار كانت رائحتها كريهة جدًا، حتى أنني التفتُ عنها باشمئزاز، فرماها إلى الياهو الذي التهمها بشراهة. عرض عليّ بعد ذلك حزمة تبن وبعض الشوفان، لكنني هززت رأسي لأبين أن لا شيء من ذلك يصلح طعامًا لي. بدأت عندئذ أخشى أن أتضور جوعًا إن لم أقابل أحدًا من بني جنسي، أما أولئك الياهو القذرين، بالرغم من

أنني كنت من أكثر الناس حبًا لبني البشر في ذلك الوقت، أعترف بأنني لم أر قَط مخلوقًا بغيضًا على جميع الأصعدة أكثر منهم، وكلما اقتربت منهم كلما زادوني نفورًا خلال إقامتي في ذلك البلد. لاحظ السيد الحصان ذلك النفور من سلوكي، فأعاد الياهو إلى وجاره. بعد ذلك وضع حافره الأماميّ على فمه وصنع إشارات أخرى ليسألني عما يمكن أن آكله، فدهشت، رغم أنه فعل ذلك بسهولة وبحركة بدت طبيعية تمامًا، لكنني لم أستطع أن أرد بإجابة يستطيع فهمها، ولو فهمني، فلم أعرف كيف يمكن أن يعثر على طعام لي. بينما كنا على تلك الحال رأيت بقرة تمر في الجوار، فأشرت إليها، وعبرت عن رغبتي بالذهاب لحلبها. نجح ذلك، فقد رجع بي إلى منزله، وأمر فرسًا من الخدم أن تفتح غرفة فيها مخزون من الحليب، محفوظ في أوعية فخارية وخشبية بطريقة نظيفة ومنظمة للغاية. أعطتني وعاء كبيرًا مملوءًا فشربت منه بنهم، ووجدت نفسي قد استعدت قواي.

قُبيل الظهيرة رأيت مركبة تقترب من المنزل يجرها أربعة من الياهو مثل مزلجة ([107])، ويركبها جواد عجوز بدا شخصية مرموقة. نزل بقائمتيه الخلفيتين أولًا، بسبب أذىً أصاب قائمته الأمامية اليسرى في حادث، وقد جاء لتناول العشاء مع حصاننا، الذي استقبله بتَرحاب. تناولا العشاء في أفضل غرفة، وكان الطبق الثاني عبارة عن شوفان مغلي مع الحليب، أكله الجواد العجوز دافئًا، وأكله الباقون باردًا. وضع معلفهم بشكل دائري في منتصف الغرفة، مقسمًا إلى أقسام عديدة، وجلسوا حوله على أوراكهم فوق أكوام من القش. في المنتصف كان هنالك مِنصب كبير، له زوايا توافق كل قسم من المعلف، بحيث يأكل كل حصان وفرس تبنه الخاص ووجبته من هريس الشوفان والحليب، بكثير من اللباقة والترتيب. كان سلوك المهر والمهرة الصغيرين متواضعًا، وسلوك السيد والسيدة في غاية البشاشة واللطف مع ضيفهما. أمرني الحصان الأشهب أن أقف بجانبه، ودار حديث طويل بينه وبين صديقه بخصوصي، عرفت ذلك من نظرات الضيف المتكررة نحوي، وتكرار كلمة «ياهو».

كنت عندئذٍ ألبس قفازاتي مصادفة، فبدت الحيرة على السيد الأشهب لرؤيتها، وعبر عن تساؤله عما فعلته بأقدامي الأمامية، ثم وضع حافره عليها ثلاث أو أربع مرات كأنما يريدني أن أعيدها إلى شكلها السابق. خلعت القفازين على الفور ووضعتهما في جيبي، مما أثار حديثًا آخر، ورأيت الضيف مسرورًا بتصرفي، وسرعان ما رأيت الأثر الجيد لذلك. أمِرت بأن أقول الكلمات القليلة التي أعرفها، وعلمني السيد أثناء العشاء أسماء الشوفان والحليب والنار والماء وغيرها، فاستطعت أن ألفظها بعده بسهولة، بسبب براعتي في تعلم اللغات منذ صغري.

أخذني السيد الحصان جانبًا بعد العشاء، وأفهمني بالإشارات والكلمات قلقه من عدم وجود شيء آكله، فلفظتُ كلمة «هْلُنه» التي تعني الشوفان بلغتهم مرتين أو ثلاث، لأنني رغم رفضي له في البداية، عدت وفكرت أنني أستطيع أن أصنع منه ما يشبه الخبز، الذي قد يكفي مع الحليب لإبقائي على قيد الحياة إلى أن أستطيع الهرب إلى بلدٍ آخر ومخلوقاتٍ من نوعي نفسه. أمر الحصان مباشرة فرسًا بيضاء من خدم عائلته بإحضار كمية وفيرة من الشوفان في ما يشبه صينية خشبية. سخنتُه على النار جيدًا، ثم فركته حتى انفصلت القشور، وحاولت أن أذريها عن البذور، طحنتها بعد ذلك وسحقتها بين حجرين، ثم أخذت ماءً وصنعت بهما عجينًا خبزته على النار، وأكلته دافئًا مع الحليب. وجدته في البداية طعامًا عديم النكهة، رغم شيوعه في أجزاء عدة من أوروبا، لكنه صار مقبولًا مع الوقت. لم تكن تلك أول تجربة تثبت لي سهولة إشباع الاحتياجات الطبيعية، لأنني كثيرًا ما اضطررت لتدبر أمري بأي طعام خلال حياتي. ولا أستطيع إلا أن ألاحظ أنني لم أعانِ من أي مرض طوال إقامتي في تلك الجزيرة. أحيانًا كنت أحاول اصطياد أرنب بواسطة أفخاخ مصنوعة من شعر الياهو، وأحيانًا كنت أجمع نباتات أغليها أو آكلها كسلطة مع خبزي، وبين حين وآخر كنت أصنع قليلًا من الزبد، وأشرب المخيض. في البداية افتقدت الملح بشدة، لكنني سرعان ما اعتدت على غيابه، وأنا واثق أن الاستخدام الدائم للملح عندنا وليد الرفاهية، حيث كان يستخدم في البداية كمجرد محفز على الشرب، إلا عندما يكون ضروريًا لحفظ اللحم في الرحلات الطويلة أو في الأماكن التي تبعد عن الأسواق الكبرى. كذلك فإننا لم نجد حيوانًا مولعًا به سوى البشر، وبالنسبة إليّ، عندما غادرت ذلك البلد مرّ وقت طويل قبل أن أحتمل طعمه مجددًا في أي طعام آكله.

يكفي قول هذا القدر عن الطعام، الذي يملأ الرحالة كتبهم بالحديث عنه، وكأن القراء يهمهم بشكل شخصي إن كنا نتغذى بشكل جيد أم سيئ. على أي حال، كان من الضروري ذكر هذه المسألة لئلا يظن العالم أن من المستحيل عليّ العثور على غذاء طوال ثلاث سنوات في ذلك البلد، وبين أولئك السكان.

عندما اقترب المساء أمر السيد الحصان بتجهيز مكان آوي إليه، منفصلٍ عن إسطبل الياهو، ولا يبعد عن البيت سوى ستة ياردات. جمعت بعض القش تحتي، وغطيت نفسي بثيابي نفسها، ثم نمت هناك بعمق. لكنني خلال وقت قصير حسنت من ظروفي، كما سيعرف القارئ حين أتحدث بتفصيل عن أسلوب حياتي.

الفصل الثالث

يدرس المؤلف لغة الهوينهم، يساعد سيده في تعليمه. وصف تلك اللغة. يأتي عدد من كبار الهوينهم بدافع الفضول لرؤية المؤلف. يحكي لسيده قليلًا عن رحلاته.

كان مسعاي الأهم هو تعلم اللغة، وقد أبدى سيدي (هكذا سأدعوه من الآن فصاعدًا) وأولاده وكل خادم في المنزل لهفة لتعليمي، لأنهم رأوها أعجوبةً أن يتصرف حيوان بري مثل كائن عاقل. اعتدتُ أن أشير لكل شيء للسؤال عن اسمه، وأكتبه في مفكرتي حين أكون وحدي، ثم أصحح لهجتي السيئة بأن أطلب من أفراد العائلة تكرار لفظه، وفي ذلك كان الحصان الأحمر من بين الخدم متأهبًا لمساعدتي.

يلفظ الهوينهم كلامهم عبر الأنف والحلق، وتشبه لغتُهم الهولنديةَ أو الألمانية أكثر من أي لغة أوروبية أعرفها، لكنها تفوقهما لباقةً وقدرة على التعبير. لاحظ الإمبراطور تشارلز الخامس الشيء نفسه عندما قال إنه لو استطاع أن يكلم حصانه لفعل ذلك بالهولندية.

أمضى سيدي كثيرًا من ساعات فراغه في تعليمي لشدة لهفته وفضوله. كان مقتنعًا أنني من بني الياهو -كما أخبرني لاحقًا- لكنه دهش من قدرتي على التعلم وتهذيبي ونظافتي، لأنها صفات مناقضة تمامًا لتلك الحيوانات، كذلك فقد حيرته ثيابي، وكثيرًا ما تساءل بينه وبين نفسه إن كانت جزءًا من جسدي، لأنني كنت لا أخلعها إلا حين تخلد العائلة للنوم، وألبسها قبل أن يستيقظوا في الصباح. كان متلهفًا ليعرفَ من أين جئت وكيف اكتسبت مظاهر العقل تلك التي أبديها في كل أفعالي، وليسمعَ قصتي بلساني أنا، آملًا أن أحكيها له قريبًا بفضل الطلاقة التي اكتسبتها في تعلم ولفظ كلماتهم وجملهم. لكي أساعد ذاكرتي حولت كل ما تعلمته إلى الأبجدية الإنكليزية، ودونت الكلمات مع ترجمتها. بعد مدة صرت أفعل ذلك في حضور سيدي، ووجدت مشقة كبيرة في أن أشرح له ما كنت أفعل، لأن ذلك الشعب لا يملك أدنى فكرة عن الكتب أو الكتابة.

خلال عشرة أسابيع صرت قادرًا على فهم معظم أسئلته، وبعد ثلاثة أشهر استطعت أن أرد بإجابات مفهومة. كان لديه فضول كبير ليعرف من أي جانب من البلاد أتيت، وكيف تعلمت أن أقلد كائنًا عاقلًا، لأن الياهو بمظهرهم الماكر وميلهم الكبير للأذى، يعتبرون الأكثر بدائية بين كل الحيوانات، وقد رآهم مشابهين لي تمامًا بشكل رأسي ويدي ووجهي، وهي كل ما يظهر مني. أجبته أنني أتيت عبر البحر من مكان بعيد مع كثرٍ آخرين من بني جنسي، في سفينة

كبيرة مجوفة مصنوعة من جذوع الأشجار، وأن رفاقي أجبروني على النزول عند هذا الساحل، ثم تركوني لأتدبر أمري بنفسي. تكبدت صعوبة كبيرة واستعنت بكثير من الإشارات حتى فهمني. قال إنني لا بد أن أكون مخطئًا، أو أنني قلت ما لم يكن (ليس في لغتهم كلمة تعبر عن الكذب أو الخداع)، لأنه يعرف أنه لا يمكن وجود بلاد وراء البحار، ولا يمكن أن يستطيع حفنة من الوحوش تحريك سفينة خشبية كيفما يشاؤون فوق الماء. وقد كان واثقًا أنه ما من هوينهم على قيد الحياة يقدر على صنع سفينة كهذه، أو قد يسلم قيادتها إلى بني الياهو.

كلمة «هوينهم» في لغتهم تعني الحصان، وأصل الكلمة يعني «كمال الطبيعة». أخبرت سيدي أنني عاجز عن التعبير عن نفسي بشكل جيد، لكنني سأتحسن بأسرع ما يمكن، وأتمنى أن أقدر على إخباره العجائب في وقت قريب. فأوصى فرسه ومهره ومهرته وكل خدم العائلة أن يستغلوا كل فرصة لتعليمي، وكل يوم كان يبذل الجهد نفسه مدة ساعتين أو ثلاث. جاء العديد من كبار الأحصنة والأفراس في الجوار إلى منزلنا بعد انتشار خبرٍ عن ياهو مذهل يستطيع أن يتكلم مثل هوينهم، وتبدو من كلماته وأفعاله ومضات تدل على امتلاكه العقل. كانوا يسرون بالحديث معي، ويطرحون أسئلة عديدة ويتلقون مني الإجابات التي أقدر على ردها. بفضل تلك الظروف المساعدة أحرزت تقدمًا كبيرًا، وصرت بعد خمسة أشهر من وصولي قادرًا على فهم أي شيء يقال لي، والتعبير عن نفسي بشكل جيد.

لم يستطع الهوينهم الذين كانوا يأتون لزيارة سيدي بهدف رؤيتي والحديث معي تصديق أنني ياهو حقيقي، ذلك أن لجسدي كساءً يختلف عن الآخرين من بني جنسي، وقد أدهشتهم رؤيتي دون الشعر أو الجلد المعتاد لدى الياهو إلا على رأسي ووجهي ويدي، لكنني كشفت السر لسيدي بسبب حادثة حصلت قبل حوالي أسبوعين.

أخبرت القارئ من قبل أنني اعتدت على خلع ثيابي وتغطية نفسي بها كل ليلة بعد أن تخلد العائلة للنوم. ذات صباح باكر أرسل سيدي خادمه الخاص الحصان الأحمر لاستدعائي، فدخل عليّ بينما كنت أغط في النوم، وقد سقطت ثيابي عن أحد جانبي، وارتفع قميصي عن وسطي. استيقظتُ من الضجة التي أحدثها، ولاحظتُ أنه أوصل الرسالة بارتباك، بعد ذلك ذهب إلى سيدي، ونقل له بذعرٍ صورةً مشوشة عما رآه. سرعان ما اكتشفت ذلك، لأنني ذهبت لأقابل سيدي حالما ارتديت ثيابي، فسألني عن معنى ما قاله خادمُه من أن شكلي عندما أنام يختلف عن شكلي في أوقات أخرى، وقال إن خادمه أكد له أن بعض أجزاء جسدي بيضاء، وبعضها صفراء، أو ليست بالبياض نفسه على الأقل، والبعض الآخر بني.

كنت حتى ذلك الوقت قد أخفيت سرّ ثيابي كي أميز نفسي قدر الإمكان عن جنس الياهو الملعون ذاك، لكنني وجدت حينئذٍ ألا داعي لذلك بعد الآن، وفكرت بأن ثيابي وحذائي لن تلبث أن تهترئ -وقد كانت بالفعل في حالة مزرية- وسأضطر لإصلاحها بطريقة ما باستخدام جلود الياهو أو حيوانات أخرى، عندئذٍ سيكشف السر. لذلك أخبرت سيدي أن بني جنسي في البلد الذي جئت منه يغطون أجسادهم بشعور حيوانات تحضّر بحرفة معينة، بهدف الاحتشام وتجنب أمراض الطقس البارد والحار على حد سواء، وأستطيع أن أبرهن له ذلك مباشرة إن أمرني، طالبًا منه أن يعذرني إن لم أظهر تلك الأجزاء التي علمتنا الطبيعة إخفاءها. قال إن حديثي كان غريبًا، بالذات الجزء الأخير منه، لأنه لم يفهم لمَ قد تعلمنا الطبيعة إخفاء أجزاء منحتنا إياها بنفسها، وإنه هو وعائلته لا يخجلون من أي جزء في جسدهم، لكن بوسعي أن أفعل ما شئت على كل حال. عندها بدأت بفك أزرار صدريتي، وخلعت حذائي وجواربي وبنطالي، وأنزلت قميصي حتى وسطي، ورفعت أسفله، شادًا إياه مثل حزام على وسطي كي أخفي عريي.

راقب سيدي كل ما فعلته بفضول ودهشة كبيرين، وأمسك كل ثيابي برسغه قطعة بعد قطعة وتفحصها بدقة، ثم تلمس جسدي بلطف، ونظر حولي مرارًا. قال بعدها إنني ياهو حقيقي بلا شك، إلا أنني أختلف كثيرًا عن بقية بني جنسي ببياض ونعومة بشرتي، وغياب الشعر في عدة أماكن من جسدي، وشكل وقصر مخالب أقدامي الأمامية والخلفية، وتكلفي بالمشي دومًا على قدميّ الخلفيتين. لم يطلب رؤية المزيد، وسمح لي بارتداء ثيابي مجددًا لأنني كنت أرتعد من البرد.

عبرت عن ضيقي من مناداته المتكررة لي بالياهو، لأنه حيوان بغيض أشعر تجاهه بالمقت والكره. توسلت إليه أن يمتنع عن إطلاق تلك التسمية عليّ، وأن يأمر بذلك عائلته ورفاقه الذين يسمح لهم برؤيتي. طلبت أيضًا ألا يعرف أحدٌ سواه سرّ امتلاكي كساءً مزيفًا على جسدي، على الأقل طوال ما يمكن لثيابي الحالية أن تدوم، أما بالنسبة لما رآه خادمه، فقد طلبت من سموّه أن يأمره بإخفائه.

وافق سيدي على كل ذلك بسماحة، وحفظ السر حتى بدأت ثيابي تهترئ، حيث اضطررت لإيجاد بديل بعدة طرق سأذكرها لاحقًا. خلال ذلك الوقت، طلب مني أن أبذل قصارى جهدي في تعلم لغتهم، لأن قدرتي على الكلام والتفكير أدهشته أكثر من شكل جسدي، سواء كان مكسوًا أو عاريًا، وأضاف أنه ينتظر بلهفة سماع العجائب التي وعدت أن أحكيها له.

منذ ذلك الوقت ضاعف جهوده في تعليمي، فصار يدخلني على كل الضيوف، ويطلب منهم معاملتي باحترام، لأن ذلك -كما أخبرهم سرًا- سيحسن من

مزاجي ويجعلني أكثر إمتاعًا. بالإضافة إلى ذلك الجهد الذي بذله في تعليمي، كان كل يوم عندما أكون بصحبته يسألني عدة أسئلة، فأجيبه عليها بقدر ما استطعت، وبذلك شكل بالفعل فكرة عامة عني، وإن كانت مغلوطة. سيكون من المضجر أن أسرد الخطوات الكثيرة التي وصلت بها نحو محادثة أكثر اتساقًا معه، لكن أول حديث سردته عن نفسي كان تقريبًا كالتالي؛ أخبرته أنني أتيت من بلاد بعيدة جدًا مع قرابة خمسين آخرين من بني جنسي، كما حاولت أن أشرح له من قبل؛ أننا سافرنا في البحر في سفينة كبيرة مجوفة مصنوعة من الخشب، أكبر من بيت سموّه، وصفتها له بقدر استطاعتي، وشرحت له باستخدام منديلي كيف تتحرك بواسطة الرياح. أضفت أنهم بعد نزاعٍ دار بيننا نبذوني على هذا الساحل، حيث مشيت لا أعرف وجهتي، حتى أنقذني هو من هجوم بني الياهو الملاعين. سألني عمن صنع السفينة، وكيف من الممكن أن يترك الهوينهم في بلادي قيادتها للوحوش؟ فكان جوابي، أنني لن أجرؤ على الاستمرار في حديثي، إلا إن أعطاني وعدًا منه بألا يشعر بالإهانة، عندئذٍ سأخبره بكل العجائب التي وعدته بها مرارًا. وافق على ذلك، فتابعت مؤكدًا له أن السفينة من صنع مخلوقات مثلي، هي في كل البلاد التي زرتها، بالإضافة إلى بلادي، الكائناتُ العاقلة المنفردة بالحكم؛ وأنني عند وصولي إلى هنا عجبتُ أشد العجب من رؤية الهوينهم يتصرفون مثل الكائنات العاقلة، كما كانت دهشته ودهشة أصدقائه لرؤية علامات العقل عند مخلوقٍ يدعوه «ياهو»، أعترف بشبهي له في كل شيء، لكنني لا أستطيع تفسيرَ طبيعته البدائية والوحشية. قلت أيضًا، إنْ أعادتني الأقدار الحسنة يومًا إلى بلدي لأحكي عن رحلتي إلى هنا، كما كنت قد قررت، سيظن الجميع أنني قلت ما لم يكن، وأنني اخترعت القصة من خيالي؛ ومع كل احترامي له ولعائلته وأصدقائه، وبسبب وعده بألا يشعر بالإهانة، إن أهل بلدي لن يروا من المعقول أن يكون الهوينهم هو الكائن الحاكم في شعبٍ ما، والياهو هو الحيوان البريّ.

الفصل الرابع

مفهوم الصدق والكذب عند الهوينهم. يرفض السيد حديثَ المؤلف. يحكي المؤلف بتفصيل أكبر عن نفسه، وعن حوادث رحلته.

أنصت لي سيدي والانزعاج بادٍ على وجهه، لأن الشك أو التكذيب أشياء غير معروفة في ذلك البلد، حتى أن السكان لا يعرفون كيف يتصرفون إزاءهما. وأذكر أنه خلال أحاديث متكررة بخصوص الطبيعة البشرية في أماكن أخرى من العالم، وفي معرض الحديث عن الكذب والخداع، لم يفهم ما أعنيه بهما إلا بصعوبة كبيرة، رغم أنه يمتلك ذكاءً حادًا. قال إن الهدف من الكلام هو أن يفهم واحدنا الآخر، وأن نعرف الحقائق، بالتالي، إذا قال لي أحدٌ الشيء الذي لم يكن، فهو يعارض تلك الأهداف، لأنني لا أعتبر قد فهمته بشكل صحيح، وبدلًا من معرفة الحقائق تركني فيما هو أسوأ من الجهل، حيث جعلني أصدق أن شيئًا ما أسود، بينما هو أبيض، أو قصير، بينما هو طويل. وكان ذلك كل مفهومه فيما يخص القدرة على الكذب، التي يفهمها البشر تمامًا ويمارسونها بينهم على أوسع نطاق.

بالعودة من هذا الاستطراد؛ عندما قلت إن الياهو هم الكائنات الحاكمة الوحيدة في بلدي، قال سيدي إن ذلك عصيّ على الفهم، ورغب أن يعرف إن كان عندنا هوينهم، وما هي وظيفتهم. أخبرته أن لدينا أعدادًا كبيرة منهم، يرعون في الحقول صيفًا، وفي الشتاء يمكثون في بيوت فيها تبن وشوفان، حيث يتولى خدمٌ من بني الياهو فرك جلودهم وتمشيط أعرافهم وتنظيف حوافرهم وتزويدهم بالطعام وترتيب فراشهم. «أفهمك جيدًا» قال سيدي، «أصبح واضحًا من كل ما قلته أن الهوينهم أسيادكم، مهما تظاهر بنو الياهو بامتلاكهم العقل. أتمنى بشدة لو كان بنو الياهو عندنا طيعين هكذا». رجوته أن يعذرني عن الاستمرار بالحديث أكثر، لأنني كنت واثقًا أن ما يريد معرفته مني سوف يزعجه للغاية، لكنه أصر على أن أخبره بكل شيءٍ جيد أو سيئ، فقلت إن طلبه مجاب. اعترفت بأن الهوينهم، الذين ندعوهم «أحصنة»، هم أجمل وأجود الحيوانات لدينا، وهم متفوقون في القوة والسرعة؛ عندما يمتلكهم أحد كبار الشخصيات يوظفهم في السفر والسباق وجر العربات، ويعامَلون بلطف وعناية إلى أن يصابوا بمرض أو تلتهب حوافرهم، عندئذٍ يباعون ويُستخدمون في مختلف الأعمال الشاقة حتى يموتوا، بعد ذلك تسلخ جلودهم وتباع بثمن مناسب، وتترك أجسادهم لتلتهمها الكلاب أو الطيور الجارحة. لكن السلالات العادية من الأحصنة ليست بالحظ نفسه، فهي مملوكة من قبل الفلاحين والحمالين وآخرين من عامة الشعب، يجبرونها على العمل الشاق ويطعمونها أسوأ الطعام. وصفتُ قدر الإمكان طريقتنا في ركوبها، وشكل واستخدام اللجام

والسرج والمهماز والسوط والعتاد والعربات، وأضفت أننا نثبت صفائح من مادة صلبة تسمى الحديد أسفل حوافرها للحفاظ عليها من الكسر على الطرق الحجرية التي نسافر فيها كثيرًا.

عبر سيدي عن استنكاره الشديد، وتساءل كيف يمكن أن نجرؤ على ركوب ظهر الهوينهم، لأنه واثق أن أدنى خادم في منزله قادر على رمي أقوى بني الياهو عن ظهره، أو سحقه حتى الموت بالانبطاح والانقلاب على ظهره. أجبته أن خيولنا تدرب من سن ثلاث أو أربع سنوات على الوظائف المختلفة المهيأة لها، وإن كان أي منها متوحشًا بشكل لا يحتمل يستخدم في جر العربات؛ أنها تضرب بقسوة في صغرها على أي تصرف مؤذٍ، وأن الخيول التي تستخدم للركوب أو الجر يتم إخصاؤها عادة بعد سنتين من ولادتها لإطفاء طاقتها وجعلها أكثر ألفة وهدوءًا، وأنها تفهم المكافأة والعقاب، لكن على سموّه أن يضع في اعتباره أنها لا تملك من العقل أكثر من أي ياهو في هذا البلد.

تكبدت مشقة الاستطراد مرارًا كي أعطي سيدي فكرة صحيحة عما أتحدث عنه، وذلك بسبب افتقار لغتهم إلى التنوع في الكلمات، لأنهم يملكون من الرغبات والمشاعر أقل مما نملك. لكن من المستحيل وصف نفوره النبيل من معاملتنا الوحشية لبني الهوينهم، خاصة بعد أن شرحت له طريقة إخصاء الأحصنة، لمنعها من التكاثر وجعلها أكثر طواعية. قال إنه لو أمكن وجود أي بلد وهب فيه بنو الياهو وحدهم العقل، فلا بد أن يكونوا الكائن الحاكم، لأن العقل يسود مع الوقت على القوة الوحشية. لكن بالنظر إلى شكل أجسادنا، وخصوصًا جسدي، فكر أنه لا يوجد كائن مساوٍ لنا بالحجم يملك مثل هذا التركيب الجسدي السيئ الذي لا يسمح له باستخدام العقل على أكمل وجه في الوظائف الحياتية العادية، وسأل إن كان أولئك الذين كنت أعيش بينهم يشبهونني أم يشبهون الياهو في هذا البلد. أكدت له أن شكلي مماثل لأيّ أحد في مثل سني، لكن الصغار والإناث أكثر نعومة وليونة، وجلد الإناث أبيض كالحليب. قال إنني أختلف بالفعل عن الياهو الآخرين، فأنا أكثر نظافة منهم، ولست بشعًا مثلهم. أما بالنسبة إلى الميزات العملية فقد رأى اختلافي للأسوأ، لأن أظافر أقدامي الأمامية والخلفية ليس لها أي فائدة، أما بالنسبة إلى قدميّ الأماميتين، فلا يستطيع أن يطلق عليهما تلك التسمية، لأنه لم يرني أمشي عليهما قط، وهما أشد طراوة من أن تتحملا قساوة الأرض، وإنني أمشي دومًا دون تغطيتهما، وحتى الغطاء الذي أرتديه بهما أحيانًا ليس بمثل شكل أو قساوة الذي أرتديه بقدميّ الخلفيتين. كذلك فأنا لست آمنًا في مشيي، لأنني إذا انزلقت إحدى قدمي الخلفيتين سوف أقع لا محالة. سرعان ما بدأ يرى عيوبًا في أجزاء أخرى من جسدي، مثل شكل وجهي المسطح، وبروز أنفي، ووجود عينيّ الاثنتين في الأمام بحيث لا أستطيع أن أرى ما على جانبي دون أن أدير رأسي، وعدم قدرتي على تناول الطعام دون رفع إحدى قدميّ الأماميتين إلى

فمي، لذلك وضعت الطبيعة فيها تلك المفاصل تلبيةً لهذه الحاجة. لم يعرف ما قد تكون فائدة تلك الشقوق والأقسام العديدة في قدميّ الخلفيتين، ووجدهما أكثر طراوة من أن تحتملا قساوة وحدّة الأحجار دون غطاء مصنوع من جلد حيوان آخر. ووجد أن جسدي كله بحاجة إلى كساءٍ يقيه الحر والبرد، وأنا مجبر على خلعه وارتدائه كل يوم بشكل مضجر ومتعب. أضاف أخيرًا، أنه لاحظ لدى كل الحيوانات في بلده كرهًا فطريًا تجاه بني الياهو، حيث يتجنبهم الأضعف منهم، ويبتعد عنهم الأقوى. وعلى فرض امتلاكنا هبة العقل، لم يستطع أن يتخيل كيف استطعنا شفاء ذلك النفور الطبيعي الذي يبديه كل مخلوق تجاهنا، ولا كيف تمكنا من ترويضهم وتطويعهم. على أي حال، قال إنه لن يناقش المسألة أكثر، لأنه كان متلهفًا لمعرفة المزيد عن قصتي، وبلدي الذي ولدت فيه، والأحداث العديدة في حياتي قبل أن آتي إلى هناك.

قلت له إنني متلهف لأجيبه جوابًا وافيًا على كل سؤال، لكنني أشك فيما إذا كان من الممكن أن أشرح مواضيع عديدة لا يملك سموه أي فكرة عنها، لأنني لم أر في هذا البلد شيئًا أستطيع تشبيهها به، وإنني سأبذل جهدي على أي حال، وأحاول أن أعبر عما أريد بالتشابيه، طالبًا مساعدته الكريمة حين تنقصني الكلمات المناسبة، ووعدني بذلك بسرور.

أخبرته أنني ولدت لأبوين بسيطين في جزيرة تدعى إنكلترا، تبعد عن هذا البلد مسافةَ رحلةٍ عددُ أيامها قدر ما يستطيع أقوى خدم سموّه على السفر خلال المسار السنوي للشمس؛ أنني تعلمت الجراحة، وهي مهنة تعنى بعلاج الجروح وأذيات الجسم التي تنجم عن حادث أو عنف؛ أن بلدي تحكمه أنثى بشرية نسميها «ملكة»، وقد تركتُه لكسب المال، كي أستطيع أن أعيل به نفسي وأسرتي عند عودتي؛ أنني في رحلتي الأخيرة كنت قائد السفينة، وكان تحت إمرتي قرابة خمسين ياهو، مات عدد منهم في البحر، فاضطررت لتعويضهم بآخرين اخترتهم من شعوب مختلفة؛ أن سفينتنا تعرضت لخطر الغرق مرتين، الأولى بسبب عاصفة عاتية، والثانية بسبب الاصطدام بصخرة. هنا تدخل سيدي، وسألني كيف استطعت إقناع أجانب من بلدان عدة أن يغامروا معي بعد الخسارات التي تكبدتُها والأخطار التي واجهتها. قلت إنهم أشخاصٌ ذَوو أقدار بائسة، مجبرون على الهرب من بلادهم بسبب فقرهم أو جرائمهم، بعضهم أفلس بسبب دعاوى قضائية، وآخرون أنفقوا كل ما لديهم في الشرب والزنى والقمار، غيرهم هرب بتهمة الخيانة، وكثيرون بتهمة القتل أوالسرقة أو دس السم أو النهب أو شهادة الزور أو التزوير أو صك عملة مزيفة، أو ارتكاب اغتصاب أو لواط، أو الفرار من الجيش أو الهرب إلى العدو، وأكثرهم هارب من السجن. لا أحد منهم يجرؤ على العودة إلى وطنه خوفًا من أن يشنق أو يموت جوعًا في أحد السجون، وهكذا اضطروا إلى البحث عن مصدر رزق في أماكن أخرى.

خلال هذا الحديث قاطعني سيدي مرارًا، واستطردتُ كثيرًا كي أشرح له طبيعة تلك الجرائم العديدة التي اضطر معظم أفراد طاقمنا للفرار من بلدانهم بسببها، فاستغرق ذلك العمل الشاق أيامًا عدة من الحديث قبل أن يستطيع فهمي تمامًا. لم يفهم أبدًا فائدة أو سبب ممارسة تلك الرذائل، ولأوضح له ذلك، حاولت أن أعطيه فكرة عن الرغبة بالسلطة والمال، وعن الآثار المدمرة للشهوة والإدمان والحقد والحسد، واضطررت لتعريف ووصف كل ذلك بطرح أمثلة وصنع فرضيات، فكان عندئذٍ يرفع ناظريه بدهشةٍ واستياء، مثل شخصٍ واجهت مخيلته أمرًا لم يره أو يسمع عنه أبدًا من قبل. ليس للسلطة والحكمِ والحرب والقانون والعقاب وألفِ شيء آخر مصطلحاتٌ في تلك اللغة يمكن أن تعبر عنها، مما جعل في شرح ما أعنيه لسيدي صعوبةً لا تقهر. لكنه بذكائه الحاد، مع التأمل والنقاش، وصل في النهاية إلى قدر مناسب من المعرفة بما تقدر الطبيعة البشرية على فعله في ذلك الجانب من العالم، وطلب مني أن أحدثه بالتفصيل عن الأرض التي ندعوها أوروبا، وعن بلدي بشكل خاص.

الفصل الخامس

يحدّث المؤلف سيدَه عن إنكلترا بناء على طلبه. يذكر أسباب الحرب بين ملوك أوروبا. يبدأ بشرح الدستور الإنكليزي.

أود أن ألفت نظر القارئ إلى أن المقتبسات التالية من أحاديثي الكثيرة مع سيدي، تحوي خلاصة النقاط الجوهرية التي ناقشناها في مرات عدة على مدى أكثر من سنتين، فقد كان سموّه يطلب إجابات أوسع كلما تحسنتُ في لغة الهوينهم. شرحت له بقدر ما استطعت وضعَ كل شيء في أوروبا، من التجارة والصناعة، إلى الفنون والعلوم، وكانت إجاباتي على أسئلته التي طرحها عن مواضيع عديدة مخزونًا لا ينفد من الأحاديث. لكنني سأذكر هنا ما دار بيننا بخصوص بلدي فقط، محاولًا تنظيمه قدر الإمكان دون أي ذكر للزمن أو الظروف الأخرى، بينما ألتزم بالحقيقة بصرامة. خوفي الوحيد هو ألا أقدر على نقل نقاشات وتعابير سيدي بأمانة، التي لا بد أن ينالها النقص بسبب قلة قدرتي على وصفها، وبسبب ترجمتها إلى إنكليزيتنا البربرية.

امتثالًا لأوامر سموه، حدثته عن الثورة تحت حكم أمير أورانج، والحربِ الطويلة مع فرنسا التي أعلنها ذلك الأمير ([108])، وأعادت إحياءها خليفته الملكة الحالية، والتي تورطت فيها القوى العظمى في العالم المسيحي، وما زالت مستمرة. قدّرتُ، جوابًا على سؤاله، أن قرابة مليون من الياهو قُتلوا خلالها، واستولي على مئة مدينة أو أكثر، وأحرِق وأغرق من السفن خمسة أضعاف ذلك العدد.

سألني عن الأسباب أو الدوافع المعتادة التي تجعل بلدنا يدخل حربًا مع بلد آخر، فأجبت بأنها لا تعد ولا تحصى، لكنني سأذكر بعض الأسباب الرئيسية. أحيانًا يكون السبب طموحَ الملوك، الذين لا يعتقدون قط أنهم يحكمون ما يكفي من الأرض والناس؛ وأحيانًا فساد الوزراء، الذين يورطون ملكهم في حرب بهدف كبت أو تبديد غضب الرعايا على السلطة الفاسدة. كذلك فقد راحت ملايين الأرواح ضحية اختلاف الآراء، حول أشياء من قبيل ما إذا كان اللحم خبزًا أم الخبز لحمًا، وعصير توت معين دمًا أم نبيذًا، وصوت الصفير رذيلةً أم فضيلة ([109]) ؛ إذا كان من الأفضل تقبيل قطعة خشب أم رميها في النار ([110]) ؛ وما هو أفضل لون للمعطف، أسود أم أبيض أم أحمر أم رمادي، وهل يجب أن يكون طويلًا أم قصيرًا، ضيقًا أم واسعًا، وسخًا أم نظيفًا؛ وغيرها الكثير. وليس هنالك من حربٍ أشد شراسةً ودمويةً أو أطول أمدًا من الحروب التي يسببها اختلاف الآراء، خاصة إذا كان حول أمر تافه.

أحيانًا يختلف ملكان حول مَن منهما سيجرد ثالثًا من أراضي مملكته، التي لا يملك أي منهما حقًا فيها. أحيانًا يعادي ملكٌ ملكًا آخر، خوفًا من أن الآخر قد

يعاديه. أحيانًا يدخل الحرب لأن العدو شديد القوة، وأحيانًا لأنه شديد الضعف. أحيانًا يرغب جيراننا بالأشياء التي نملكها، أو يملكون الأشياء التي نرغب بها، ونستمر بالقتال حتى يأخذوا ما لدينا أو يعطونا ما لديهم. إنه لسبب مقبول تمامًا للحرب، أن يُغزى بلدٌ بعد أن تضني أهلَه المجاعةُ، أو يدمرهم الوباء، أو تنهكهم النزاعات الداخلية. ومن المبرر أن ندخل حربًا ضد أقرب حليف لنا، إذا كانت إحدى مدنه في موقع مناسب لنا، أو قطعةٌ من أرضه قد تجعل بلدنا منتظمًا ومتماسكًا. إذا أرسل ملكٌ قواته إلى بلدٍ أهله فقراء وجهلة، يستطيع بالقانون أن يقتل نصفهم ويستعبدَ البقية، بهدف تمدينهم وتغيير أسلوب حياتهم الهمجي. إنه لسلوك ملكيٌ ومشرّفٌ ومعتاد، عندما يطلب ملكٌ دعمًا من آخر لحمايته من الغزو، أن يستولي ذلك المنقذُ على المملكة بعد دحر الغزاة، ويقتل أو يسجن أو ينفي الملكَ الذي ذهب لنجدته. الموالاة بالدم أو المصاهرة سبب كافٍ للحرب بين الملوك، وكلما كانت القرابة أشد كلما زاد ميلهم للصراع. الأمم الفقيرة جائعة، والغنية مغرورة، والغرور والجوع يظلان في تفاوت دائم. لهذه الأسباب، تعتبر مهنة الجندي الأسمى من بين المهن، لأن الجندي هو ياهو موظفٌ لقتل أكبر عدد ممكن من بني جنسه، الذين لم يؤذوه قط، بدمٍ بارد. هنالك أيضًا ملوكٌ فقراء في أوروبا، لا يقدرون على شنّ حرب بأنفسهم، فيؤجرون جنودهم لأمم أغنى مقابل مبلغ معين لكل منهم، يأخذون ثلاثة أرباعه لأنفسهم، ويشكل ذلك القسمَ الأكبر من دخلهم، كما هو الحال في بعض الأجزاء الشمالية من أوروبا.

«ما قلتَه لي بخصوص الحرب»، قال سيدي، «يظهر بشكل مدهش آثار ذلك العقل الذي تزعمون امتلاكه. على أي حال، من حسن الحظ أن العار في ذلك أكبر من الخطر، وأن الطبيعة جعلتكم عاجزين عن إلحاق الأذى ببعضكم، فأفواهكم المسطحة مع وجوهكم بالكاد تسمح لكم بعضّ بعضكم بشكل مؤذٍ إلا بالاتفاق، ومخالب أقدامك الأمامية والخلفية قصيرة وطرية، بالتالي يستطيع واحد من ياهو بلدنا أن يقود عشرة من ياهو بلدكم أمامه. لذلك، بخصوص ما قلتَه عن عدد الذين قُتلوا في الحروب، أرجّح أنك قلت شيئًا لم يكن».

لم أستطع إلا أن أهز رأسي وأبتسم قليلًا من جهله. ولأنني لست غريبًا عن فن الحرب، وصفت له المدافع الصغيرة والكبيرة والبنادق والبنادق القصيرة والمسدسات والرصاص والبارود والسيوف والحراب؛ الحصار والانسحاب والهجوم والخنادق والأنفاق والقنابل والمعارك البحرية؛ وصفت سفنًا تغرق مع ألف رجل، عشرين ألفًا يُقتلون على كل جانب، آهاتِ الموت وأشلاءً تطير في الهواء؛ الدخان والضجيج والارتباك والسحق حتى الموت تحت قوائم الأحصنة، والهروب والمطاردة والنصر والحقول المفروشة بجثثٍ تُركت طعامًا للكلاب والذئاب والطيور الجارحة؛ والنهب والسلب والخطف والحرق والتدمير. ولكي أبرهن على شجاعة أبناء بلدي الأعزاء، أكدت له أنني رأيتهم ينسفون مئةً من

جنود العدو دفعة واحدة أثناء حصار، ومثلهم في سفينة، ورأيت جثث القتلى تتساقط قطعًا من الغيوم، متعةً للناظرين.

كنت سأتابع سرد تفاصيل أخرى عندما أمرني سيدي أن أصمت. قال إن من يفهم طبيعة الياهو يستطيع أن يصدق بسهولة قدرة ذلك الحيوان البغيض على ارتكاب كل فعل ذكرته، إن كان ذكاؤه وقوته مساويين لشرّه. لكنه وجد أن حديثي، كما زاد كرهَه للنوع كله، فقد سبب له أيضًا اضطرابًا في فكره لم يعرفه من قبل. لقد رأى أن اعتياد أذنيه على تلك الكلمات المقيتة قد يجعلها تتقبلها باستهجان أقل، وقال إنه رغم كرهه للياهو في بلده، فهو لا يلومهم على صفاتهم الكريهة أكثر مما قد يلوم «غنْنايْه» (طير جارح) على قسوته، أو حجرًا حادًا على جرحه حافره. أما أن يدعي مخلوقٌ امتلاك العقل، ثم يقدر على ارتكاب تلك الجرائم، فهذا يعني أن فساد العقل قد يكون أسوأ من الوحشية نفسها. لذلك بدا واثقًا أننا، بدلًا من العقل، لا نملك سوى خاصيةٍ ما تزيد شرورنا الطبيعية، كما يعكس جدولٌ مضطربٌ صورةً مشوهة لجسمٍ ما، ليست فقط أكبر منه، بل أشد بشاعة.

أضاف أنه سمع الكثير عن الحرب في هذا الحديث وما قبله، وثمة شيء آخر يحيره في الوقت الحالي، فقد ذكرتُ أن بعض أفراد طاقمنا غادروا بلادهم بعد أن دمرهم القانون، وقد فسرتُ من قبل معنى تلك الكلمة، فحيره أن يكون القانون الذي وُضع من أجل حماية الجميع، سببًا في دمار أي إنسان. وأراد أن يعرف أكثر عما أعنيه بالقانون، ومنفذيه أيضًا، بحسب الممارسات الحالية في بلدي؛ لأنه يرى أن الطبيعة والعقل دليلان كافيان بالنسبة إلى أي كائن يدعي امتلاك العقل مثلنا، لإرشاده إلى ما يجب أن يفعل، وما يجب أن يتجنب.

أكدت له أن القانون علمٌ لا أملك به خبرة أكثر من توظيفي محامين سدىً بسبب ظلمٍ وقع علي، لكنني سأحدثه عن كل ما أعرفه. قلت إن لدينا مجتمعًا من الأشخاص المدربين من شبابهم على إثبات أن الأبيض أسود والأسود أبيض، باستخدام كلماتٍ خاصة بهذا الغرض، بحسب ما يُدفع لهم من المال. وكل الناس الباقين عبيد لهذا المجتمع.

مثلًا، إذا رغب جاري بأخذ بقرتي، يوظف محاميًا ليثبت أنه يجب أن يأخذ بقرتي مني، يجب عليّ عندئذٍ أن أوظف محاميًا آخر كي أدافع عن حقي، لأنه ما من قانونٍ يسمح للرجل بالدفاع عن نفسه بنفسه. في هذه الحالة أتعرض أنا، المالك الحقيقي، لمأزقين كبيرين: أولهما، هو أن محاميّ المتدرب مذ كان في المهد على الدفاع عن الباطل، سيجد الدفاع عن قضية عادلةٍ وظيفةً غير طبيعية بالنسبة إليه، فيؤديها بشكل سيئ، إن لم يكن بنيةٍ سيئة. المأزق الآخر هو أن محاميّ يجب أن يعمل بحذرٍ شديد، وإلا سيؤنبه القضاة وينبذه زملاؤه، بوصفه شخصًا يحط من قدر ممارسة القانون بدفاعه عن الحق. وهكذا، يبقى

لديّ وسيلتان للدفاع عن بقرتي، الأولى هي دفع أجرٍ مضاعف لمحامي خصمي لإقناعه بخيانة موكله، عن طريق التلميح بأن الحق في جانبه؛ والثانية هي أن يجعل محاميّ قضيتي تبدو ظالمة قدر الإمكان، بالاعتراف بملكية خصمي لبقرتي، وإن تم ذلك بمهارة، سيضمن لي تأييد القضاة.

فليعلم سموّك أن أولئك القضاة أشخاص موظفون للفصل في كل الخصومات حول الملكيات، بالإضافة إلى محاكمة المجرمين، ومنتقَون من بين أمهر المحامين الذين أصبحوا مسنين أو كسولين. ولأنهم أمضوا حياتهم بالعمل ضد الحقيقة والعدالة، صاروا يشعرون بضرورة ملحّة لتفضيل الكذب والظلم وشهادة الزور، لدرجة أنني سمعت أن بعضهم فضّلَ رفض رشوةٍ كبيرة من الطرف المحق، على أن يسيء للمهنة بفعل أي شيء لا يلائم طبيعتهم أو مهنتهم.

المبدأ الأساسي عند أولئك المحامين هو أن ما فُعِل من قبل يمكن فعله مرة أخرى بشكل قانوني. لذلك يحرصون على تسجيل كل القرارات التي اتخذت سابقًا بما يناقض مبادئ العدالة الشائعة والمنطق البشري العام، فتشكل هذه، تحت اسم السوابق القضائية، سلطةً تبرر أكثر الأحكام جورًا، ولا يقصر القضاة في العمل بمقتضاها.

عند الادعاء، يتجنبون بحذرٍ التطرقَ إلى وقائع القضية، لكنهم يسهبون بشكل صاخب وعنيف ومضجر في ذكر كل التفاصيل التي لا تخدم القضية. في القضية التي ذكرتها سابقًا، على سبيل المثال، لا يسألون أبدًا عن الحق الذي يملكه جاري في بقرتي، بل يسألون عما إذا كانت البقرة المذكورة حمراء أو سوداء، وقرونها طويلة أم قصيرة، إذا كان الحقل الذي أرعاها فيه دائريًا أم مربعًا، إذا كانت تُحلب داخل مسكنها أم خارجه، وما الأمراض التي تتعرض لها، وما شابه. بعد ذلك يرجعون إلى السوابق القضائية، ويؤجلون الجلسة من وقت لآخر، وخلال عشرة أو عشرين أو ثلاثين سنة يتوصلون إلى نتيجة.

جدير بالذكر أيضًا أن ذلك المجتمع يملك لغةً ومصطلحاتٍ خاصة به، لا يستطيع إنسان آخر أن يفهمها، كل قوانينهم مكتوبة بها، ويحرصون أشد الحرص على زيادتها، وقد شوشوا بها جوهر الحق والباطل والصواب والخطأ، مما يجعلهم يمضون ثلاثين عامًا كي يقرروا ما إذا كان الحقلُ الذي أورثني إياه أجدادي منذ ستة أجيال ملكي، أم ملكَ غريبٍ يبعد عني ثلاثمئة ميل.

أما في محاكمة الأشخاص المتهمين بارتكاب جرائم ضد الدولة، فالإجراءات أقصر بكثير وجديرة بالإطراء. حيث يرسل القاضي أولًا لاستطلاع رأي أصحاب السلطة، بعد ذلك يستطيع بسهولة إما أن يشنق المجرم أو ينقذه، مع الحرص الشديد على مراعاة كل أشكال القانون.

هنا تدخل سيدي، وقال إن من المؤسف ألا يكون المحامون الذين وهبوا قدرات عقلية استثنائية، حسب وصفي لهم، مدفوعين بدلًا عن كل ذلك إلى تعليم الآخرين الحكمة والعلم. وجوابًا على ذلك، أكدت لسموّه أنهم في الأمور البعيدة عن مهنتهم أكثر الناس غباءً وجهلًا بيننا، وأكثرهم تفاهة في الأحاديث العادية، وأنهم أعداء علنيون لكل علمٍ ومعرفة، وهم كذلك ميالون لتضليل العقل البشري في كل موضوع للحديثٍ، كما يفعلون في مهنتهم نفسها.

الفصل السادس

تتمة الحديث عن إنكلترا تحت حكم الملكة آن. وصف
منصب الوزير الأول في قصور أوروبا.

ظل سيدي عاجزًا عن فهم الأسباب التي قد تدفع صنف المحامين إلى إرباك وتكدير وإرهاق أنفسهم بالعمل في حلفٍ قائم على الظلم، لمجرد أذية إخوتهم الحيوانات، ولم يفهم ما أعنيه عندما قلت إنهم يفعلون ذلك مقابل أجر. عندئذٍ واجهت صعوبة كبيرة كي أشرح له فائدة النقود والمادة التي تصنع منها وقيمة المعادن. أخبرته أن الياهو يستطيع بحصوله على مخزون كبير من تلك المادة القيّمة شراءَ ما يريد من أفضل الثياب، وأفخم البيوت، وأوسع الأراضي، وأغلى اللحوم والمشروبات، واختيارَ أجمل الإناث. ولأن المال وحده قادر على فعل هذه العجائب، يظن الياهو في بلدنا دائمًا أنهم لا يملكون ما يكفي من أجل الإنفاق أو الادخار، بسبب ميلهم الطبيعي إلى الإسراف أو البخل. أضفت أن الرجل الغني يتمتع بثمار جهد الرجل الفقير، ونسبة هذا الأخير ألف إلى واحد من الأول، وأن معظم شعبنا مجبر على العيش في بؤسٍ بالعمل كل يوم مقابل أجر ضئيل، كي يتيح لقلةٍ العيش في ترَف. توسعت في ًالحديث عن ذلك وعن أمور أخرى في السياق نفسه، لكن سموّه ظل عاجزاً عن الفهم، لأنه كان يفترض أن كل الحيوانات لها حق بأخذ حصتها من ثمار الأرض، خاصة أولئك الذين يحكمون الباقين. لذلك طلب مني أن أشرح له ماهية تلك اللحوم غالية الثمن، وكيف يمكن لأي منا أن يرغب بها. عندئذٍ عددت كل الأنواع التي خطرت ببالي، وطرقَ طبخها العديدة التي لا يمكن أن تتم دون إرسال السفن إلى كل مكان في العالم، سواء من أجل الخمور للشرب، أو من أجل التوابل، وحاجيات أخرى لا تحصى. أكدت له أن هذه الكرة الأرضية لا بد أن تجال ثلاث مرات على الأقل قبل أن تحصل إحدى نساء الياهو المرموقات في بلدنا على فطورها، أو على وعاء تضعه فيه. فقال إنه لا بد أن يكون بلدًا بائسًا ذلك الذي لا يستطيع أن يؤمن طعامًا لسكانه. لكن أكثر ما أدهشه هو أن تخلو المساحات الشاسعة من الأراضي التي وصفتها من الماء العذب، بحيث يضطر الناس لجلب الماء عبر البحار. أجبته بأن مسقط رأسي العزيز إنكلترا، تنتج ما يقدّر بثلاثة أضعاف الطعام الذي يستطيع سكانها استهلاكه، كذلك الأمر بالنسبة إلى الخمور، التي تُستخلص من أحد أنواع الحبوب أو تعصر من ثمار أشجار معينة فيصنع منها شراب ممتاز، والنسبة نفسها موجودة في كل متطلب حياتي آخر. لكننا، من أجل إرضاء رفاهية وإسراف الرجال وتفاخر النساء، نرسل القسم الأكبر من أشيائنا الضرورية إلى بلاد أخرى، ونستبدلها بمواد من أمراض وحماقات ورذائل لاستهلاكها عندنا. ينتج عن ذلك بالضرورة أن يضطر عدد كبير من أبناء شعبنا إلى طلب رزقهم بالتسول والسرقة والنهب والغش والقوادة والقسم الكاذب

والمداهنة والرشوة والتزوير والقمار والكذب والتزلف والغطرسة والتصويت وكتابة الترهات والتنجيم والتسميم والزنى والنفاق والتشهير والإلحاد والممارسات الأخرى. وقد عانيت من صعوبة كبيرة في شرح كل واحد من هذه المصطلحات.

أخبرته أننا لا نستورد الخمر من بلاد أجنبية لتعويض نقصٍ في ماء الشرب أو مشروبات أخرى، بل لأنه سائل يغيب حواسنا، فيجعلنا مرحين ويصرف عنا كل الأفكار المحزنة، ويصنع خيالات جامحة في الدماغ، يرفع آمالنا، ويمحو مخاوفنا، ويعطل كل وظيفةٍ للعقل لبعض الوقت، ويحرمنا من استخدام أطرافنا، حتى نغط في نوم عميق. لكن لا بد من الاعتراف بأننا نستيقظ دائمًا دائخين وكئيبين، وأن استهلاك هذا المشروب الكحولي يملؤنا بالأمراض، مما يجعل حياتنا قصيرة ومضطربة.

بالإضافة إلى كل ذلك، يكسب معظم الناس رزقهم بتأمين احتياجات ومتطلبات الحياة للأغنياء أو لبعضهم البعض. مثلًا، عندما أرتدي ثيابي العادية في المنزل يكون على جسدي جهد مئة حرفي، ويوظف بناءُ منزلي وصنعُ أثاثه ضعفَ ذلك العدد، أما كسوة زوجتي وزينتها فخمسة أضعافه.

كنت سأخبره عن نوع آخر من الناس الذين يكسبون رزقهم من العناية بالمرضى، بعد أن ذكرت في مناسبات عدة أن بعض أفراد طاقمنا مات بسبب المرض، لكن هنا كان من الصعوبة بمكانٍ أن أشرح له ما أعنيه. لقد استطاع أن يتصور بيسرٍ أن يصبح الهوينهم ضعيفًا وثقيلًا قبل أيام من موته، أو أن يجرح أطرافه بحادثٍ ما، أما أن تسمح الطبيعة، التي منحت الكمال لكل شيء، لأي آلام أن تربو في أجسادنا، فقد رأى ذلك من المستحيل، ورغب بمعرفة سبب هذا الشر غير المفهوم. أخبرته أننا نتغذى على ألف شيء له تأثيرات متضاربة، ونأكل قبل أن نجوع، ونشرب دون مسببٍ من عطش؛ أننا نقضي ليالي طويلة نشرب خمورًا قوية التأثير دون أن نأكل لقمة، مما يصيبنا بالخمول، ويلهب أجسادنا، ويسرع أو يثبط عملية الهضم؛ أن البغايا من إناث الياهو تصبن بمرض معين يورث عفونة في عظام أولئك الذين يسقطون بين أذرعهن، وأن هذا المرض وغيره ينتقل من الأب إلى ابنه، نتيجة لذلك يولد إلى العالم عددٌ كبير من الناس مصابين بأمراض معقدة، ولو أردتُ تعداد كل الأمراض التي يتعرض لها الجسم البشري سيطول ذلك بلا نهاية، فهي لا تقل عن خمسمئة أو ستمئة مرض تصيب كل طرف وكل مفصل. باختصار، كل عضو خارجي وداخلي له أمراض خاصة به. لشفائها، ثمة أشخاص معينون عندنا يتدربون في مهنة شفاء المرضى أو ادعاء ذلك. ولأنني أملك بعض الخبرة في تلك المهنة، أستطيع بدافع الامتنان لسموّه أن أخبره كل أسرار عملهم.

مبدؤهم الأساسي هو أن كل الأمراض منشؤها التخمة، ومن ذلك يستنتجون أن الشفاء يتطلب إفراغًا كاملًا للجسد، إما عبر الممر الطبيعي أو نحو الأعلى عبر الفم. بالتالي يعملون على استخدام أعشابٍ ومعادنَ وأصماغٍ وزيوتٍ وأصدافٍ وأملاحٍ وعصائرَ وطحالبَ ومفرزاتٍ وجذوعِ أشجار وأفاعٍ وضفادعَ وعناكبَ وطيورٍ ووحوشٍ وأسماكٍ وعظامٍ ولحومِ الأموات، في صنعِ تركيبة ذات رائحة وطعمٍ مقززين ومقرفين للغاية، ترفضها المعدة مباشرة باشمئزاز، ويسمونها مقيئًا. أو يستخدمون المواد نفسها بإضافة مواد أخرى سامة لصنع دواءٍ مزعج ومثير للأمعاء، يأمروننا أن نأخذه عبر الفتحة العلوية أو السفلية (كما يفضل الطبيب عندها)، فيرخي البطن طاردًا كل ما فيه، ويسمونه مسهلًا، أو حقنة شرجية. وباعتبار أن الطبيعة خصصت الفتحة العلوية الأمامية لإدخال المواد الصلبة والسائلة فقط، والفتحة السفلية الخلفية للإطراح (كما يدعي الأطباء)، يعتقد هؤلاء العلماء العباقرة أن الطبيعة تخرج عن مسارها الطبيعي ذاك في كل مرض، ولا بد من علاج الجسد بطريقة معاكسة تمامًا من أجل إعادتها كما كانت، وذلك عن طريق عكس استخدام كل فتحة، أي بإقحام المواد الصلبة والسوائل من الشرج، وصنع إطراح من الفم.

بالإضافة إلى الأمراض الحقيقية نحن معرضون إلى أمراض خيالية، اخترع الأطباء لها علاجات خيالية، ولها أسماء عديدة، وكذلك للأدوية المناسبة لها. بتلك الأمراض تصاب إناث الياهو في بلادنا دومًا.

يتفوق أفراد هذه الجماعة أيضًا في التكهن بسَير المرض، ونادرًا ما يخطئون به. عندما تتفاقم الأمراض الحقيقية لأي درجة من السوء تتوقع تنبؤاتهم الموتَ دائمًا، وهو في متناولهم حين لا يكون الشفاء كذلك. أما إذا ظهرت أي علامات غير متوقعة على التحسن بعد أن يصدروا حُكمهم، يعرفون كيف يثبتون للعالم نفاذ بصيرتهم باستخدام جرعةٍ مناسبة، عوضًا عن اتهامهم بأنهم متنبؤون كاذبون. كذلك فإن لهم فائدة خاصة للأزواج والزوجات الذين يملون من أزواجهم، ولأكبر الأبناء، وكبار الوزراء في الدولة، وأحيانًا للملوك.

حدثتُ سيدي في مناسبة سابقة عن طبيعة الحكومة بشكل عام، بخاصة عن دستورنا المتميز، المستحق لإعجاب وحسد العالم أجمع. لكنني عندما ذكرت الوزير الأول بالصدفة، طلب مني أن أخبره أي نوع من الياهو أقصد بتلك التسمية.

أخبرته أن الوزير الأول في الدولة كائنٌ مجرد تمامًا من مشاعر الفرح والحزن، والحب والكره، والشفقة والغضب، ولا يملك أي عاطفة غير رغبة عنيفة بالثروة والسلطة والألقاب؛ أنه يستخدم كلماته لكل هدفٍ سوى التعبير عما في ذهنه، ولا يقول أي حقيقةٍ أبدًا إلا بنيّة أن تظنها كذبًا، أو كذبةً إلا بنية أن تظنها حقيقة؛ أن أولئك الذين يتحدث عنهم بأسوأ ما يمكن خلف ظهورهم، هم على الطريق

المؤكد للترقية، وإذا بدأ بمديحك أمام الآخرين أو لوجهك، فأنت مدمر منذ ذلك اليوم. أسوأ ما قد تأخذه منه هو الوعد، خاصة عندما يكون مؤكدًا بقسَم، إذ يستسلم بعد ذلك كل رجلٍ حكيم، ويفقد كل أمل.

ثمة ثلاث طرق يصبح بها الرجل الوزيرَ الأول؛ الأولى هي أن يعلم كيفية التخلص بحذر من زوجةٍ أو ابنة أو أخت، والثانية هي خيانة أو إضعاف سلفه، والثالثة هي إبداء تعصب عنيف في الاجتماعات العامة ضد الفساد في القصر. لكن الملك الحكيم هو الذي يختار توظيف من يمارس الطريقة الأخيرة، لأن أولئك المتعصبين يثبتون دومًا أنهم الأكثر تذللًا وخضوعًا لرغبات ومشاعر سيدهم. يستطيع أولئك الوزراء بوجود كل الوظائف تحت تصرفهم، إبقاء أنفسهم في السلطة برشوة أغلبية مجلس الشيوخ أو المجلس الأعلى، ثم يحمون أنفسهم من المحاسبة بوسيلة تدعى قانون الحصانة ([111]) (شرحت له طبيعته)، ويتقاعدون من الحياة العامة محمّلين بما نهبوه من الأمة.

قصر الوزير الأول مدرسة لتدريب الآخرين على حرفته نفسها، حيث يصبح كل من الخادم والتابع والحاجب بتقليده لسيده وزيرًا أول في دائرته الخاصة، ويتعلمون التفوق في مكونات أساسية ثلاث هي الغطرسة والكذب والرشوة. بالتالي يكسبون مودة كبار الشخصيات، وأحيانًا بفضل الحذق والصفاقة يصبحون بعد تدرجات عديدة خليفة سيدهم.

يخضع الوزير الأول غالبًا لتأثير خادمة فاسدة أو خادم مقرب، ويشكل هؤلاء ممرات سرية تمر عبرها كل النعم، ويمكن أن يسموا، في المطاف الأخير، حكام المملكة.

ذات يوم، حين ذكرت لسيدي طبقة النبلاء في بلدي، تكرم بمديحي بشيء لا أظنني أستحقه، حيث قال إنه واثق من أنني ابن عائلة نبيلة، لأنني أتفوق كثيرًا بالشكل واللون والنظافة على كل الياهو في بلده، رغم أنني أبدو أقل منهم قوة ورشاقة، ويمكن أن يعزى ذلك إلى أسلوب حياتي المختلف عن أولئك الوحوش؛ ولأنني كذلك وُهبت، علاوة على القدرة على الكلام، بعض مبادئ العقل، حتى أنه يعتبرني أعجوبة.

لفت سيدي نظري إلى أن الهوينهم ذوي اللون الأبيض والأحمر والرمادي، يختلفون عن ذوي اللون البني والأشهب المبقّع والأسود، سواء من حيث الشكل أو الملكات الذهنية أو القدرة على تحسينها، لذلك يشغلون دومًا وظيفة خدم، دون أن يطمحوا أبدًا للاختلاف عن بني جنسهم، الذي يعتبر في ذلك البلد شيئًا شاذًا وغير طبيعي.

اعترفت لسيدي بامتناني العميق لانطباعه الحسن عني، لكنني أكدت له في الوقت نفسه، أنني ولدت لأبوين بسيطين شريفين من عامة الشعب، بالكاد

كانا قادرين على منحي تعليمًا جيدًا؛ وأن النبل عندنا شيء يختلف تمامًا عن الفكرة التي يملكها عنه، ذلك أن شباب النبلاء منا يترعرعون منذ طفولتهم في بطالة وبذخ، وحالما تسمح لهم سنهم يستهلكون قوتهم، وينقلون أمراضًا كريهة بين الإناث الداعرات. وعندما توشك ثرواتهم على النفاد يتزوجون امرأة ذات أصل دنيء وشخصية مزعجة وهيئة مشوهة، بهدف المال فقط، وهم يكرهونها ويمقتونها. أن نتاج ذلك الزواج يكون في الغالب أطفالًا معتلّين أو كسيحين أو مشوهين، لذلك نادرًا ما تستمر العائلة أكثر من ثلاثة أجيال، إلا إذا نجحت الزوجة في تدبير أب موفور الصحة من بين جيرانها أو الخدم، بهدف تحسين واستمرار النسل؛ قلتُ إن الجسمَ الضعيف المريض والوجهَ الهزيل والبشرةَ الشاحبة هي العلامات الحقيقية للدم النبيل، أما المظهر الصحيّ القوي فمشينٌ عند رجل نبيل، يجعل الناس يظنون أن أباه كان سائسًا أو حوذيًا. وعيوب عقل النبيل تتماشى مع علل جسده، وهي تركيبة من الكآبة والبلادة والجهل وتقلب الرأي والشهوانية والغرور.

من غير موافقة هذا المجتمع البارز، لا يمكن سن أي قانون أو إبطاله أو تعديله، ويملك هؤلاء النبلاء حرية إصدار قرار بخصوص كل ممتلكاتنا دون استئناف.

الفصل السابع

حب المؤلف لبلده. ملاحظات سيده عن دستور إنكلترا وحكومتها بحسب وصفه، مع ذكر حالات مشابهة ومقارنات. ملاحظات سيده عن الطبيعة البشرية.

قد يتساءل القارئ كيف سمحت لنفسي بوصف بني جنسي بتلك الصراحة، أمام مخلوقات ميالة أصلًا إلى حمل أسوأ الآراء عن الطبيعة البشرية بسبب شبهي الكبير بالياهو في بلدهم. لكنني أعترف أن مقارنة الفضائل الكثيرة لرباعيات الأرجل هؤلاء بالمفاسد البشرية، فتحت عينيّ ووسعت ذهني، حتى بدأت أرى أفعال البشر ورغباتهم من منظور مختلف تمامًا، ووجدت أن سمعة أبناء جنسي لا تستحق المراعاة، بالإضافة إلى أن من المستحيل فعل ذلك أمام شخص حاذق مثل سيدي، الذي كان يريني كل يوم ألف خطأ في نفسي لم أملك عنه أي فكرة من قبل، ولم يكن ليحتسب عندنا حتى من ضمن العيوب البشرية. تعلمت منه كذلك الاستنكار المطلق لكل أشكال الكذب والتزوير، وصارت الحقيقة محببة إليّ، حتى صممت على التضحية بكل شيء في سبيلها. سأكون أكثر صراحة مع القارئ، وأقرّ بوجود دافع أقوى لوصفي كل شيء بذلك القدر من الحرية. لم أكن قد أمضيت سنة في ذلك البلد عندما بدأت أشعر بحب واحترام عظيمين للسكان، وصممت على ألا أعود إلى بني البشر، وأن أقضي بقية حياتي بين أولئك الهوينهم العظماء في تأمل وممارسة كل فضيلة، حيث لا أملك أي مثال أو محفز على الشر. لكن قدري، الذي كان عدوي الدائم، حتم عليّ ألا تكون هذه السعادة من نصيبي. على أي حال، يريحني قليلًا الآن التفكير بأنني في حديثي عن أهل بلدي، لطفت من أخطائهم بقدر ما تجرأتُ أمام محققٍ دقيق مثل سيدي، وأعطيت كل موضوع منحىً أفضل بكثير بقدر ما تتحملُ المسألة. فمن منا لا يميله التحيز إلى مسقط رأسه؟

لقد أوردت مضمون عدة حوارات أجريتها مع سيدي خلال معظم الوقت الذي تشرفت بمرافقته فيه، لكنني بهدف الإيجاز حذفت أكثر بكثير مما كتبتُ هنا.

بعد أن أجبت كل أسئلته وبدا أنه أشبع فضوله، أرسل في طلبي باكرًا ذات صباح وأمرني أن أجلس على مقربة منه (وهو شرف لم يغدق عليّ من قبل) قال إنه كان يتأمل حكايتي كاملةً بجدية، سواء فيما يتعلق بي أو ببلدي، وقد رآنا صنفًا من الحيوانات وهب قليلًا من العقل بحادثة لم يستطع تخمينها، لكننا لم نستخدمه في شيء سوى مفاقمة مفاسدنا الطبيعية واكتساب مفاسد أخرى لم تمنحنا إياها الطبيعة. وقد عطّلنا القدرات القليلة التي نملكها، ونجحنا في زيادة مواطن ضعفنا الأصلية، ويبدو أننا نمضي حياتنا كلها في محاولات فاشلة لتعويضها باختراعات من صنعنا. أما بالنسبة إلي، من الواضح أنني لا أملك قوة

أو رشاقة واحد من الياهو، وأنني أمشي مزعزعًا على قدمي الخلفيتين، وأنني بطريقةٍ ما جعلتُ مخالبي غير ذات نفعٍ أو حمايةٍ، وأزلت الشعر عن ذقني، الذي يفترض أنه وقاءٌ من الشمس والطقس. أخيرًا، أنني لا أستطيع الركض أو التسلق بسرعة مثل إخوتي الياهو في هذا البلد (على حد تعبيره).

أضاف أن مؤسسات الحكم والقانون عندنا موجودة بسبب نقائصنا العظيمة في العقل، وبالتالي في الفضيلة، لأن العقل وحده يكفي لحكم كائن عاقل، مما يجعلنا غير جديرين بتلك الصفة، حتى من خلال حديثي عن بني جنسي، رغم أنه لاحظ بوضوح أنني أخفيت الكثير من التفاصيل بهدف تحسين صورتهم، وكثيرًا ما قلت الشيء الذي لم يكن.

لقد زاده قناعة بذلك أنه -بالإضافة إلى شبهي بالياهو في كل جزء من جسدي، إلا فيما ينقصني من ناحية القوة والسرعة والرشاقة وقصر مخالبي، وأشياء أخرى لا دور للطبيعة فيها- وجد أيضًا من خلال وصفي لحياتنا وأخلاقنا وأفعالنا شبهًا في طريقة عمل عقولنا. قال إن الياهو معروفون بكرههم بعضهم أكثر من كرههم أي حيوان آخر، والسبب الذي يعزى إليه ذلك عادةً هو بشاعة أشكالهم نفسها، التي يراها كل منهم في الباقين ولا يراها في نفسه. لذلك بدأ يفكر بأن تغطيتنا لأجسادنا تصرف لا يخلو من الحكمة، إذ نخفي عن بعضنا بذلك الابتكار كثيرًا من قباحاتنا، التي لو كشفت ستكون غير محتملة. لكنه وجد نفسه الآن على خطأ في ذلك، ورأى أن النزاع بين أولئك الوحوش في بلده يعزى إلى مثل أسبابنا التي وصفتها؛ لأنك (قال لي) لو رميت إلى خمسة من الياهو طعامًا يكفي خمسين، يقاتلون بعضهم بعضًا عوضًا عن تناوله بسلام، ويسعى كل منهم لأخذ كل شيء لنفسه، لذلك يكلف خادم بمراقبتهم دائمًا بينما يأكلون في الخارج، أما الذين يبقون في الداخل فيُربطون بعيدًا عن بعضهم. وإن ماتت بقرة من الشيخوخة أو بسبب حادث، تأتي قطعان الياهو من الجوار للحصول عليها، قبل أن يستطيع أحد الهوينهم أخذها إلى من لديه من الياهو، فيتبع ذلك معركة كالتي وصفتها، ويسببون لبعضهم جروحًا مروّعة بمخالبهم. لكنهم نادرًا ما يقدرون على قتل بعضهم، بسبب افتقارهم إلى آلات موت كالتي اخترعناها. في أوقات أخرى تنشب معارك مشابهة بين ياهو المناطق المختلفة دون سبب بيّن، وينتهز بعضهم من سكان منطقة معينة كل فرصة لمفاجأة آخرين قبل أن يتجهزوا، لكنهم إذا وجدوا خطتهم أخفقت يعودون أدراجهم، وبسبب عدم وجود عدوّ ينخرطون فيما سميتُه حربًا أهلية بينهم.

قال إن بعض الحقول في بلاده فيها أحجار براقة ذات ألوان مختلفة، يحبها بنو الياهو حبًا جمًا، وإذا كان بعض هذه الأحجار مدفونًا في الأرض، كما هو الحال أحيانًا، يحفرون بمخالبهم طوال أيام لاستخراجها وأخذها، وتخبئتها بالأكوام في أوجارهم، ويظلون ينظرون حولهم بحذر خوفًا من أن يعثر رفاقهم على كنزهم.

قال سيدي إنه لم يعرف يومًا سبب هذه الرغبة الطاغية، أو الفائدة التي قد يملكها هذا الحجر للياهو، لكنه يظن الآن أن ذلك ينشأ من مبدأ الجشع نفسه الذي نسبته إلى بني البشر. أخبرني أنه أخذ مرة في السر، على سبيل التجربة، كومة من هذه الأحجار من المكان الذي قد دفنها فيه أحد الياهو لديه، وعندما اكتشف الحيوان الخسيس اختفاء كنزه جلب القطيع كله إلى المكان بنواحه الصاخب، وصار يعوي ببؤس ويعضّ ويخمش الباقين، بعد ذلك أخذ يذوي، ويمتنع عن الأكل والنوم والعمل، حتى أمر سيدي أحدَ الخدم سرًا أن يعيد الأحجار إلى الحفرة نفسها، ويخبئها كما كانت في السابق. عندما وجدها الياهو استعاد نشاطه ومزاجه في الحال، لكنه حرص على نقلها إلى مخبأ أفضل، وأصبح منذ ذلك الحين حيوانًا طيعًا. أكد لي سيدي أيضًا شيئًا لاحظته بنفسي، هو أن الحقول الغنية بتلك الأحجار البراقة تشهد أشد المعارك شراسة بشكل متكرر، بسبب الغارات الدائمة من الياهو في الجوار.

قال إن من الشائع، حين يعثر اثنان من الياهو على حجر كهذا في حقل ويتنافسان على من سيكون مالكًا له، أن ينتهز ثالثٌ الفرصة ويأخذه من كليهما، وأظن أن سيدي قصد بذلك شبهًا ما بالدعاوى القضائية عندنا. رأيت من صالحنا ألا أصحح له ذلك، لأن ما ذكره أعدل بكثير مما يحدث عندنا، حيث لم يفقد المدعي والمدعى عليه في مثاله شيئًا غير الحجر الذي تنافسا على امتلاكه، أما في محاكمنا فلا تغلق القضية قبل أن يفقد كلاهما كل ما يملك.

قال سيدي متابعًا حديثه، إن أكثرَ ما يجعل الياهو منفرين شراهتُهم العمياء لالتهام كل ما يجدونه في طريقهم، سواء كان أعشابًا أم جذورًا أم ثمارًا، أو لحوم حيوانات فاسدة أو كل ذلك مخلوطًا معًا. ومن الغريب في طبعهم أنهم يفضلون ما يمكنهم الحصول عليه بالنهب أو السرقة من مكان بعيد، على الطعام الأفضل الذي يقدم إليهم في وجارهم. حين يظفرون بفريسة يستمرون في الأكل حتى يوشكوا على الانفجار، بعد ذلك يأكلون نوعًا من الجذور دلتهم عليه الطبيعة، يسبب إفراغًا كاملًا لأمعائهم.

يوجد نوع آخر من الجذور المليئة بالعصارة، وهي نادرة ويصعب العثور عليها، يتقاتل الياهو من أجلها بشراسة ويمصونها باستمتاع، وتؤثر بهم كما يؤثر النبيذ علينا، مما يجعلهم يعانقون بعضهم أحيانًا، ويؤذون بعضهم أحيانًا أخرى، ويعووِن ويكشرون ويثرثرون ويترنحون ويتعثرون، ثم يغطون في النوم في الوحل.

لاحظتُ أن الياهو هم بالفعل الحيوانات الوحيدة المعرضة للأمراض في ذلك البلد، وهي على أي حال أقل عددًا من أمراض الأحصنة عندنا، ولا يصابون بها بسبب أي سوء معاملة، بل من نتن ذلك الحيوان القذر وشراهته. لا تحوي لغة الهوينهم سوى تسمية عامة لهذه الأمراض تشتق من اسم الحيوان، وهي «هْنيا-ياهو»، أو شر الياهو. أما الدواء الذي يوصف لها فهو خليطٌ من بولهم

وبرازهم، يقحم بالقوة في حلق الياهو. لاحظت منذ ذلك الوقت نجاح تلك الطريقة، لذلك أوصي بها إلى أبناء بلدي، بهدف المصلحة العامة، دواءً ناجعًا لكل الأمراض التي تسببها التخمة.

أما بالنسبة إلى التعليم والحكومة والفنون والصناعات وما شابه، اعترف سيدي أنه لم يجد أي شبه بين الياهو في بلدهم وأولئك الذين في بلدنا، وقد أراد فقط تأمل الشبه الموجود بين طبائعنا. لقد سمع من بعض الهوينهم الفضوليين أنهم لاحظوا وجود ما يشبه الياهو الحاكم في أغلب القطعان (كما يوجد عندنا حصان قائد أو زعيم في حديقة)، وهو يملك دومًا جسدًا أكثر بشاعة، وطبعًا أكثر شرًا من الباقين. لهذا القائد تابعٌ مقرب شديد الشبه به، وظيفته أن يلعق أقدام سيده وخلفيته، ويجلب إناث الياهو إلى وجاره، فيكافأ على ذلك من وقت لآخر بقطعة من لحم حمار. كل القطيع يكره ذلك التابع، فيلزم جانب سيده كي يحمي نفسه، ويظل عادة في وظيفته حتى يُعثر على من هو أسوأ منه، لكنه حالما يُعزل يأتي خليفته على رأس كل الياهو في تلك المنطقة، صغارًا وكبارًا، وذكورًا وإناثًا دفعة واحدة، ويطرحون فضلاتهم عليه من رأسه حتى قدميه. أما إلى أي مدىً ينطبق ذلك على القصور والمقربين والوزراء عندنا، فقد قال إنني أقدَر منه على تحديد ذلك.

لم أجرؤ على التعقيب على هذا التلميح الماكر، الذي حط من قدر الذكاء الإنساني إلى ما دون ذكاء الكلب العادي، الذي يملك قدرة كافية على تمييز واتباع عواء أفضل كلب في القطيع، دون أن يخطئ أبدًا.

أخبرني سيدي أن هنالك بعض الصفات اللافتة في الياهو، وجدني لم أذكرها، أو ذكرتها عرضيًا في أحاديثي عن بني البشر. قال إن أولئك الحيوانات مثل غيرهم، يتشاركون الإناث فيما بينهم، لكنهم يختلفون في أن أنثى الياهو تسمح للذكر بمضاجعتها أثناء حملها، وأن الذكور يتشاجرون ويتقاتلون مع الإناث بالشراسة نفسها التي يقاتلون بعضهم بها. وكلا الفعلين على درجة كبيرة من الهمجية المشينة التي لا يمكن لأي مخلوق آخر أن يرتكبها. يدهشه كذلك ميل الياهو الغريب إلى القذارة والنتن، بينما يظهر لدى كل الحيوانات الأخرى حب فطري للنظافة. فضلت ترك الاتهامين الأولين دون تعليق، لأنني لم أملك بخصوصهما أي كلمة أدافع بها عن بني جنسي، وإلا لفعلت ذلك. لكنني كنت سأستطيع تبرئة البشر من اتهامهم بالتفرد في الموضوع الأخير، لو أن في ذلك البلد أي خنزير (من سوء حظي أن لم يكن)، لأنه رغم كونه رباعي أرجل ألطف من الياهو، إلا أنني لا أتخيل أن يُعد أشد نظافة منه، وكان سموه سيعترف بذلك بنفسه لو رأى طريقته القذرة في الأكل، وعادته في التمرغ والنوم في الوحل.

ذكر سيدي صفة أخرى أيضًا، رآها خدمه في عدد من الياهو، وكانت بالنسبة إليه غير مفهومة. قال إن أحد الياهو قد تأخذه أحيانًا رغبة بالانعزال في زاوية، حيث

يستلقي ويعوي وينوح ويبعد كل شيء يقترب منه، رغم أنه صغير السن وممتلئ الجسم ولا ينقصه طعام أو ماء، ولم يعرف خدمه ما يمكن أن يسبب له المعاناة. العلاج الوحيد الذي وجدوه لذلك هو أن يكلفوه بعمل شاق، فكان يعيده دومًا إلى طبيعته. صمتت إزاء ذلك تحيزًا لبني جنسي، إلا أنني رأيت هنا بوضوح البذورَ الحقيقية للكآبة، التي لا تصيب إلا الكسول والمرفّه والغني، الذين لو أجبروا على العلاج نفسه لضمنت لهم الشفاء.

لاحظ سموه أيضًا أن إحدى إناث الياهو قد تختبئ أحيانًا خلف أجمة أو مرتفع للنظر إلى الذكور المارين بالجوار، ثم تظهر وتختفي مستخدمة إيماءات وتكشيرات غريبة، ولوحظ أن رائحة كريهة تفوح منها في ذلك الوقت، وعندما يقترب أحد الذكور تتراجع ببطء ناظرة خلفها مرارًا، ومتظاهرة بالخوف، ثم تهرب إلى مكان مناسب تعرف أنه سيتبعها إليه.

في أوقات أخرى، إذا جاءتهم أنثى غريبة يتجمع حولها ثلاثة أو أربعة من الإناث، يحدقن بها، ويثرثرن ويكشرن ويتشممنها من كل جانب، ثم ينصرفن عنها بإيماءات تبدو كأنها تعبر عن المقت والازدراء.

ربما يستطيع سيدي أن يحسن قليلًا من تلك التأملات التي استقاها مما رآه بنفسه، أو مما حكاه له الآخرون، لكنني على أي حال، لم أستطع إلا أن أفكر ببعض الدهشة وكثير من الأسف بوجود بذور الخلاعة والغنج والفضائح بالفطرة في معشر النساء.

توقعت في كل لحظة أن يتهم سيدي بني الياهو بتلك الرغبات المنحرفة عند الجنسين، الشائعة لدينا، لكن يبدو أن الطبيعة ليست معلمة بارعة، وأن هذه الملذات الأكثر حضاريّة نتاج الفن والعقل في الجزء الذي نعيش فيه من العالم.

الفصل الثامن

يذكر المؤلف تفاصيل عن بني الياهو. وصف الفضائل العظيمة عند بني الهوينهم. تعليم وتدريب أبنائهم. مجلسهم العام.

بما أنني أفهم الطبيعة البشرية بشكل أفضل مما ظننته ممكنًا لسيدي، كان من السهل أن أطبق وصفه للياهو على نفسي وأهل بلدي، ورأيت أنني أستطيع اكتشاف المزيد من مراقبتهم بنفسي. لذلك كنت أحيانًا ألتمس من سموه إذنًا بالذهاب بين قطعان الياهو في الجوار، فيتكرم بالموافقة دومًا، واثقًا بأن الكره الذي أحمله لأولئك الوحوش لن يسمح لهم بإفسادي. أمر سموّه أحدَ خدمه، وهو حصان أحمر قوي، طيب ولطيف المعشر، بأن يكون حارسًا لي، ولولا حمايته لم أكن لأقدم على تلك المغامرة. لقد حدثت القارئ عن إزعاج تلك الحيوانات القذرة لي عند وصولي، وقد نجوت بعد ذلك بأعجوبة من الوقوع في قبضتهم ثلاث أو أربع مرات، حين كنت أتمشى دون سيفي ولو لمسافة قصيرة. أظنهم تخيلوني واحدًا من بني جنسهم، وقد عززتُ ذلك التصور بنفسي عندما كنت أرفع أكمامي وأكشف عن ذراعيّ وصدري على مرأىً منهم حين يكون حارسي معي، عندئذ كانوا يقتربون بقدر ما يجرؤون ويقلدون حركاتي مثل القرود، بطريقة تدل على الكره الشديد، كما قد تضايقُ الغربان البرية غرابَ الزرع الأليف لو ظهر بينهم لابسًا قبعة وجوارب.

إنهم فائقو الرشاقة منذ صغرهم، وقد أمسكت مرة بذكر صغير عمره ثلاث سنوات وحاولت تهدئته بلطف شديد، لكن العفريت الصغير أخذ يزعق ويخمش ويعض بعنف، مما أجبرني على إفلاته. وقد فعلت ذلك في الوقت المناسب، حيث تجمعت حولنا قبيلة كاملة من الياهو البالغين على إثر الضجة، لكنهم حين وجدوا الجرو سالمًا (فقد هرب مني) ووجدوا حارسي الحصان الأحمر بجانبي، لم يجرؤوا على الاقتراب. لاحظت أن لحم الحيوان الصغير له رائحة كريهة، وكان نتنها شيءٌ بين ابن عرس وثعلب، لكنه أكثر إزعاجًا. نسيت أن أذكر تفصيلًا (قد يعذرني القارئ لو حذف كاملًا)، وهو أنني بينما كنت أحمل ذلك الطفيلي الكريه بين يدي، طرح فضلاته القذرة، وهي مادة سائلة صفراء، على ثيابي كلها. من حسن حظي أن كان بالقرب جدولٌ صغير نظفت نفسي فيه ما استطعت، لكنني لم أجرؤ على الدخول على سيدي إلا بعد أن هويت نفسي جيدًا.

يبدو مما رأيته وسمعته أن بني الياهو هم أكثر الكائنات بدائية، إذ لا تتجاوز قدراتهم حمل أو جر الأحمال. لكن منشأ هذا النقص برأيي طبعٌ فاسد وهائج، فهم ماكرون وأشرار وخونة وحقودون. يتمتعون بالقوة والجرأة، لكن لهم روحًا

جبانة، مما يجعلهم وقحين وحقراء وقُساة. ومن الملاحظ آن ذوي الشعر الأحمر من الجنسين أكثر شبقًا وشرًا من الباقين، ويفوقونهم قوة ونشاطًا.

يبقي الهوينهم بني الياهو في أكواخٍ غيرَ بعيد عن عن بيوتهم من أجل الاستخدام العاجل، لكن الباقي يرسَلون إلى حقول معينة، حيث يحفرون بحثًا عن الجذور، ويأكلون عدة أنواع من النباتات، ويبحثون عن الجيف، ويمسكون أحيانًا بأبناء عرس أو لوميئُه (نوع من الجرذان البرية) ويلتهمونها بشراهة. علمتهم الطبيعة أن يحفروا بأظافرهم حفرًا عميقة على جانب أي مرتفع في الأرض، يسكنون فيها وحيدين، إلا أن أوجار الإناث أكبر وتتسع لجِروين أو أكثر. يسبحون منذ طفولتهم مثل الضفادع، ويستطيعون البقاء طويلًا تحت الماء، حيث يمسكون أحيانًا بالأسماك، فتأخذها الإناث إلى صغارها. أرجو من القارئ بالمناسبة، أن يسمح لي بسرد هذه الحادثة الغريبة.

خرجتُ يومًا مع حارسي الحصان الأحمر والجو شديد الحرارة، فرجوته أن يسمح لي بالاستحمام في نهر قريب. عندما وافق خلعت ثيابي كلها على الفور، ونزلت ببطء إلى مجرى الماء. صادف ذلك وجود إحدى إناث الياهو خلف مرتفع، ورأت كل ما حدث، فجاءت راكضة بسرعة بعد أن اشتعلت فيها الرغبة (كما خمنتُ وخمن الحصان)، وقفزتْ في الماء على مسافة خمس ياردات من المكان الذي كنت أستحم فيه. لم أشعر في حياتي بالرعب مثل ذلك الوقت، وكان الحصان يرعى بعيدًا، لا يتوقع حدوث أي أذى. عانقتني الأنثى بطريقة مقززة للغاية فصرخت بأعلى صوت، وأتى الحصان يجري باتجاهي، مما جعلها تفلتني بتردد شديد وتقفز إلى الضفة الأخرى، حيث وقفت تحدق بي وتعوي طوال ارتدائي ثيابي.

أصبح ما حدث مثار ضحك سيدي وعائلته، ومصدر خزي لي أيضًا، لأنني منذ ذلك الوقت لم أعد قادرًا على إنكار أنني ياهو حقيقي في كل عضو وكل ملمح، بعد أن شعرتْ إحدى إناثهم بميل فطريّ نحوي كما تشعر تجاه واحد من بني جنسها. ولم يكن شعر تلك الوحشية أحمر (مما قد يفسر شبقها الطاغي) بل أسود كالخوخ، ولم يكن وجهها بشعًا بقدر الآخرين، فلا أظن أن سنها تتجاوز الحادية عشرة.

بعد أن عشت ثلاث سنوات في ذلك البلد، أظن أن القارئ يتوقع مني أن أحكي قليلًا عن عادات وسلوك السكان كما يفعل الرحالة الآخرون، وهذا هو بالفعل هدفي الرئيسي.

إن بني الهوينهم النبلاء ميالون بطبيعتهم إلى كل الفضائل، ولا يملكون أي تصور أو فكرة عما هو شر في أي كائن عاقل، كذلك فإن مبدأهم الأساسي هو تغذية العقل والاحتكام إليه فقط. وليس العقل عندهم شيئًا معقدًا كما هو عندنا، حيث

يمكن للبشر أن يجادلوا في مسألة مع وجود معقولية على طرفَي النقاش؛ بل هو شيءٌ تدرَك به الحقيقة يقينًا على الفور، كما يجب أن يحدث حين لا تشوشه أو تحجبه أو تشوهه العواطف والرغبات. أذكر أنني تكبدت صعوبة كبيرة كي أشرح لسيدي كلمة رأي، أو معنى أن تكون مسألة ما قابلةً للنقاش. لأن العقل يعلمنا أن نوافق أو نرفض حين نكون متيقنين فقط، أما فيما يتجاوز معرفتنا، فلا يمكن فعل أي منهما. لذلك فإن الجدل والخصومات والنزاعات والتمسك بالرأي في مسائل خاطئة أو مبهمة، شرورٌ غير معروفة عند بني الهوينهم. كذلك حين كنت أشرح له نظرياتنا العديدة في الفلسفة الطبيعية، كان يضحك من أن يقوم كائن يدعي امتلاكه العقل، بتقييم نفسه بناء على معرفة أشخاص آخرين، وفي أمور لن تكون فيها تلك المعرفة ذات قيمة ولو كانت يقينية. وقد اتفق تمامًا مع آراء سقراط كما نقلها أفلاطون، وأقول ذلك كأفضل تكريم يمكن أن أقدمه لأمير الفلاسفة ذاك. منذ ذلك الوقت فكرت كثيرًا بالدمار الذي قد يسببه هذا المعتقد في مكتبات أوروبا، وكم من طريق إلى الشهرة سيغلق بسببه في عالم المتعلمين.

الصداقة والإحسان هما الفضيلتان الرئيسيتان عند بني الهوينهم، ولا تقتصران على أشخاص معينين، بل توجدان في العرق كله، فالغريب القادم من أبعد مكان يعامل مثل أقرب جار، وأينما ذهب يشعر كأنه في بيته. إنهم يراعون اللباقة والتهذيب بشكل كبير، لكنهم يجهلون الرسميات تمامًا. لا يملكون أي عاطفة تجاه إناث وذكور مهورهم، وعنايتهم بهم تنبع فقط من مبادئ العقل، وقد رأيت سيدي يظهر لأبناء جيرانه العاطفة نفسها التي يبديها لأبنائه. يقولون إن الطبيعة تعلمهم حب النوع كله، والعقل وحده هو ما يميز بين الأشخاص، عند امتلاكهم درجة عالية من الفضيلة.

حين تنجب أنثى الهوينهم واحدًا من كل جنس لا تستمر بمرافقة زوجها، إلا حين يفقدان واحدًا من الأبناء بسبب حادث ما، وهو شيء نادر الحدوث، في تلك الحال يلتقيان مجددًا. وإذا أصاب حادث كهذا واحدًا تجاوزت زوجته سن الإنجاب، يمنحهما زوجان آخران واحدًا من مهورهما، ثم يلتقيان مجددًا حتى تحمل الأم. هذا الحذر ضروري لمنع البلد من الازدحام بأعداد كبيرة. لكن أبناء الطبقة الأدنى من الهوينهم، الذين يصيرون خدمًا، ليسوا محدودين تمامًا بتلك القاعدة، ويسمح لهم بإنجاب ثلاثة من كل جنس، ليصبحوا خدمًا عند العائلات النبيلة.

إنهم يحرصون في زيجاتهم على اختيار ألوان لا تسبب أي خليط بشع في الذرية. يقدرون في الذكر القوة بشكل رئيسي، والجمال في الأنثى، وليس ذلك بدافع الحب، بس للحفاظ على النوع من التدهور، لذلك حين تكون الأنثى موفورة القوة تختار الشريك على أساس الجمال. التودد والحب والهدايا

والمهور ليس لها وجود في أفكارهم، أو مصطلحات تعبر عنها في لغتهم. يلتقي الشريكان الشابان ويتزوجان بمجرد قرار من والديهما وأصدقائهما، ذلك ما يرونه يحدث كل يوم، وينظرون إليه على أنه واحد من الأفعال الضرورية لدى الكائن العاقل. لم يُسمع بينهم عن انتهاك الزواج أو أي فعل آخر مناف للعفة قط، حيث يقضي المتزوجان حياتهما بمثل الصداقة والإحسان المتبادل الذي يحملانه لكل أبناء جنسهما، دون غيرة أو حب أو شجار أو ضجر.

طريقة تعليم أبنائهم من الجنسين مثيرة للإعجاب، وتستحق أن نقلدها. لا يسمح لهم بتذوق حبة شوفان إلا في أيام معينة، حتى يبلغوا الثامنة عشرة، ولا الحليب إلا نادرًا. في الصيف يرعون ساعتين في الصباح، ومثلها في المساء، يهتم بذلك الوالدان. أما الخدم فلا يسمح لهم بالرعي أكثر من نصف ذلك الوقت، ويجلب جزء كبير من العشب إلى المنزل ليأكلوه في ساعات مناسبة حين يكونون متفرغين من العمل.

الاعتدال والاجتهاد والتريض والنظافة دروس تعطى للصغار من الجنسين بشكل متساوٍ، ويرى سيدي وجودَ اختلاف بين تعليم الإناث وتعليم الذكور خطأ فادحًا، إلا في بعض الشؤون المنزلية، وقد لاحظ أن ذلك جعل نصف السكان لدينا لا يصلحون لشيء إلا لإنجاب الأولاد إلى العالم، لذلك فإن تسليم رعاية أولئك الأولاد إلى تلك الكائنات عديمة الفائدة، لهو فعل أكثر همجية.

يعلّم الهوينهم أبناءهم القوة والسرعة والتحمل بتدريبهم على سباقات ركض عبر تلال منحدرة، أو على أراضٍ صلبة حجرية، وعندما يتعرقون يؤمرون بالقفز رأسيًا في بركة أو نهر. يلتقي أبناء بعض المناطق أربع مرات في السنة لإظهار مهارتهم في الركض والقفز ومظاهر أخرى للقوة والرشاقة، حيث يكافأ الفائز أو الفائزة بأغنية تؤلف في مديحه أو مديحها. يقود الخدم في هذا المهرجان قطيعًا من الياهو إلى الساحة محملين بالتبن والشوفان والحليب كي يتناولها الهوينهم، بعد ذلك مباشرة يقاد أولئك الوحوش بعيدًا، خوفًا من أن يسببوا أذى أو إزعاجًا للتجمع.

كل أربع سنوات عند الاعتدال الربيعي، يُعقد مجلس يمثل كل الشعب في سهلٍ يبعد حوالي عشرين ميلًا عن بيتنا، ويستمر قرابة خمسة أو ستة أيام. يتفقدون فيه حالة المناطق المختلفة، إن كان فيها وفرة أو نقص في التبن أو الشوفان أو الأبقار أو الياهو، وحيثما يوجد نقص (نادرًا ما يحدث ذلك) يعوضونه مباشرة بموافقة الجميع ومشاركتهم. يتم فيه أيضًا تنظيم أمور الأولاد، مثلًا، إن كان لدى أحد الهوينهم ذكران، يبدل أحدَهما مع آخر لديه أنثيان، وإن فقد ولد بسبب أي حادث وقد تجاوزت أمه سن الإنجاب، تحدِّد العائلة التي ستنجب ولدًا آخر لتعويض الخسارة.

الفصل التاسع

مناظرة كبرى في المجلس الأعلى للهوينهم، والقرار الذي اتُّخذ. وصف علم الهوينهم، وأبنيتهم. طريقة دفن موتاهم. فقر لغتهم.

عُقد أحد تلك المجالس أثناء وجودي هناك، قبل قرابة ثلاثة أشهر من رحيلي، وحضره سيدي ممثلًا عن منطقتنا. استأنفوا في ذلك الاجتماع مناظرتهم القديمة، وهي في الحقيقة المناظرة الوحيدة التي حدثت في بلدهم على الإطلاق، وقد حكى لي عنها بالتفصيل بعد عودته.

دار النقاش في تلك المناظرة حول ما إذا كان يجب إبادة بني الياهو عن وجه الأرض. قدم أحد أعضاء الطرف المؤيد عدة حجج قوية، منها أن بني الياهو أكثر المخلوقات التي صنعتها الطبيعة قذارة وفسادًا وبشاعة، وهم كذلك أشدها هيجانًا ووحشية وشرًا وإيذاءً، يرضعون ضروعَ أبقار الهوينهم سرًا، ويقتلون ويلتهمون قططهم، ويسحقون شوفانهم وعشبهم إذا لم يظلوا تحت المراقبة طوال الوقت، ويرتكبون ألف فظاعة أخرى. وأشار إلى معتقد شائع يقول إن بني الياهو لم يكونوا دومًا موجودين في بلادهم، بل ظهر اثنان منهم على جبلٍ قبل سنوات طويلة، صنعتهما حرارة الشمس إما من وحل وطينٍ فاسدَين، أو من الطين وزبد البحر، فذلك لم يعرف أبدًا؛ وقد أنجبا ذرية صارت خلال وقت قصير شديدة الكثرة، حتى اجتاحوا وأزعجوا الشعب كله. أجرى بنو الهوينهم صيدًا شاملًا للتخلص من هذا الشر، انتهى بأسر القطيع كله، وبعد القضاء على الكبار منهم أبقى كل هوينهم على صغيرَي ياهو في وجار، وروضهما بقدر ما يمكن لكائن بهذه الشراسة الفطرية أن يروض، واستخدمهما من أجل الجر والحمل. قال إنه يبدو أن هنالك الكثير من الحقيقة في ذلك المعتقد، وأن هذه الكائنات لا يمكن أن تكون «يلنهنيامشي» (أو سكان أصليون)، بسبب الكره الشديد الذي يحمله بنو الهوينهم والحيوانات الأخرى تجاههم. وهم يستحقونه بسبب طبيعتهم الشريرة، إلا أنه لم يكن ليصل إلى تلك الدرجة من العنف لو كانوا سكانًا أصليين، وإلا لأبيدوا منذ زمن بعيد. أضاف أن السكان عندما طاب لهم استخدام الياهو، أهملوا بطيشٍ زيادة نسل الحمير، وهو حيوان جميل يسهل الاعتناء به، يفوق الياهو وداعة وانضباطًا، ليس له أي رائحة كريهة، وقوي بما يكفي للعمل، رغم أن جسده أقل رشاقة من الياهو. وإذا كان نهيقه صوتًا غير محبب، فهو مع ذلك أفضل من العواء الفظيع للياهو.

عبر آخرون عن الرأي نفسه، فاقترح سيدي للمجلس حلًا استوحاه مني بلا شك. لقد وافق على القصة التي ذكرها العضو المحترم الذي تحدث من قبل، وأكد أن الاثنين من بني الياهو اللذين يُعتقد أنهما أول من شوهد منهم في

بلدهم، قد جلبهما البحر إلى هناك، وبعد أن وصلا إلى اليابسة وتخلى رفاقهما عنهما انعزلا في الجبال، وأصبحت سلالتهما بالتدهور التدريجي على مر الزمن أكثرَ وحشية من بني جنسهم في البلد الذي جاء منه هذان الأصليّان. سبب ادعائه هذا هو وجود ياهو مذهلٍ عنده (يقصدني بذلك) سمع به معظمهم ورآه كثيرون منهم. حكى لهم كيف وجدني أول مرة، وكيف كان جسدي مغطى بنسيج مصنوع من جلود وشعور حيوانات أخرى. أخبرهم أنني أتكلم لغة خاصة بي، وتعلمت لغتهم بشكل جيد وحكيت له الحوادث التي أتت بي إلى هناك؛ وأنه حين رآني دون كسائي وجدني مثل الياهو في كل شيء، إلا أن لوني أشد بياضًا، وجسدي أقل شعرانية، ومخالبي أقصر. أضاف أنني حاولت إقناعه أن بني الياهو في بلادي والبلاد الأخرى يتصرفون كأنهم الكائنات الحاكمة والعاقلة، ويحتفظون بالهوينهم لخدمتهم. وقال إنه رأى فيّ كل صفات الياهو، إلا أنني أكثر تهذيبًا بسبب امتلاكي قليلًا من العقل، وهو على أي حال على قدرٍ من التدني بالنسبة إلى بني الهوينهم، كما هم الياهو في هذا البلد بالنسبة إليّ. أخبرهم أنني ذكرت من بين أشياء كثيرة عادةً موجودة لدينا، هي إخصاء الهوينهم في صغرهم بهدف جعلهم أكثر طواعية، وهي عملية سهلة وآمنة، وأنه ليس من العيب تعلم الحكمة من الحيوانات البرية، كما تعلم النملة المثابرة والسنونو البناء (هكذا ترجمت كلمة «ليهانه»، رغم أنه طائر أكبر حجمًا)، وأن بالإمكان تطبيق ذلك الاختراع على صغار الياهو هنا، مما سيجعلهم وديعين ومؤهلين للخدمة، بالإضافة إلى الحد من السلالة كلها مع الوقت دون القضاء على حياتهم. خلال ذلك الوقت يجب حث بني الهوينهم على زيادة نسل الحمير، التي تعتبر حيوانات أكثر قيمة من كل ناحية، كما أنها تتميز بقدرتها على الخدمة حالما تبلغ خمس سنوات، بينما لا يقدر الياهو على ذلك قبل سن الثانية عشرة.

هذا كل ما أخبرني به سيدي في ذلك الوقت عما جرى في المجلس الأعلى، لكنه أخفى عني تفصيلًا واحدًا يخصني، سرعان ما رأيت نتيجته المؤسفة، ومنه بدأتْ كل التعاسات اللاحقة في حياتي، كما سيعرف القارئ في الوقت المناسب.

لا يملك بنو الهوينهم حروفًا أبجدية، وبالتالي فإن كل معارفهم محكية، لكن بسبب قلة الأحداث ذات الأهمية عند شعبٍ أبناؤه يعيشون في وحدةٍ، ويميلون بطبيعتهم لكل فضيلة ويحتكمون إلى العقل وحده، ومنقطعون عن أي تواصل مع الشعوب الأخرى؛ فإن تاريخهم محفوظ بسهولة دون أن يشكل عبئًا على ذاكرتهم. وقد ذكرت من قبل أنهم لا يصابون بأي مرض، لذلك فهم بغنىً عن الأطباء. لكنهم على أي حال يستخدمون أدوية عشبية ممتازة لعلاج الجروح والكدمات العرضية التي تصيب الرسغ أو الحافر بسبب الأحجار الحادة، بالإضافة إلى الأذيات والجروح في الأماكن المختلفة من الجسد.

يحسبون السنين وفقًا لدوران الشمس والقمر، لكنهم لا يستخدمون التقسيم إلى أسابيع، وهم يعرفون جيدًا حركتي هذين الجرمين المضيئين، ويفهمون طبيعة الكسوف، لكن تلك هي أقصى معرفتهم بعلم الفلك.

في الشِعر، لا بد من الاعتراف بتفوقهم على كل الكائنات، لأن صحة تشابيههم ودقة وصفهم منقطعة النظير. تزخر أبياتهم بذلك، وتحوي عادة إما أفكارًا راقية عن الصداقة والإحسان، أو مديحًا للفائزين بالسباقات أو النشاطات الجسدية الأخرى. أما مبانيهم، بالرغم من بساطتها وبدائيتها فهي ليست سيئة، بل مصنوعة بإتقان لحمايتهم من أذيات الحر والبرد. لديهم نوع من الأشجار التي تضعف جذورها عندما تبلغ الأربعين وتسقط مع أول عاصفة، وهي مستقيمة تمامًا، فيجعلون أطرافها مدببة كالأوتاد بحجر حاد (لأنهم لا يعرفون استخدام الحديد)، ثم يغرسونها عموديًا في الأرض متباعدة عشرة إنشات عن بعضها، ويحيكون بينها قش الشوفان، أو أغصانًا طويلة مرنة، ويصنعون السقف بالطريقة نفسها، وكذلك الأبواب.

يستخدم بنو الهوينهم القسم الأجوف بين رسغهم وحافرهم في قوائمهم الأمامية كما نستخدم أيدينا، وبمهارة أكبر مما تخيلت في البداية، وقد رأيت فرسًا بيضاء من عائلتنا تُدخل باستخدام مفصلها ذاك خيطًا في إبرة (قد أعرتها لها لذلك الغرض) بالطريقة نفسها يحلبون أبقارهم، ويحصدون شوفانهم، ويؤدون كل الأعمال التي تتطلب استخدام اليدين. لديهم نوع من الصوان الصلب، يشحذونه بأحجار أخرى ويشكلون به أدواتٍ تقوم مقام الأوتاد والفؤوس والمطارق، بتلك الأدوات يقطعون التبن ويحصدون الشوفان الذي ينمو هناك بشكل طبيعي في حقول كثيرة، ثم يجر الياهو الحِزم بعربات إلى المنازل، حيث يطحنها الخدم في أكواخ مغلقة لاستخراج الحبوب التي يحتفظ بها فيما بعد في مخازن. يصنعون كذلك نوعًا من الأواني الخشبية والفخارية البدائية، ويشوون الأخيرة في الشمس.

فيما عدا التعرض لحادثٍ ما فهم لا يموتون بسببٍ غير كبر السن، ويُدفنون في أكثر الأماكن سرية، ولا يعبّر أصدقاؤهم وأقرباؤهم عن أي فرح أو حزن لرحيلهم، ولا الشخص الميت يظهر أدنى أسف على مغادرته العالم أكثر مما لو كان عائدًا إلى منزله من زيارةٍ لأحد جيرانه. أذكر مرة أن سيدي حدد موعدًا مع صديق له وعائلته ليأتوا إلى منزله من أجل مسألة مهمة. في اليوم المحدد جاءت الزوجة وولداها متأخرين جدًا، وقدمتْ لذلك عذرين، أولهما لزوجها، الذي قالت أنه قد «إيهدوهن» في ذلك الصباح بالذات. الكلمة معبرة في لغتهم، لكن يصعب ترجمتها إلى لغتنا، وتعني «عاد إلى أمه الأولى». أما عذرها لعدم قدومها في وقت أبكر كان أن زوجها مات في وقت متأخر في الصباح، مما جعلها تمضي وقتًا طويلًا في مشاورة خدمها بخصوص المكان المناسب الذي

سيوارى فيه جسده. لاحظتُ أنها تصرفت في منزلنا بمرحٍ مثل الباقين. وماتت بعد قرابة ثلاثة أشهر.

يعيشون عادة حتى سن السبعين أو الخامسة والسبعين، ونادرًا ما يبلغون الثمانين. قبل أسابيع من موتهم يشعرون بضعف تدريجي، لكن دون ألم. خلال ذلك الوقت يُكثر أصدقاؤهم من زيارتهم، لأنهم لا يستطيعون الخروج بالسهولة والراحة المعتادة. وقبل عشرة أيام من موتهم (نادرًا ما يخطئون حسابها) يردّون الزيارات التي تلقوها من الأقرب إليهم في الحي، محمولين على محفّة مريحة يجرها الياهو. ولا يستخدمون هذه المركبة في هذه المناسبة فقط، بل عندما يهرمون، أو في الرحلات الطويلة، أو إذا أصيبوا في حادث. عندما يردّ الهوينهم المحتضر تلك الزيارات يودع أصدقاءه وداعًا صادقًا، كما لو أنه ذاهب إلى مكان بعيد من البلاد، وينوي قضاء بقية حياته فيه.

لا أدري إن كان جديرًا بالذكر أن بني الهوينهم لا يملكون كلمة في لغتهم للتعبير عن أي شر، إلا ما يشتقونه من بشاعات أو عيوب الياهو، حيث يعبّرون عن حماقة خادم أو إهمال طفل أو حجرٍ جرح قدمهم أو استمرار الطقس السيئ وما شابه، بإضافة لقب «ياهو» إلى اسم كل منها، مثلًا: «ههنم ياهو، وهناهولم ياهو، ينلهمناويهلما ياهو». أو بيت سيئ البناء: «ينهولمهنمروهلنو ياهو».

بإمكاني أن أطيل الحديث أكثر عن سلوك وفضائل ذلك الشعب الاستثنائي، لكنني أنوي نشر كتاب خاص بهذا الموضوع قريبًا، أنصح القارئ بالرجوع إليه. في تلك الأثناء سأنتقل للحديث عن كارثتي المحزنة.

الفصل العاشر

الشؤون المنزلية للمؤلف وحياته السعيدة بين بني الهوينهم. تحسنه الكبير في الفضيلة عن طريق الحديث معهم. وصف أحاديثهم. يتلقى المؤلف إبلاغًا من سيده بوجوب مغادرته البلاد. يغمى عليه من الحزن، لكنه يسلم بالأمر. يصنع قاربًا بمساعدة خادم مقرب منه. يركب البحر لمصيرٍ مجهول.

رتبتُ مسكني الصغير كما يطيب لي، فقد أمر سيدي بإقامة غرفة لي على طريقتهم، تبعد ست ياردات من البيت، بطنتُ أرضها وجدرانها بالطين وغطيتها بحصيرٍ من صنعي. ثم سحقت بعض القنب الذي ينمو بريًا هناك وصنعت منه ما يشبه غلاف وسادة، ملأته بريش عدة طيور اصطدتها بأفخاخٍ صنعتها من شعر الياهو، وكانت لحومها طعامًا ممتازًا. صنعت كذلك كرسيين باستخدام سكيني، وساعدني الحصان الأحمر بالجزء الأبسط والأكثر إجهادًا. عندما بليت ثيابي وأصبحت أسمالًا، صنعت لنفسي غيرها من جلود أرانب وحيوانٍ جميل آخر بالحجم نفسه يسمى «نُهنوه»، جلده مغطىً بوبر ناعم، ومن تلك الجلود صنعت جوارب مناسبة أيضًا. ركبتُ نعلًا لحذائي من خشبٍ قطعته من إحدى الأشجار، وربطته بالقسم الجلديّ من الأعلى، ولما بليَ هذا القسم أصلحته باستخدام جلود الياهو المجففة في الشمس. أحيانًا كنت أستخرج العسل من أشجار جوفاء، فأخلطه مع الماء أو آكله مع خبزي. لا يوجد أحد أقدر مني على إثبات صحة هاتين الحكمتين: أن من السهل إشباع الاحتياجات الطبيعية، وأن الحاجة أم الاختراع. لقد تمتعت هناك بصحة الجسد وطمأنينة البال، إذ لم أختبر خيانة أو تقلب صديق، أو أذىً من عدو سري أو صريح؛ لم أسمع عن رشوة أو تزلف أو قوادة بهدف اكتساب حظوة أي رجل مرموق أو حظوة تابعه؛ لم أحتج حمايةً من الغش أو الظلم، فلم يكن هنالك طبيب يدمر جسدي، أو محامٍ يدمر مالي، ولم يكن ثمة مخبرٌ يراقب كلماتي وأفعالي، أو يلفق لي تهمًا من أجل المال؛ لم يكن هنالك ساخرون أو عيابون أو مغتابون أو نشالون أو قُطاع طرق أو لصوص أو محامون أو قوادون أو ماجنون أو مقامرون أو سياسيون أو مازحون أو حاقدون أو ثرثارون مضجرون أو مجادلون أو متحذلقون أو مجرمون أو مغتصبون؛ وليس عندهم قادة أو تابعون لحزب أو طائفة، أو مشجعون على الرذيلة بالتحريض أو القدوة، ولا سراديب أو فؤوس أو مشانق أو منصات جلد أو تشهير؛ ولا باعة أو حرفيون غشاشون؛ ولا غرور أو تكبر أو تصنع؛ ولا متأنقون أو متنمرون أو سكيرون أو بغايا أو داء الزهري؛ ولا زوجات متشدقات داعرات مبذرات؛ ولا متحذلقون حمقى ومتكبرون، أو رفاق لحوحون متعجرفون مشاكسون صاخبون فارغون مغرورون أو بذيئون؛ ولا أنذال يُنتشلون من

الحضيض بفضل رذائلهم، أو نبلاء يسقطون فيه بسبب فضائلهم؛ ولا لوردات أو لاهون أو قضاة أو معلمو رقص.

لقد حظيت بشرف الدخول للقاء عدد من الهوينهم الذين يأتون لزيارة سيدي أو تناول العشاء معه، حيث كان سموّه يسمح لي بالجلوس في الغرفة وسماع حديثهم، فيتكرم أحيانًا هو وأحد رفاقه بتوجيه أسئلة لي وسماع إجاباتي. تشرفت أيضًا مرات بمرافقة سيدي في زياراته للآخرين، حيث لم أكن أقدم على الحديث إلا إجابةً على سؤال، وكنت أفعل ذلك بأسف في داخلي لإضاعتي الكثير من الوقت في تحسين نفسي. لكنني كنت مسرورًا للغاية بوضعي كمستمع متواضع في تلك الأحاديث، التي لا يقال فيها إلا ما يفيد، ويعبَّر عنه بأقل الكلمات وأكثرها دقة، مع مراعاة أقصى اللباقة (كما قلت من قبل) دون أي رسميات، ولا يتحدث أي منهم دون أن يكون هو مسرورًا، ويسر الآخرين، وليس فيها مقاطعة أو إطالة، أو انفعال أو اختلاف في المشاعر. لديهم مفهوم يقول إن الصمت القصير عند اجتماع أشخاص معًا يحسن الحديث كثيرًا، وقد وجدت ذلك صحيحًا، لأن أفكارًا جديدةً تظهر في عقولهم خلال انقطاعات الحديث القصيرة، مما يؤدي إلى تنشيط الحوار. تتنوع مواضيعهم بشكل عام بين الصداقة والإحسان، والنظام وتدبير المنزل. أحيانًا يتحدثون عن الظواهر الطبيعية أو المعتقدات القديمة، أو عن قيود وحدود الفضيلة، وقواعد العقل السديدة، أو عن قرارات ليتم اتخاذها في المجلس الأعلى، وأحيانًا عن محاسن الشِعر العديدة. أستطيع أن أضيف، دون غرور، أن وجودي كان يوفر لهم أحيانًا مادة دسمة للحديث، لأنه زود سيدي بفرصة تعريف أصدقائه بي وبتاريخ بلادي، وفي ذلك الحديث أسهب الجميع بقول ما لا يسر عن البشر، لذلك السبب لن أكرر ما قالوه. لكن لا بد لي من التنويه إلى أن سيدي بدا فاهمًا لطبيعة الياهو بشكل أفضل مني، مما أدهشني كثيرًا، فقد تحدث عن كل رذائلهم وحماقاتهم، واكتشف الكثير مما لم أذكره له من قبل، بمجرد افتراض الصفات التي قد يبديها أي ياهو من بلدهم بامتلاكه قليلًا من العقل، واستنتج أن كائنًا كهذا سيكون وضيعًا وبائسًا، وليس ذلك بعيدًا عن الصحة.

أعترف بصراحة أنني اكتسبت كل المعرفة القليلة التي أملكها من الدروس التي تلقيتها من سيدي، ومن سماع أحاديثه مع أصدقائه. وأنا أكثر فخرًا بسماعها مما لو ترأستُ أكبر وأحكم اجتماع في أوروبا. أكبرتُ قوةَ وجمال وسرعة السكان، وزرعتْ فيَّ هذه الفضائلُ المجتمعة في أولئك الأشخاص الطيبين أرفعَ تبجيل. لم أشعر في البداية بتلك الرهبة الطبيعية التي يحسها بنو الياهو وكل الحيوانات الأخرى تجاههم، إلا أنها كبرت فيّ تدريجيًا في وقت أبكر مما تخيلت، واختلطت بحب مبجِّل وامتنان، لتنازلهم بتمييزي عن باقي بني جنسي.

كنت عندما أفكر بعائلتي وأصدقائي وأبناء بلدي، أو الجنس البشري بشكل عام، أعدّهم كما هم في الحقيقة، ياهو في الشكل والطباع، قد يكونون أكثر تحضرًا ويملكون القدرة على الكلام، لكنهم لا يستخدمون العقل سوى في زيادة ومضاعفة عيوبهم، التي لا يملك إخوتهم في هذا البلد منها سوى ما أعطتهم إياه الطبيعة. وإذا حدث أن رأيت انعكاس شكلي في بحيرة أو نبع كنت أشيح بوجهي برعب واشمئزاز من نفسي، وكنت أفضل تحمل منظر الياهو على منظري أنا. من شدة سروري بالحديث مع بني الهوينهم والنظر إليهم، أخذت أقلد مشيتهم وحركاتهم، وصار ذلك عادةً عندي، حتى أن أصدقائي أحيانًا يقولون لي بصراحةٍ إنني أخبّ مثل حصان، وأنا أجد ذلك مديحًا رائعًا. ولا أنكر أنني أميل في كلامي إلى استخدام صوت وأسلوب الهوينهم، وأسمع السخرية مني بسبب ذلك دون أي شعورٍ بالخجل.

في خضمّ تلك السعادة، حين بدأت أشعر وكأنني سأستقر هناك مدى الحياة، أرسل سيدي في طلبي ذات صباح أبكر من وقته المعتاد. لاحظت من وجهه أنه مضطرب، ولا يدري كيف يبدأ بما يريد قوله. بعد صمتٍ قصير، أخبرني أنه لا يعرف كيف سيكون رد فعلي على ما سيقوله، ذلك أن بعض الأعضاء، حين طُرحت مسألة الياهو في الاجتماع الأخير، اعترضوا على احتفاظه بواحد منهم في عائلته بطريقة أقرب إلى هوينهم من حيوان بري (كانوا يقصدونني بذلك) وقد ذاع أنه يُكثر الحديث معي، كأنه يكسب بذلك شيئًا أو يسعد بصحبتي. وقالوا إن ذلك التصرف ليس متوافقًا مع العقل أو الفطرة، ولم يُسمع بمثله عندهم من قبل. لذلك نصحه المجلس بأن يستخدمني مثل باقي بني جنسي، أو يأمرني بالسباحة عائدًا من حيث أتيت. أخبرني أن الحل الأول قوبل برفضٍ قاطع من قبل كل الهوينهم الذين رأوني في منزله أو منزلهم، فقد ادعوا أنني بسبب امتلاكي قليلًا من العقل، بالإضافة إلى الخبث الفطري لبني الياهو، قد أتمكن من استدراجهم إلى الغابات أو المناطق الجبلية من البلاد، ثم أجلبهم جماعاتٍ في الليل لتدمير مواشي الهوينهم، كونهم من النوع المفترس فطريًا والنُّفور من العمل.

أضاف سيدي أن الجيران يضغطون عليه يوميًا لتنفيذ نصيحة المجلس، ولن يستطيع تأجيل ذلك أكثر. وقد ظن أن من المستحيل عليّ السباحة إلى بلد آخر، لذلك طلب مني أن أصنع مركبًا ما يشبه ذلك التي وصفته كي يحملني في البحر، وقال إنني سأتلقى مساعدةً من خدمه وخدم الجيران في إنجازه. ختم حديثه بقوله، إنه كان سيسعد بإبقائي في ضيافته طوال حياتي، فقد وجدني شفيت نفسي من بعض العادات السيئة عن طريق محاكاة بني الهوينهم، بقدر ما تستطيع ذلك طبيعتي الدنيا.

لا بد هنا من لفت نظر القارئ إلى آن قرار المجلس الأعلى في ذلك البلد تعبر عنه كلمة «هنهلواين» التي تعني «موعظة»، وهي أقرب كلمة لها، فهم لا يتخيلون أن من الممكن «إجبار» أي كائن عاقل، بل يمكن «نصحه» أو «وعظه»، حيث لا يمكن لأي شخص أن يعصي العقل دون أن يتنازل عن زعمه بأنه كائن عاقل.

أصابني حديث سيدي بأقصى الحزن والأسى، فوقعت عند قدميه مغشيًا عليّ عاجزًا عن تحمل الألم الذي أصابني. عندما أفقتُ أخبرني أنه ظنني قد متّ (فهم ليسوا مثلنا عرضة لتلك الغباوات الطبيعية) أجبت بصوت واهن أن الموت كان سيشكل سعادة كبرى بالنسبة إليّ، ورغم أنني لا ألوم نصيحة المجلس، أو إلحاح أصدقائه، إلا أنني بحكمي الضعيف الخاطئ رأيت من المتوافق مع العقل أن يكونوا أقل قسوة، لأنني لا أستطيع السباحة مسافة فرسخ واحد، وأقرب يابسة إليهم قد تبعد أكثر من مئة فرسخ، وكثير من المواد الضرورية لصناعة مركب صغير يحملني غيرُ موجودة في هذا البلد. لكنني على أي حال سأحاول، طاعةً وامتناًنًا لسموّه، ولو أنني أظن ذلك مستحيلًا، ورأيت نفسي بالتالي محكومًا بالهلاك. قلتُ إن انتظارَ موتٍ محتم وغير طبيعي لهو أبسط مصائبي، فلو أنني نجوت بحياتي بصدفة غريبة، كيف سأحتمل أن أمضي أيامي بين بني الياهو، وأعودَ إلى فسادي القديم في ظل نقص الأمثلة التي ترشدني وتبقيني على طريق الفضيلة. قلت إنني أعرف الأسباب القوية التي تستند إليها قرارات الهوينهم الحكماء التي لا تهزها حججي، أنا الياهو البائس، لذلك قدمت له بتواضع خالصَ شكري لعرض مساعدة خدمه في صنع مركب، وطلبت منه وقتًا كافيًا لإنجاز هذا العمل الصعب. أخبرته أنني سأحاول الحفاظ على العيش بزهد، وإن عدت يومًا إلى إنكلترا، آمل بأن أنفع بني جنسي بالاحتفاء بذكر بني الهوينهم المشاهير ([112])، وتقديم فضائلهم كي تتبناها البشرية.

رد سيدي بكلمات قليلة ردًا كريمًا، وأمهلني شهرين لإنهاء مركبي، وأمر صديقي الخادمَ (أستطيع أن أدعوه بذلك من هذه المسافة) باتباع تعليماتي، لأنني أخبرت سيدي أن عونه سيكون كافيًا، وكنت أعرف أنه يكنّ لي المودة.

أول ما فعلته بصحبته هو الذهاب إلى الشاطئ الذي أمرني طاقمي المتمرد بالنزول إليه، حيث صعدت مرتفعًا ونظرت إلى البحر من كل جانب، فهيئ إليّ أنني رأيت جزيرة صغيرة إلى الشمال الشرقي. أخرجت منظاري، واستطعت رؤيتها بوضوح على بعد خمسة فراسخ، حسب تقديري. لكنها بدت للحصان الأحمر مجرد غيمة زرقاء، لأنه لا يتوقع وجود أي بلد غير بلده، لذلك فهو ليس خبيرًا في تمييز الأجسام البعيدة في البحر مثلنا نحن المتمرسون في ذلك المجال.

بعد أن رأيت تلك الجزيرة لم أفكر كثيرًا، بل قررت أنها ستكون منفاي الأول إن استطعت، تاركًا ما بعد ذلك للقدر.

عدت أدراجي، وبعد مشاورة الحصان الأحمر دخلنا أيكة قريبة، حيث استخدمت سكيني، واستخدم هو حجر صوان حاد -مربوط ببراعة إلى قبضة خشبية على طريقتهم- في تقطيع عدة عصي من البلوط بثخن عكاز، وقطع أخرى أكبر حجمًا، لكنني لن أضجر القارئ بوصف تفصيلي لطريقتي، ويكفي أن أقول إنني خلال ستة أسابيع، بمساعدة الحصان الأحمر الذي أنجز الأقسام التي تحتاج إلى جهد أكبر، صنعت ما يشبه قاربًا هنديًا، لكنه أكبر بكثير. غطيته بجلود ياهو مخيطة معًا بإحكامٍ بخيوط قنب صنعتها بنفسي، وكان شراعي مصنوعًا من جلد ذلك الحيوان نفَسه، وقد حاولت استخدام أصغرهم لأن جلود الكبار شديدة السُمك والقساوة. صنعت كذلك أربعة مجاديف، وجهزت مخزونًا من لحم أرانب وطيور مسلوق، وأخذت معي وعائين أحدهما مملوء حليبًا والآخر ماءً.

جربت قاربي في بحيرة كبيرة قرب منزل سيدي، ثم أصلحت ما كان فيه خلل، وسددت كل الشقوق بشحم الياهو، حتى وجدته منيعًا للماء وقادرًا على حملي أنا ومتاعي. عندما أصبح جاهزًا قدر الإمكان، جعلت الياهو يجرونه ببطء على عربة إلى الشاطئ، بإشراف الحصان الأحمر وخادم آخر.

عندما صار كل شيء جاهزًا وجاء يوم رحيلي، ودعت سيدي وسيدتي والعائلة كلها، وعيناي تطفحان بالدمع، وقلبي يملؤه الأسى. لكن سموّه صمم على رؤيتي في قاربي بدافع الفضول، أو ربما بدافع الطيبة (إن كان لي أن أقول ذلك دون غرور)، وطلب من بعض أصدقائه من الجيران مرافقته. اضطررت لانتظار المد أكثر من ساعة، ثم وجدت الرياح تهب باتجاه الجزيرة التي أنوي التوجه إليها، فودعتُ سيدي ثانيةً، لكنني عندما أوشكت على الانحناء لتقبيل حافره، شرفني برفعه بلطف نحو فمي. لا أجهل كم وُجه إلي من انتقادات بسبب ذكر ذلك التفصيل الأخير، حيث رأى النقاد من المستبعد أن يتنازل شخص لامع مثل سيدي، ويمنحَ كائنًا دونيًا مثلي تلك اللفتة الكريمة، ولم أنسَ كم يحب الرحالة التبجحَ بشأن اللفتات الاستثنائية التي تلقوها، لكن لو عرف أولئك النقاد طبع الهوينهم النبيل والمهذب لغيروا رأيهم على الفور. حييتُ بقية الهوينهم الذين كانوا بصحبة سيدي، ثم ركبت قاربي وابتعدت به عن الشاطئ.

الفصل الحادي عشر

رحلة المؤلف المحفوفة بالمخاطر. يصل إلى هولندا الجديدة ([113])آملًا الاستقرار هناك. يصيبه أحد سكانها بسهم. يؤسر ويؤخذ بالقوة إلى سفينة برتغالية. حسن ضيافة القبطان. يصل إلى إنكلترا.

بدأتُ هذه الرحلة البائسة في ١٥ فبراير عام ١٧١٥ عند التاسعة صباحًا. كانت الرياح مواتية، واعتمدتُ في البداية على مجدافيّ فقط، ثم فكرت أنني قد أتعب قريبًا، وقد تغير الرياح اتجاهها، فقررت أن أنصب شراعي الصغير. هكذا، وبمساعدة المد، أبحرت بسرعة فرسخٍ ونصف في الساعة حسب تقديري. ظل سيدي ورفاقه على الشاطئ حتى كدت أغيب عن ناظرهم، وسمعت الحصان الأحمر (الذي طالما أحبني) يصيح عدة مرات: «هنوي إللا نهيا ماياه ياهو»، (اعتنِ بنفسك أيها الياهو اللطيف)

كانت خطتي أن أعثر على جزيرة صغيرة غير مأهولة، لكن كافية لتؤمن لي بجهدٍ مني ضرورات الحياة، وكنت سأجد في ذلك سعادةً أكبر مما لو أصبحت الوزير الأول في أفضل قصور أوروبا. كم كانت مروّعةً فكرةُ العودة إلى العيش في مجتمع الياهو وتحت حكمهم. لأنني في العزلة التي أردتها، أستطيع على الأقل أن أستمتع بأفكاري الخاصة، وأتأمل بسرورٍ فضائل الهوينهم الأفذاذ، دون أي فرصة للتدهور نحو رذائل ومفاسد بني جنسي.

قد يذكر القارئ ما حكيته عن تآمر طاقمي ضدي وحبسهم لي في قمرتي، وكيف بقيت فيها عدة أسابيع دون أن أعرف أي اتجاه نسلك، ثم أنزلني البحارة إلى القارب الطويل وأخبروني مقسمين، سواء كان ذلك صدقًا أم كذبًا، أنهم لا يعرفون في أي جزء من العالم كنا. على أي حال، كنت أظن عندئذٍ أننا على مقربة عشر درجات جنوب رأس الرجاء الصالح، أو على خط طول ٤٥ درجة جنوب خط الاستواء، حسب ما فهمت من كلمات متفرقة تناهت إلى سمعي منهم، وذلك على ما أظن إلى الجنوب الشرقي في رحلتهم المزمعة إلى مدغشقر. رغم أن ذلك لم يكن أفضل من مجرد تخمين، فقد قررت أن أتجه شرقًا، آملًا الوصول إلى الساحل الجنوبي الغربي لهولندا الجديدة، أو ربما إلى جزيرة كالتي أتمناها، تقع إلى الغرب منها. كانت الرياح غربية، وفي السادسة مساءً قدرت أنني أبحرت شرقًا ثمانية عشر فرسخًا على الأقل، عندئذٍ رأيت جزيرة صغيرة جدًا على بعد حوالي نصف فرسخ، سرعان ما وصلت إليها. لم تكن الجزيرة سوى صخرة فيها خليج واحد مقوس بشكل طبيعي بفعل العواصف. رسوت هناك بقاربي، وتسلقت جزءًا من الصخرة، فرأيت بوضوح يابسة في جهة الشرق تمتد من الجنوب إلى الشمال. أمضيت الليل كله في

قاربي، وأبحرت مجددًا في الصباح الباكر، فوصلت بعد سبع ساعات إلى النقطة الجنوبية الشرقية من هولندا الجديدة. أكد لي ذلك رأيي القديم، بأن الخرائط والمخططات تزيح هذا البلد عن موقعه الحقيقي ثلاث درجات إلى الشرق على الأقل، وقد قلت ذلك قبل سنوات لصديقي العزيز السيد هيرمان مول ([114])، وأوضحت له أسبابي، لكنه فضل مع ذلك اتباع رأي مؤلفين آخرين.

لم أر سكانًا في المكان الذي رسوت فيه، وخفت من التوغل في البلد وأنا أعزل. وجدت بعض المحار على الشاطئ فأكلته نيئًا، ولم أجرؤ على إشعال نار خوفًا من أن يكتشفني السكان. بقيت ثلاثة أيام أتغذى على المحار والبطلينوس كي أحافظ على مؤونتي، ولحسن الحظ وجدت جدول ماء صافٍ، فشعرت بارتياح كبير.

في وقت مبكر من اليوم الرابع بعد أن توغلت مسافة بعيدة، رأيت عشرين أو ثلاثين من السكان على مرتفَع، لا يبعدون عني أكثر من خمسمئة ياردة. كانوا عراة تمامًا، رجالًا ونساءً وأطفالًا، متجمعين حول نار كما خمنت من الدخان. رآني أحدهم ونبه الباقين، فتقدم خمسة منهم باتجاهي تاركين النساء والأطفال عند النار. أسرعتُ ما أمكن باتجاه الشاطئ، وركبت قاربي ثم ابتعدت به. عندما رآني المتوحشون أتراجع لحقوا بي، وقبل أن أبتعد مسافة كافية في البحر أطلقوا سهمًا جرحني جرحًا عميقًا خلف ركبتي اليسرى (سوف أحمل ندبته حتى القبر) خفت أن يكون السهم مسمومًا، فجدفت بعيدًا عن مرمى سهامهم (فقد كانت الرياح ساكنة)، ثم حاولت مص الجرح وتضميده قدر الإمكان.

حرتُ فيما يجب أن أفعل، لأنني لم أجرؤ على العودة إلى مرساي نفسه، فاتجهت شمالًا واضطررت إلى التجديف، بسبب الرياح التي كانت -رغم بطئها- تهب بعكس اتجاهي نحو الشمال الغربي. بينما كنت أبحث عن مرسىً آمن أبصرت شراعًا في الشمال الشرقي، كان يبدو أكبر كل دقيقة. راودني شك حول ما إذا كان عليّ أن أنتظرهم، لكن كرهي لبني الياهو طغى أخيرًا، فأدرت قاربي وجدفت نحو الجنوب، ودخلت الخليج نفسه الذي أبحرت منه في الصباح، مفضلًا أن آمن على نفسي بين أولئك الهمجيين، على أن أعيش بين الياهو الأوروبيين. سحبت قاربي أقرب ما يمكن إلى الشاطئ، واختبأت خلف صخرة بجانب الجدول الصغير الذي كان ماؤه شديد الصفاء، كما أسلفت.

اقتربت السفينة إلى مسافة نصف فرسخ من الخليج، وأرسلت قاربًا مع براميل لتعبئة مياه عذبة (يبدو أنه كان مكانًا معروفًا)، لكنني لم أنتبه لذلك إلا حين أوشك قاربهم على الرسوّ وفات أوان البحث عن مخبأ آخر. رأى البحارة قاربي عندما رسوا، واستنتجوا بعد تفتيشه أن صاحبه لا يمكن أن يكون بعيدًا. بحث أربعةٌ مسلحون منهم في كل شقّ ومخبأ، حتى وجدوني أخيرًا مستلقيًا على وجهي خلف الصخرة. حدقوا بدهشةٍ بثيابي الغريبة الخشنة، ومعطفي المصنوع

من الجلد، وحذائي ذي النعل الخشبي، وجواربي المصنوعة من الفراء، واستنتجوا من ذلك أنني لست من السكان الأصليين، الذين يظلون عراة. طلب مني أحد البحارة أن أنهض باللغة البرتغالية، وسألني من أكون. كنت أعرف تلك اللغة جيدًا، فوقفت على قدميّ وقلت إنني ياهو مسكين ومَنفيٌ من أرض الهوينهم، ورجوتهم أن يتركوني أرحل. دهشوا لسماعي أجيبهم بلغتهم، وعرفوا من لون بشرتي أنني أوروبي، لكنهم لم يعرفوا ما أقصده بقولي ياهو وهوينهم. في الوقت ذاته ضحكوا من نبرتي الغريبة في الكلام، الأشبه بصهيل حصان. كنت طوال الوقت أرتجف من الخوف والكره، فطلبت مجددًا الإذن بالرحيل، وأخذت أمشي ببطء إلى قاربي. لكنهم أمسكوا بي، وسألوني عن بلدي، ومن أين أتيت، وأسئلة أخرى عديدة. أخبرتهم أنني ولدت في إنكلترا، وقد جئت منها قبل خمس سنوات. كانت بلادنا وبلادهم عندئذٍ في وفاق، فأملت ألا يعاملوني كعدو، لأنني لم أرد إيذاءهم، بل كنت مجرد ياهو مسكين أبحث عن مكان منعزل يمكنني أن أقضي فيه بقية حياتي التعيسة.

عندما بدؤوا بالكلام هيئ إلي أنني لم أسمع أو أر في حياتي شيئًا أشد غرابة، ووجدتُ ذلك مستهجنًا كما لو أن بقرة أو كلبًا في إنكلترا ينطق، أو ياهو في بلاد الهوينهم يتحدث. كان البرتغاليون الطيبون كذلك مندهشين من لباسي الغريب وطريقتي العجيبة في قول كلماتي، التي فهموها جيدًا على أي حال. لقد تحدثوا إليّ بكثير من الإنسانية، وقالوا إنهم واثقون بأن قبطانهم سيأخذني معهم مجانًا (غراتيس) ([115]) إلى لشبونة، ومن هناك أستطيع العودة إلى بلدي، وإن اثنين من البحارة سيعودون إلى السفينة ليخبروا القبطان بما رأوه ويتلقوا أوامره، في تلك الأثناء سيقيدونني بالقوة إلا إن أقسمت لهم بأنني لن أهرب، فرأيت من الأفضل أن أقبل عرضهم. كان فضولهم شديدًا لمعرفة قصتي، لكنني لم أعطهم أي إجابة، فاستنتجوا أن المصاعب أعطبت عقلي. بعد ساعتين عاد القارب الذي ذهب محملًا ببراميل المياه، مع أوامر من القبطان بإحضاري على متنه. جثوت على ركبتيّ طالبًا حريتي، لكن بلا فائدة، لأن الرجال قيدوني بالحبال وحملوني إلى القارب، ثم أخذوني منه إلى ظهر السفينة، ومن هناك إلى قمرة القبطان.

كان القبطان شخصًا مهذبًا وكريمًا، اسمه بيدرو دي مينديز، وقد طلب مني أن أحكي القليل عن نفسي، وسألني عما أرغب أن آكل أو أشرب. قال إنني سأعامَل كما يعامل هو، بالإضافة إلى أشياء لطيفة أخرى، حتى تعجبت من رؤية هذه الخصال في واحد من بني الياهو. لكنني بقيت صامتًا وواجمًا، وكان سيغمى عليّ من مجرد رائحته ورائحة رجاله. أخيرًا طلبت شيئًا لآكله من قاربي نفسه، لكنه طلب لي دجاجة ونبيذًا ممتازًا، ثم أمر بأن أؤخذ كي أنام في حجرة نظيفة. استلقيت على أغطية السرير دون أن أخلع ثيابي، وبعد نصف ساعة حين ظننت أن الطاقم كان على العشاء، تسللتُ هاربًا. أردت أن أقفز إلى

البحر وأسبح هاربًا بحياتي بدلًا من البقاء بين الياهو، لكن أحد البحارة منعني عندما وصلت إلى جانب السفينة، وبعد أن أخبر القبطان بما حدث قُيدتُ بالسلاسل في حجرتي.

جاء إليّ دون بيدرو بعد العشاء وسألني عن سبب محاولتي اليائسة، وأكد لي أنه لا يقصد سوى أن يقدم لي كل خدمة يقدر عليها، وقال كلامًا مؤثرًا، جعلني أتنازل وأعامله مثل حيوان يملك قليلًا من العقل. حكيت له مختصرًا عن رحلتي، وعن تآمر رجالي ضدي، والبلد الذي تركوني على شاطئه، وعن إقامتي هناك خمس سنوات، وقد وجد ذلك أشبه بحلم أو رؤيا. أزعجني ذلك كثيرًا، لأنني نسيت بالفعل القدرة على الكذب، التي تميز بني الياهو في كل بلد يسكنونه، وتجعلهم يميلون إلى الشك بصدق الآخرين من بني جنسهم. سألته إن كانت عادةً شائعة في بلده أن يقولوا ما لم يكن؟ وأكدت له أنني كدت أنسى ما يعنيه بكلمة «كذب»، وأنني لو عشت ألف عام في أرض الهوينهم لم أكن لأسمع كذبة من أدنى خادم، وأنني لا أهتم على الإطلاق إن صدقني أم لم يصدقني، لكنني مقابل كرمه سألتمس العذر لفساد طبيعته، وأجيبه على أي اعتراض لديه، وهو سيكتشف الحقيقة بسهولة.

كان القبطان رجلًا حكيمًا، بعد أن حاول مرارًا الإمساك بي أتعثر في أي جزء من قصتي، بدأ أخيرًا يكون صورة أفضل عن مصداقيتي ([116]). لكنه أضاف، أنني بعد ما أبديته من التزام صارم بالحقيقة، عليّ أن أعطيه كلمة شرف بأن أرافقه في هذه الرحلة دون أن أحاول المخاطرة بحياتي، وإلا فسيبقيني سجينًا حتى نصل إلى لشبونة. قطعت له الوعد الذي طلبه، لكنني في الوقت ذاته قلت معترضًا، إنني أفضل تحمل أشق الصعاب، على العودة إلى العيش بين الياهو.

مضت رحلتنا دون أي حادث يذكر. كنت أجلس أحيانًا مع القبطان بناء على طلبه، بدافع الامتنان له، محاولًا إخفاء نفوري من بني البشر، إلا أنه كان يظهر أحيانًا، فيغض القبطان الطرف عنه، وكنت أنعزل في حجرتي معظم النهار لأتجنب رؤية أي فرد من الطاقم. طلب مني القبطان أكثر من مرة أن أخلع عني ثيابي البدائية، وعرض عليّ أن يعيرني أفضل طقم ثياب لديه. لم يكن من الممكن إقناعي بقبول ذلك، بسبب نفوري من تغطية جسدي بأي شيء ارتداه ياهو من قبل. طلبت منه فقط أن يعيرني قميصين نظيفين، رأيت أنهما لن يلوثاني كثيرًا بما أنهما غسلا منذ ارتداهما آخر مرة، وكنت أبدلهما كل يومين وأغسلهما بيدي.

وصلنا إلى لشبونة في الخامس من نوفمبر عام ١٧١٥. أجبرني القبطان عند وصولنا على تغطية نفسي بعباءته، لمنع الغوغاء من التجمهر حولي، وأخذني إلى منزله، فطلبت منه أن يوصلني إلى أعلى غرفة في القسم الخلفي منه. ناشدته أن يخفي عن الجميع ما قلته له عن بني الهوينهم، لأن أي تلميح عن

قصة كهذه لن يجلب فقط آعدادًا كبيرة من الناس لرؤيتي، بل سيضعني في خطر أن أحبس، أو أحرق من قبل محكمة التفتيش. أقنعني القبطان بقبول طقم ثياب صنع حديثًا، لكنني لم أسمح بأن يأخذ الخياط مقاسي. على أي حال، كان دون بيدرو بمثل حجمي تقريبًا، فلاءمتني الثياب بشكل كافٍ. زودني أيضًا بحاجيات أخرى جديدة بالكامل، هوّيتها لمدة أربع وعشرين ساعة قبل استخدامها.

لم يكن للقبطان زوجة أو أكثر من ثلاثة خدم، ولم يسمح لأي منهم بخدمة المائدة أثناء الطعام. كان سلوكه كريمًا للغاية، بالإضافة إلى فهمه البشري الرائع، مما جعلني أبدأ بتقبل صحبته. لقد أثر بي كثيرًا، حتي تشجعت على النظر من النافذة الخلفية، بعد ذلك بالتدريج دخلت إلى غرفة أخرى واسترقت النظر منها إلى الشارع، لكنني سحبت رأسي برعب. بعد أسبوع أقنعني بالنزول إلى الباب. وجدت رعبي يخف تدريجيًا، لكن كرهي ومقتي كانا في ازدياد. في النهاية تجرأت بما يكفي للمشي في الشارع بصحبته، لكنني أبقيت أنفي مسدودًا بالسذاب، وأحيانًا بالتبغ.

بعد عشرة أيام عندما حكيت لِدون بيدرو قليلًا عن شؤوني في بلدي، ألزمني لزام شرف وضمير بالعودة والعيش في منزلي مع زوجتي وأولادي، وأخبرني أن هنالك سفينة إنكليزية في الميناء جاهزة للإبحار، وأنه سيجهزني بكل ما هو ضروري. سيكون من المضجر أن أسرد كل حججه واعتراضاتي. قال إن من المستحيل العثور على جزيرة منعزلة كالتي أرغب بالعيش فيها، لكنني قد أجد ذلك في منزلي وأقضي وقتي منعزلًا قدر ما أشاء.

استجبت له أخيرًا، بعد أن وجدت ألا مناص. غادرت لشبونة في الرابع والعشرين من نوفمبر على متن سفينة تجارية إنكليزية، لكنني لم أسأل أبدًا عن قبطانها. رافقني دون بيدرو إلى السفينة، ومنحني عشرين باوند، وودعني وداعًا طيبًا، ثم عانقني قبل أن نفترق، فتحملته بقدر ما استطعت. لم يحدث خلال هذه الرحلة الأخيرة أي تواصل بيني وبين القبطان، أو أي من رجاله، فقد تظاهرت بالمرض وبقيت في حجرتي. في الخامس من ديسمبر عام ١٧١٥ أنزِلت المرساة في ميناء داونز حوالي التاسعة صباحًا، وفي الثالثة عصرًا وصلتُ سالمًا إلى منزلي في ريدريف.

استقبلتني زوجتي وأولادي بدهشة وفرح كبيرين، لأنهم ظنوا أنني مت لا محالة. لكن لا بد من الاعتراف بأن منظرهم ملأني بالنفور والقرف والمقت، بل وأكثر من ذلك، نظرًا للقرابة الوطيدة التي تجمعني بهم. فرغم أنني أجبرت نفسي على تحملِ منظر بني الياهو منذ نفيي المشؤوم من أرض الهوينهم، وتحملِ الحديث مع دون بيدرو دي مينديز، إلا أن ذاكرتي وخيالي كانا دومًا ممتلئين بفضائل وأفكار أولئك الهوينهم العظماء. وعندما أخذت أفكر أنني بمضاجعة

واحدة من جنس الياهو أصبحت أبًا للمزيد منهم، شعرت بخجل واضطراب ورعب شديد.

أخذتني زوجتي بين ذراعيها وقبلتني فور دخولي إلى المنزل، لكنني لعدم اعتيادي على لمسة ذلك الكائن المقيت لسنوات عديدة، سقطت مغشيًا عليّ طوال ساعة. في الوقت الذي أكتب فيه الآن مرت خمس سنوات على عودتي الأخيرة إلى إنكلترا. خلال السنة الأولى لم أكن أتحمل وجود زوجتي أو أولادي معي، إذ كانت رائحتهم وحدها لا تطاق، ولم أكن أسمح لهم حتى بالأكل في الغرفة نفسها. ما زالوا لا يجرؤون على لمس خبزي أو الشرب من كأسي حتى هذه الساعة، ولم أستطع أبدًا أن أسمح لأي منهم بإمساك يدي. أول مالٍ أنفقته كان لشراء حصانين فحلين صغيرين [117]، أحتفظ بهما في إسطبل مناسب. سائسهما هو الكائن المفضل لدي من بعدهما، لأن روحي تنتعش بالرائحة التي تعلق به من الإسطبل. يفهمني حصاناي بشكل جيد، وأحدثهما كل يوم أربع ساعات على الأقل، وهما لا يعرفان السرج أو اللجام، ويعيشان في وئام معي، وفي صداقة سويًا.

الفصل الثاني عشر

حديث عن مصداقية المؤلف، وهدفه من نشر هذا العمل. ينتقد الرحالة الذين يحيدون عن الصدق. يبرئ نفسه من أي نوايا سيئة فيما كتب. يرد على انتقاد. طريقة إنشاء المستعمرات. مديح بلده الأصلي. يعلل حق الملك في البلاد التي وصفها في رحلاته. صعوبة غزوها. يودع المؤلفُ القارئَ الوداع الأخير. يحكي عن طريقة عيشه في المستقبل. يقدم نصيحة قيمة، ويختتم الكتاب.

هكذا، أيها القارئ العزيز، قدمت لك تاريخًا صادقًا عن رحلاتي لمدة تزيد على ستة عشر عامًا وستة أشهر. لم أكن في ذلك حريصًا على التنميق بقدر حرصي على الحقيقة، إذ كان بوسعي أن أدهشك كالآخرين بحكاياتٍ غريبة وغير معقولة، لكنني فضلت أن أسرد حقائق محضة بأبسط أسلوب وطريقة ممكنة، لأن هدفي الرئيسي كان إبلاغك وليس إمتاعك.

من السهل علينا نحن، الذين نسافر إلى بلاد بعيدة نادرًا ما يزورها الإنكليز أو الأوروبيون الآخرون، أن نصف حيواناتٍ غريبةً في البر والبحر، بينما يجب أن يكون هدف الرحالة الرئيسي أن يجعل البشر أفضل وأكثر حكمة، ويحسن عقولهم بأمثلة سيئة وكذلك جيدة في ما يحكيه عن البلاد الأجنبية.

أتمنى لو يُسن قانونٌ يلزِم كل رحالة، قبل السماح له بنشر رحلاته، بأن يقسم أمام وزير العدل على أن كل ما سوف ينشره صحيحٌ بحسب علمه، عندئذٍ لن يُخدع العالم كما يحدث عادة، حين يفرض بعضُ الكتاب أكبرَ الأباطيل على القارئ الغافل بهدف جعل عملهم ينتشر أكثر بين الناس. لقد استمتعت بقراءة الكثير من كتب الرحلات في صغري، لكنني بعد أن جلتُ معظم أنحاء العالم واكتشفت خطأ كثير من الحكايات من خلال تجربتي الخاصة، شعرت بالنفورِ من قراءة هذا النوع من الكتب، والامتعاضِ لرؤية هذا الاستغلال الوقح لسذاجة البشر. لذلك عندما رأى معارفي أن جهودِي المتواضعة قد لا تكون مرفوضة في بلدي، فرضتُ على نفسي قاعدة لا أحيد عنها، وهي أن ألتزم بالحقيقة التزامًا صارمًا. ولا يمكن بالطبع أن يغريني أي شيء بتركها، طالما أحتفظ في عقلي بدروس ومثال سيدي النبيل والهوينهم العظماء الآخرين، الذين كثيرًا ما تشرفت بأن أكون مستمعًا متواضعًا لهم.

ولو جعل القدرُ سينون بائسًا

فلن يجعله أيضًا كاذبًا مخادعًا ([118])

أعلم جيدًا أن الكتابات التي لا تتطلب ذكاءً أو علمًا أو أي موهبة أخرى سوى ذاكرة جيدة ومذكرات مسجلة بدقة، لا تكسب شهرة كبيرة. أعلم أيضًا أن كتّاب الرحلات مثل مؤلفي المعاجم، يبتلعهم النسيان بثقل وحجم من يأتون بعدهم ويستقرون على القمة. ومن المرجح أن الرحالة الذين سيزورون بعد الآن البلادَ التي وصفتها في عملي هذا، قد يتحرون أخطائي (إن وجدت) ويضيفون اكتشافات أخرى لاكتشافاتي، فيزاحمونني على شعبيتي ويأخذون مكاني، جاعلين العالم ينسى أنني كنت مؤلفًا يومًا. كان ذلك سيسبب لي خيبة كبيرة بالفعل لو كنت أكتب من أجل الشهرة، لكن طالما أن هدفي الوحيد هو المصلحة العامة، لن يخيب أملي كليًا. فمن يستطيع قراءة ما ذكرته من فضائل بني الهوينهم العظماء دون أن يشعر بالخجل من رذائله، وهو الذي يعدّ نفسه الحيوان العاقل الحاكم في بلده. لن أقول شيئًا عن الشعوب البعيدة التي يحكم فيها بنو الياهو، التي يعتبر شعب بروبدينغناغ أقلها فسادًا، وسيكون اتباع مبادئهم الحكيمة في الأخلاق والحكم من دواعي سعادتنا. لكنني لن أطيل أكثر، وسأترك القارئ الحكيم لتأملاته واستخلاص العبر.

أشعر بكثير من الرضا لأن عملي هذا لا يمكن أن يجد أي نقاد، فأي اعتراض يمكن أن يقدم ضد كاتب يورد حقائق محضة حدثت في بلاد بعيدة، ليس لنا فيها أي مصالح تتعلق بالتجارة أو المفاوضات؟ لقد تجنبت بحذر ارتكاب كل خطأ يُتهم به كتاب الرحلات عادة بشكل مستحق. بالإضافة إلى أنني لا أتدخل أبدًا بأي حزب، وأكتب دون أي عاطفة أو تحيز أو نية سيئة تجاه أي شخص أو جماعة كانت. إنني أكتب من أجل النية الأسمى، وهي تعليم وتوجيه بني البشر الذين أرى لنفسي عليهم بعضَ الأفضلية، دون أي تواضع، بفضل ما اكتسبتُه من خصالٍ بالحديث الطويل مع بني الهوينهم المثاليين. أنا لا أكتب طلبًا لأي ربح أو مديحٍ، ولا أسمح بوجود أي كلمة قد تبدو انتقادًا أو تسبب إهانةً حتى لأشد المهيئين للاستياء بسببها. لذلك أرجو أن أعلن نفسي مؤلفًا بريئًا تمامًا، لن يجد لديه أحدٌ من جموع المجيبين والمفكرين والمراقبين والنقاد والمحققين والمعلقين أي مادة يمارسون بها مواهبهم.

لقد قيل لي سرًا إنه كان من واجبي كمواطن إنكليزي تسليم مذكرة إلى وزير الخارجية فور وصولي، لأن أي أرض يكتشفها مواطن إنكليزي تؤول إلى المملكة. لكنني أشك في أن يكون احتلالنا للبلاد التي تحدثت عنها بسهولة غزو فرديناند كورتيز ([119]) للأمريكيين العراة. فالليليبوتيون بنظري بالكاد يستحقون عناء تجهيز أسطول وجيش للقضاء عليهم، وأتساءل إن كان من الآمن أو الحذر غزو البروبدينغناغيين، أو إن كان الجيش الإنكليزي سيشعر بالراحة بوجود الجزيرة الطائرة فوق رأسه. أما الهوينهم، فهم بالتأكيد لا يبدون جاهزين للحرب، وهم غرباء تمامًا عن هذا العلم، خاصة فيما يتعلق بالأسلحة والمدافع.

على أي حال، لو كنتُ وزير الخارجية فلن أنصح أبدًا بغزوهم، لأن حذرهم ووحدتهم وجهلهم للخوف وحبهم لبلادهم سيعوض بوفرة كل نقص لديهم في الفنون العسكرية. تخيل عشرين ألفًا منهم ينتشرون وسط جيش أوروبي، يخلون الصفوف، ويقلبون العربات، ويضربون رؤوس المقاتلين برفسات قاضية بحوافرهم الخلفية، فيستحقون بذلك الوصف الذي قيل في أغسطس قيصر: «يركل في كل اتجاه دفاعًا عن نفسه» (120). لكن بدلًا من اقتراح غزو ذلك الشعب النبيل، أتمنى لو كانوا يرغبون أو يستطيعون إرسال عدد كافٍ من سكانهم للارتقاء بأوروبا، بتعليمنا المبادئ الأساسية للشرف والعدالة والصدق والاعتدال والتضامن والجلَد والعفة والصداقة والإحسان والإخلاص، وهي فضائل ما زالت أسماؤها محفوظة في أغلب اللغات لدينا، ويستخدمها مؤلفون حديثون وقدماء، أستطيع أن أؤكد ذلك من قراءاتي القليلة.

لكنني أملك سببًا آخر يجعلني لا أفضل توسيع أراضي جلالة الملك باكتشافاتي. للحقيقة، لقد تشكلت لديّ شكوك بخصوص عدالة الملوك في هذه الأمور. على سبيل المثال؛ تقود عاصفة طاقمًا من القراصنة إلى وجهة مجهولة، بعد مدة يرى صبيٌ يابسةً من أعلى الصاري الرئيسي، فيرسون على الشاطئ ليبدؤوا النهب والسلب، يرون أشخاصًا مسالمين يستقبلونهم بطيبة، فيعطون البلد اسمًا جديدًا ويعلنون امتلاكها رسميًا من قبل الملك، ويغرسون لوح خشب عفن أو صخرة كنصب تذكاري. يقتلون بضع عشرات من السكان، ويأسرون عشرات آخرين بالقوة كي يأخذوهم عينة. يعودون إلى بلادهم، ويحصلون على عفو رسمي. هكذا تنشأ أرضٌ ملَكية جديدة مأخوذة بالحق المقدس. ترسَل السفن عند أول فرصة إلى هناك، فيُطرد السكان أو يقضى عليهم، ويعذَّب ملوكهم من أجل الكشف عن ذهبهم. يُعطى إذنٌ مطلق بارتكاب كل فعل جشع ولاإنساني، فتفوح الأرض بدماء سكانها، ويصبح طاقم الجزارين الملعون ذاك، الموظف في تلك البعثة التقية، مستعمرةً جديدة، مرسلةً لتنصير وتمدين شعبٍ وثني وهمجي.

لكنني أعترف أن هذا الوصف لا يمسّ إطلاقًا الشعب الإنكليزي، الذي قد يكون قدوة للعالم في الحكمة والعناية والعدل في إنشاء المستعمرات، والهبات السخية من أجل تقدم الدين والعلم، في اختيار كهنة ملتزمين ومؤهلين لنشر المسيحية، وحذره في تهيئة ولاياته بأشخاص ذوي حيوات وسلوك تقيين من هذه المملكة الأم، ومراعاته الجادة لنشر العدالة؛ في تزويد الإدارة المدنية في كل المستعمرات بموظفين يتمتعون بأعلى القدرات، وغرباء تمامًا عن الفساد، وفوق ذلك كله بإرسال أكثر الحكّام يقظة وفضيلة، ممن لا يملكون هدفًا سوى الحرص على سعادة الناس الذين يحكمونهم، وشرف سيدهم الملك.

لكن، بما أن هذه البلاد التي وصفتها لا تبدو راغبة بأن تغزى وتستعبد وتقتل أو تطرد شعوبها بالاستعمار، وليست غنية بالذهب أو الفضة أو السكر أو التبغ، استنتجتُ بكل تواضع أنها ليست هدفًا ملائمًا لتعصبنا أو شجاعتنا أو مصالحنا. على أي حال، إن كان لدى المعنيين بالأمر رأي آخر، فأنا مستعد أن أشهد مقسمًا، حين أستدعى بشكل رسمي، على أن ما من أوروبي زار تلك البلاد من قبلي قطّ. أعني، إن كان لا بد من تصديق السكان.

أما بالنسبة إلى التقليد المتبع من الاستيلاء على شيء باسم مملكتي، فذلك لم يخطر لي على بال أبدًا، ولو حدث، بحسب ظروفي في ذلك الوقت، كنت على الأغلب بدافع الحرص والحفاظ على الذات، سأؤجلها إلى فرصة أفضل. هكذا، بعد أن أجبت على الاعتراض الوحيد الذي يمكن أن يثار ضدي كرحالة، أودع هنا قرائي الأعزاء وداعًا أخيرًا، كي أعودَ للاستمتاع بتأملاتي في حديقتي الصغيرة في ريدريف، وأطبقَ تلك الدروس القيمة في الفضيلة، التي تعلمتها من بني الهوينهم، وأعلمَ الياهو في عائلتي، بقدر ما أجدهم حيوانات مطيعة؛ كي أنظر إلى نفسي في المرآة، وأحاولَ بذلك أن أعتاد مع الوقت على منظر الكائن البشري؛ كي أتحسر على بدائية بني الهوينهم في بلدي، لكن أعاملهم باحترام دومًا، كرامةً لسيدي النبيل وعائلته وأصدقائه وكل بني الهوينهم، الذين يتشرف أولئك الذين عندنا بتشابههم معهم في كل ملامحهم، مهما تخلفت عقولهم.

بدأتُ الأسبوع الماضي بالسماح لزوجتي بالجلوس معي على العشاء على الطرف الأبعد من المائدة، وبالإجابة -باختصار شديد- على الأسئلة القليلة التي أوجهها لها. لكنني كنت دائمًا أبقي أنفي محشوًا بالسذاب والخزامى أو أوراق التبغ، لأن رائحة الياهو ظلت مزعجة بالنسبة إلي. وبالرغم من صعوبة التخلص من عادات قديمة بالنسبة إلى رجل متقدم في السن، لم أفقد الأمل في أن أتمكن قريبًا من تحمل وجود جارٍ من بني الياهو بصحبتي، دون الخوف الذي ما زالت تثيره لديّ أسنانه أو مخالبه.

يمكن ألا يكون تصالحي مع بني الياهو بشكل عام شديد الصعوبة، لو أنهم يكتفون بالرذائل التي فرضتها عليهم الطبيعة. لا تستفزني رؤية محامٍ أو نشال أو كولونيل أو أحمق أو لورد أو مقامر أو سياسي أو قواد أو طبيب أو شاهد أو راشٍ أو مدعٍ عام أو خائن أو ما شابه، وكل ذلك يعد ضمن المسار الطبيعي للأمور. لكنني عندما أرى كتلة من التشوهات والأمراض في الجسد والعقل معًا، مصابةً فوق ذلك بالتكبّر، فذلك يفقدني صبري على الفور، ولن أستطيع أن أفهم أبدًا كيف يمكن أن يجتمع هذا الحيوان مع هذه الرذيلة. إن الهوينهم الحكماء والأفاضل، الذين يزخرون بكل الامتيازات التي قد تزين كائنًا عاقلًا، لا يعرفون لتلك الرذيلة كلمةً في لغتهم التي تخلو من أي مصطلح يعبر عن أي شر، إلا ما يستخدمونه للتعبير عن الصفات المقيتة للياهو عندهم، ولا

يستطيعون آن يميزوا بينها صفة التكبّر، لعجزهم عن فهم الطبيعة البشرية بشكل كافٍ، كما تظهر في البلاد الأخرى التي يحكم فيها ذلك الحيوان. لكنني أستطيع بسبب خبرتي أن ألاحظ بعض آثارها بوضوح عند ياهو البريّة.

إلا أن بني الهوينهم الذين يحكمهم العقل، لا يتباهون بالميزات التي يملكونها أكثر من مباهاتي بعدم نقص ذراعٍ أو رجلٍ من جسدي؛ فما من شخص ذو عقل سليم قد يتفاخر بذلك، رغم أنه سيكون بائسًا من دونهما. لقد أطلتُ في هذا الحديث بسبب رغبتي بجعل مجتمع الياهو الإنكليزي محتملًا بطريقة ما، لذلك أرجو ممن يملكون أي أثر لتلك الرذيلة السخيفة، ألا يحاولوا الظهور أمام ناظري ([121]).

انتهى

متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>لينك الانضمام الى الجروب – Group Link</u>

<u>لينك القنـــــاة – Link</u>

فهرس..

عن الرواية..

رسالةٌ من القبطان غَلِفِر إلى قريبه سيمبسون

٢/أبريل/١٧٢٧من المحرر إلى القارئ

القسم الأول

رحلةٌ إلى ليليبوت

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

القسم الثاني

رحلةٌ إلى بروبدينغناغ

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

القسم الثالث

رحلةٌ إلى لابوتا، بالنيباربي، لُغناغ، غلبْدبْدرِب، واليابان

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
القسم الرابع
رحلةٌ إلى بلاد الهوينهم
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر

Notes

[←1]

(1) ويليام دامبيير (١٦٥٢-١٧١٥) قبطان ومغامر ورحالة وقرصان وعالم جغرافيا البحر ومؤلف. مؤلفاته عن رحلاته، مثل كتاب «رحلة حول العالم» المذكور هنا، هي من كتب الرحلات التي كانت هدفًا لسخرية سويفت.

[←2]

(2) أضاف الناشر بنجامين موتّ إلى الطبعة الأولى، في الفصل السادس من القسم الرابع، فقرة مطولة تحوي مديحًا للملكة آن. حذفت تلك الفقرة لاحقًا من النسخة المنقحة التي أصدرها جورج فوكنر في دبلن عام ١٧٣٥.

[←3]

(3) الحصان الذي تولى العناية بغَلِڤر في القسم الرابع.

[←4]

(4) أقول ما لم يكن: تعبير عند بني الهوينهم يقصدون به الكذب.

[←5]

(5) الياهو: حيوان شبيه بالبشر مذكور في القسم الرابع.

[←6]

(6) هؤلاء: أي الهوينهم. أولئك: أي الياهو.

[←7]

(7) سميثفيلد: منطقة مفتوحة شمال غرب كنيسة سانت بول حيث كان الزنادقة يحرقون مع كتبهم في القرن السادس عشر.

[←8]

(8) ولد الرواج والاستفزاز الذين أثارهما كتاب رحلات غَلِڤر كثيرًا من الردود في عالم النشر، تضمنت نصوصًا ساخرة وشروحات ونشرات هجومية وتكملات وأعمالًا مستوحاة منه.

[9←]

(9) Utopia: أول من صك الكلمة هو السير توماس مور، اسمًا للجزيرة الخيالية الموصوفة في كتابه الصادر عام ١٥١٦ بالاسم نفسه، ويعني «اللامكان». لكن الكلمة تورية مأخوذة عن Eutopia التي تعني المكان السعيد، والتي صارت تستخدم بمعنى المجتمع المثالي. كتاب يوتوبيا للسيد توماس مور هو أحد مصادر سويفت، وسكان يوتوبيا في كتاب مور، مثل بني الهوينهم في كتاب سويفت، يعيشون وفقًا للعقل والطبيعة، وتملك أرض الهوينهم، مثل يوتوبيا، خصائص جذابة وأخرى منفرة للقارئ المعاصر، فلا أحد يجوع هناك، لكن بالمقابل يوجد قليل من الحرية الشخصية.

[←10]

(10) إحدى معتقدات بني الهوينهم.

[←11]

(11) منتقدو غَلِقر من البشر.

[←12]

(12)تكرار كلمة المصداقية تقليدٌ للسخرية الموجودة في كلمة «صادق» في كتاب لوسيان «تاريخٌ صادق»، وهو كتاب رحلات خيالي كان أحد مصادر سويفت في تأليف هذا الكتاب.

[←13]

(13)هو الاسم المستعار الذي استخدمه سويفت عند التفاوض مع الناشر بنجامين موتّ قبل وبعد نشر رحلات غَلِفر.

[←14]

(14)يبدو أن التفاصيل هنا تشير إلى أن غَلِڤر رجل إنكليزي من الطبقة الوسطى، يذهب إلى جامعة كامبردج ذات التأسيس البيوريتاني، في ملمح إلى أنه بروتستانتي متشدد. أما الافتتاحية فتبدو سخرية من طريقة كتاب الرحلات في إيراد تفاصيل شخصية، وسخرية من افتتاحية كتاب دانييل ديفو «روبنسون كروزو».

[←15]

(15)مدينة ليدن في هولندا، كانت تلك الجامعة تشتهر بتدريس الطب، وكانت وجهة تعليمية معتادة للبروتستانت المعارضين في إنكلترا.

[←16]

(16)من العبارات المفضلة لدى دامبيير.

[←17]

(17)الاسم القديم لتاسمانيا.

[←18]

(18) ١ ياردة = ٠.٩١ متر.

[←19]

(19) ١ إنش = ٢.٥٤ سم. نسبة طول سكان ليليبوت إلى طول غَلِفَر ١ إلى ١٢.

[←20]

(20)إشارة ساخرة إلى الملك جورج الأول، إلا أنه كان، على العكس تمامًا، قصيرًا وسمينًا وغريب الشكل.

[←21]

(21)الشفة السفلى المكتنزة المميزة لآل هابسبرغ.

[←22]

(22) Lingua Franca: لغة هجيبنة هي مزيج من الإيطالية والفرنسية واليونانية والعربية كانت تستخدم في دول شرق المتوسط حيث ذهب غَلِڤر في رحلاته السابقة.

[←23]

(23)معدن أحمر: النحاس.

[←24]

(24)تتوافق الألوان مع ألوان ثلاثة أوسمة في بريطانيا، هي وسام ربطة الساق (لونه أزرق) ووسام الحمام (لونه أحمر) ووسام الشوكة (لونه أخضر).

[←25]

(25) Colossus: إشارة إلى التمثال الذي يعتقد أنه كان واقفًا متباعد الساقين في مدخل ميناء مدينة رودس، وهو واحد من عجائب الدنيا السبع القديمة.

[←26]

(26)التطبيق الواقعي لذلك هو حزب الكنيسة العليا (المحافظون) وحزب الكنيسة الدنيا (الأحرار).

[←27]

(27)كانت إنكلترا في حرب طويلة مع فرنسا منذ ١٦٨٩ (أي لمدة ٣٦ عامًا قبل أن يبدأ سويفت كتابة رحلات غَلِڤر عام ١٧٢٥) أولًا في حرب اتحاد أوغسبورغ، ثم حرب الخلافة الإسبانية. القمر هنا يعادل سنة في عالم غَلِڤر.

[←28]

(28)إشارة إلى تشارلز الأول وجيمس الثاني. المقابل الواقعي للفقرة كاملة هو النزاع بين الكاثوليك (أتباع الطرف الكبير) والبروتستانت (أتباع الطرف الصغير).

[←29]

(29)أي هو كتابهم المقدس.

[←30]

(30)عقوبتها الموت.

[←31]

(31)يرفض سويفت في سخريته فكرة النسبية الثقافية، ويصر على الحقائق المطلقة فيما يخص الطبيعة البشرية والمجتمعات.

[←32]

(32)كما في إسبارطة القديمة، حيث كانت الدولة تتحكم بتعليم الأطفال، وتمنع تدخل الأهل به.

[←33]

(33)قصص الأطفال والحكايات الخرافية ممنوعة في جمهورية أفلاطون، وتلزم الأم أو المربية برواية قصص من القائمة المسموحة من قبل الحكومة حصرًا، بهدف تنمية الفضيلة في الصغار.

[←34]

(34)رمز رسميّ لمنصب وزير الخزينة.

[←35]

(35)شمال المحيط الهادي وجنوبه.

[←36]

(36)سيبيريا والمحيط المتجمد الشمالي

[←37]

(37)النسبة بين طول سكان بروبدينغناغ وطول غَلِڤر ١٢ إلى ١، بعكس النسبة بينه وبين سكان ليليبوت.

[←38]

(38)هي وجهة النظر الشائعة والتقليدية، لكن بول تيرنر يلاحظ أن سويفت خلق في رحلات غَلِڤر أثرًا مفاجئًا بجعل سكان بروبدينغناغ الأكثر إنسانية والأقل فسادًا بين الشعوب التي زارها غَلِڤر، كما كان هو نفسه عملاقًا طيبًا في ليليبوت.

[←39]

(39) Nanunculus: كلمة من اختراع سويفت، منحوتة من nanus: قزم، وhomunculus: دمية.

[←40]

(40) Homunceletino: كلمة منحوتة من homunculus أيضًا بإضافة لاحقة تصغيرية شبه إيطالية.

[←41]

(41) ٢٠ ميلًا.

[←42]

(42)عملة برتغالية ذهبية.

[←43]

(43)كانت العائلات الملكية غالبًا تجعل أقزامًا يعيشون معها.

[←44]

(44)طوله ٤٠٤ أقدام، ما يعادل ٤٨٤٨ قدم في بروبدينغناغ.

[←45]

(45):Dionysius of Halicarnassus مؤرخ إغريقي.

[←46]

(46)توجه ينسب إلى كتاب الأمير لميكافيللي.

[←47]

(47)مؤشر على المجتمع الجيد في رحلات غَلِڤر.

[←48]

(48)ابن هيليوس إله الشمس في الأسطورة الإغريقية.

[←49]

(49)شمال فييتنام.

[←50]

(50)أستراليا.

[51→]

(51)مدراس أو تشيناي جنوب الهند، أسست شركة الهند الشرقية قاعدة لها هناك عام ١٦٤٠.

[←52]

(52)كانت إنكلترا وهولندا طرفين في التحالف العظيم عام ١٧٠١.

[←53]

(53)تشير الإحداثيات في الخرائط الحديثة إلى مكان في المحيط الهادي شرق اليابان وجنوب جزر ألوتيان.

[←54]

(54)إشارة إلى بلاط هانوفر واهتمامه بالرياضيات. قيل إن الملك جورج الأول عبر عن سروره لأن نيوتن واحد من رعاياه في بلدٍ وليبنتز في الآخر.

[←55]

55))إشارة إلى تحليل نيوتن لحركة الكواكب في كتابه الأسس الرياضية (١٦٨٧) وتحذيره بأن أي اضطراب في سرعة الأرض بالنسبة إلى الشمس سيكون كارثيًا وسيؤدي إلى سقوط الأرض في الشمس. لكنه تفاءل بأن ذلك لن يحدث، لأن قيمة التباطؤ لا تذكر حتى خلال فترة طويلة من الزمن.

[←56]

(56)حضيض الكوكب أو المذنب هو النقطة الأقرب من مداره إلى الشمس.

[←57]

(57)كان العلماء يستخدمون الكلمة للتعبير عن الألماس أو حجر المغناطيس.

[←58]
(58)تنبأ سويفت بنجاح بوجود قمرين تابعين للمريخ، اكتشفا لاحقًا عام ١٨٧٧، وهما قريبان إلى حد كبير مما وصفه غَلِقر.

[←59]

(59)تلميح إلى مدينة دبلن في إيرلندا. تشير السخرية هنا إلى اضطهاد إنجلترا وقمعها لشعب إيرلندا.

[←60]

(60)هو رأي سويفت في أراضي الريف الإيرلندي المحيطة بمنزلي صديقين له، زارهما أثناء العمل على رحلات غَلِفر.

[←61]

(61)تذكر الدراسات أن هدف سخرية سويفت هو الجمعية الملكية في لندن، وجامعة ليدن (التي ارتادها غَلِفر)، والجمعية الفلسفية في دبلن. أما سخريته من العلم الجديد فهي تصف وتستند إلى تجارب حقيقية معاصرة مذكورة في منشورات الجمعية الملكية الإنكليزية.

[←62]

(62)إشارة إلى الجدل بين نيوتن وليبنتز حول أيهما اكتشف التفاضل والتكامل أولًا.

[63←]

(63)إشارة إلى رأي لوكريثيوس في قصيدته «طبيعة الأشياء»، بأن الصوت مصنوع من جزيئات مادية، لذلك تسبب كثرة الكلام بحة الحلق.

[←64]

(64)إشارة إلى اليد التي تأخذ الرشوة.

[←65]

(65)كلمة مكونة من تبديل حروف كلمة «بريطانيا».

[←66]

(66)كلمة مكونة من تبديل حروف كلمة «إنكلترا».

[←67]

(67)كانت الحكومة تصادر أملاك المتهمين بالخيانة.

[←68]

(68) Buzard: نوع عديم الفائدة من الصقور، إشارة إلى الغباء والجهل.

[←69]

69))وردت في النص الشمال الغربي، رغم أن الخريطة تظهر لغناغ جنوب غرب بالنيباربي.

[←70]

(70)تسمى أيضًا معركة غاوغاميلا، هزم فيها الإسكندر المقدوني جيشَ الفرس بقيادة داريوس الثالث عام ٣٣١ ق.م.

[←71]

(71)ذكر بلوتارخ القصة في كتابه «حياة الإسكندر»، لكنه رفض تلك الفكرة، وكان من رأيه أن الإسكندر مات بسبب المرض.

[←72]

(72)إشارة إلى القصة التي تقول إن القائد حنبعل استطاع اجتياز الصخور التي اعترضت طريقه في جبال الألب الإيطالية بتسخينها ثم صب الخل عليها لإلانتها.

[←73]

(73)في معركة فارساليا عام ٤٨ ق.م، التي هزم قيصرُ فيها بومبي.

[←74]

(74)انتصاره في معركة موندا على أبناء بومبي عام ٤٥ ق.م

[←75]

(75) Marcus Junius Brutus، صديق مقرب لقيصر، وكان أحد المتآمرين الذين اغتالوه عام ٤٤ ق.م.، يرى سويفت وكثير من معاصريه في أوائل القرن الثامن العشر في بروتس بطلًا مدافعًا عن الحرية.

[←76]

(76) Lucius Junius Brutus، الذي قاد ثورة بعد حادثة اغتصاب أخته لوكريشيا أدت إلى إنهاء النظام الملكي وإقامة الجمهورية الرومانية.

[←77]

(77) Socrates، فيلسوف يوناني من أثينا. (٣٩٩-٤٦٩ ق.م).

[←78]

(78) Epaminodas (٤٢٠-٣٦٢ ق.م): قائد عسكري ورجل دولة يوناني من طيبة.

[←79]

(79) Marcius Porcius Cato (٤٦-٩٥ ق.م): مدافع عن الجمهورية الرومانية ضد يوليوس قيصر.

[←80]

(80) Sir Thomas More: مؤلف كتاب يوتوبيا، شهيد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، أعدم لرفضه الاعتراف بهنري الثامن رئيسًا للكنيسة الإنكليزية.

[←81]

(81)يشاع أن هوميروس كان ضريرًا، لكن سويفت حذا حذو لوسيان في كتابه تاريخ صادق: «لم يكن من داعٍ لسؤاله إن كان ضريرًا حقًا، لأنني استطعت أن أرى بنفسي أنه ليس كذلك».

[←82]

(82) Didymus of Alexandria، مؤلف أحد الشروح لأعمال هوميروس.

[←83]

(83) Eustathius، رئيس أساقفة سالونيكا، مؤلف أحد الشروح للإلياذة والأوديسة.

[←84] (84) Duns Scotus، فيلسوف اسكتلندي، مؤلف أحد الشروح عن أرسطو.

[←85]

(85) Pierre de la Ramee، خصم فرنسي مشهور لفلسفة أرسطو.

[←86]

(86) Renee Descartes، فيلسوف وعالم رياضيات فرنسي.

[←87]

(87) Pierre Gassendi، فيلسوف وفلكي وعالم رياضيات فرنسي، أعاد إحياء نظرية أبيقور في الفيزياء الذرية.

[←88]

(88)نظرية الجاذبية عند نيوتن، التي حلت محل نظرية الدوامات الديكارتية.

[←89]

(89) Eliogabalus: إمبراطور روماني اشتهر بحبه للترف والبذخ.

[←90]

(90) Agesilaus: أحد ملوك إسبارطة.

[←91]

(91) Spartan Broth: حساء أسود اللون يعد طبقًا إسبارطيًا شهيرًا. يقال إن أحد ملوك بونتس استأجر طباخًا إسبارطيًا ليصنع له ذلك الحساء، لكنه لم يعجبه.

[←92]

(92) Polydore Virgil: رجل إيطالي أصبح رئيسًا للشمامسة في إنكلترا. كتب مؤلفًا ضخمًا عن تاريخ إنكلترا. يرجع سويفت القارئ إلى عمل تاريخي مؤلف من ستة وعشرين مجلدًا وأعمال أخرى من أجل قول يبدو أنه غير موجود فيها أصلًا.

[←93]

(93) Actium: معركة بحرية عام ٣١ ق.م انتصر فيها أوكتافيان (أغسطس لاحقًا) على أنطونيو وكليوبترا.

[94←]

(94)يذكر بلوتارخ في كتابه «حياة أنطونيو» أن السبب الحقيقي كان إبحار كليوبترا بعيدًا بسفنها الستين ولحاق أنطونيو بها.

[←95]

(95) Gellius Publicola: قائد الجناح الأيمن في أسطول أنطونيو في معركة أكتيوم.

[←96]

(96) Marcus Vipsanius Agrippa: كان المسؤول بشكل رئيسي عن نصر أسطول أوكتافيان في معركة أكتيوم.

[←97]

(97)بعد قمع ثورة المسيحيين عام ١٦٣٨ أغلقت اليابان حدودها في وجه كل الأوروبيين عدا الهولنديين، ذلك لأنهم ساعدوا الحكومة في مواجهة الثوار.

[←98]

(98)الاسم القديم لطوكيو، ويطلق عليها إيدو.

[←99]

(99) Yefumi: تعني السير على صور المسيح، وهو إجراء كانت تتبعه الحكومة اليابانية لكشف المسيحيين، حين كانت الديانة المسيحية محظورة في اليابان. لم يكن لدى الهولنديين مانع من فعل ذلك مما جعلهم يحتكرون التجارة هناك لأنفسهم.

[←100]

(100)ياهو: كائن ليس من البشر لكنه شبيه بهم، وتعمل سخرية سويفت على الخلط بينه وبين البشر.

[←101]

(101)هوينهم: الكائنات الخيالية المدعوة هوينهم هنا هي أحصنة، وابتكر سويفت الاسم ليعبر عن صوت الصهيل.

[←102]

(102) Tenerife: أكبر جزيرة من جزر الكناري.

[←103]

(103) Bay of Campeachy: يقع خليج كامبيتشي ضمن خليج المكسيك. أما شجر الدم (Logwood) فقد كان يُستخلص من أخشابه أصباغ قيمة تعرف باسم الذهب الأسود.

[←104]

(104) Barbadoes: مستعمرة إنكليزية في جزر الهند الغربية.

[←105]

(105)جزيرة تقع قرب الساحل الجنوبي الشرقي لإفريقيا، وكانت مقصدًا مفضلًا للقراصنة.

[←106]

(106)جهل الهوينهم المطلق بمفهوم الثياب يمثل البراءة، بينما يمثل العريّ البساطة والصدق والفضيلة في التقاليد الكلاسيكية والمسيحية.

[←107]

(107)إشارة إلى أن بني الهوينهم لا يعرفون العجلات، مما يعني أنهم يعيشون في عصر ذهبي بدائي.

[←108]

(108)حرب رابطة أوغسبورغ (١٦٨٩-١٦٩٧)، التي تبعتها حرب الخلافة الإسبانية (١٧٠١-١٧١٣).

[←109]

(109)اعتبرت بعض الطوائف المسيحية الغناء والعزف في الكنائس عملًا آثمًا.

[←110]

(110)المقصود هو الصليب أو صور الرموز الدينية. تشير سخرية سويفت إلى تقديس الأيقونات عند الكاثوليك، وكراهتها بالمقابل عند البيوريتان.

[←111]

(111)بوصفه من حزب المحافظين، كان انتقاد سويفت موجهًا إلى قانون الحصانة الصادر عام ١٧٠٨، الذي حمى وزراء حزب الأحرار من الملاحقة القضائية.

[←112]

(112)يفترض غَلِڤر بقوله هذا شهرة كتابه، إذ لم يسمع أحد ببني الهوينهم من قبل.

[←113]

(113)الاسم القديم لأستراليا.

[←114]

(114) Herman Moll: رسام خرائط شهير في لندن، كانت خريطة العالم التي نشرها عام ١٧١٩ مرجعًا أساسيًا للخرائط الموجودة في كتاب رحلات غَلِفر.

[←115]

.Gratis (115)

[←116]

(116)في الطبعة الأولى كان للجملة تتمة كالتالي: «خاصة أنه اعترف بأنه التقى قبطانًا هولنديًا ادعى أنه نزل مع خمسة من أفراد طاقمه في جزيرة أو قارة جنوب هولندا الجديدة، حيث مضوا يبحثون عن ماءٍ عذب، فرأوا حصانًا يقود أمامه عددًا من الحيوانات الذين يشبهون تمامًا أولئك الذين وصفتهم من بني الياهو، وذكر تفاصيل أخرى قال القبطان إنه قد نسيها، لأنه ظن في ذلك الوقت أن هذه مجرد أكاذيب».

حذف فوكنر هذه الفقرة من طبعة عام ١٧٣٥، غالبًا كي يتجنب إثارة الشك حول مصداقية بني الهوينهم، الذين أخبروا غَلِفر أن «ما من أوروبي زار تلك البلاد من قبلي قطّ».

[←117]

(117)إشارة إلى أن غَلِڤر لا يخصي أحصنته.

[118←]

(118)الإلياذة، فيرجيل (II. ٧٩-٨٠) وردت الأبيات على لسان سينون الإغريقي، الذي أقنع بكذبته المشهورة أهل طروادة بأخذ الحصان الخشبي (المليء بالإغريق) إلى داخل أسوار المدينة، فأدى ذلك إلى دمارها. بالمقارنة، يحكي غَلِفر حكاية كاذبة يمكنها أن تدمر لندن الفاسدة من وجهة نظر سويفت، بتقديمها مبادئ شعب الهوينهم التي استوحاها من النموذج الإغريقي (الإسبارطي والأفلاطوني).

[←119]

(119) Hernan Cortez: فاتح إسباني غزا المكسيك وروّع السكان.

[←120]

(120)هوراس، هجاء (II.. ٢٠)، من قصيدة للشاعر الروماني هوراس، حيث شبه أغسطس قيصر بالجواد، وكان يقصد بذلك أنه ليس بحاجة إلى كتابة قصائد في مديح ذلك الإمبراطور، لأنه قادر على الدفاع عن نفسه.

[←121]

(121)حدث ما خافه غَلِڤر وعاد إلى المفاسد البشرية منذ رجع من أرض الهوينهم، وهو بكلامه هذا يمارس «الرذيلة السخيفة» نفسها التي يحذّر منها.